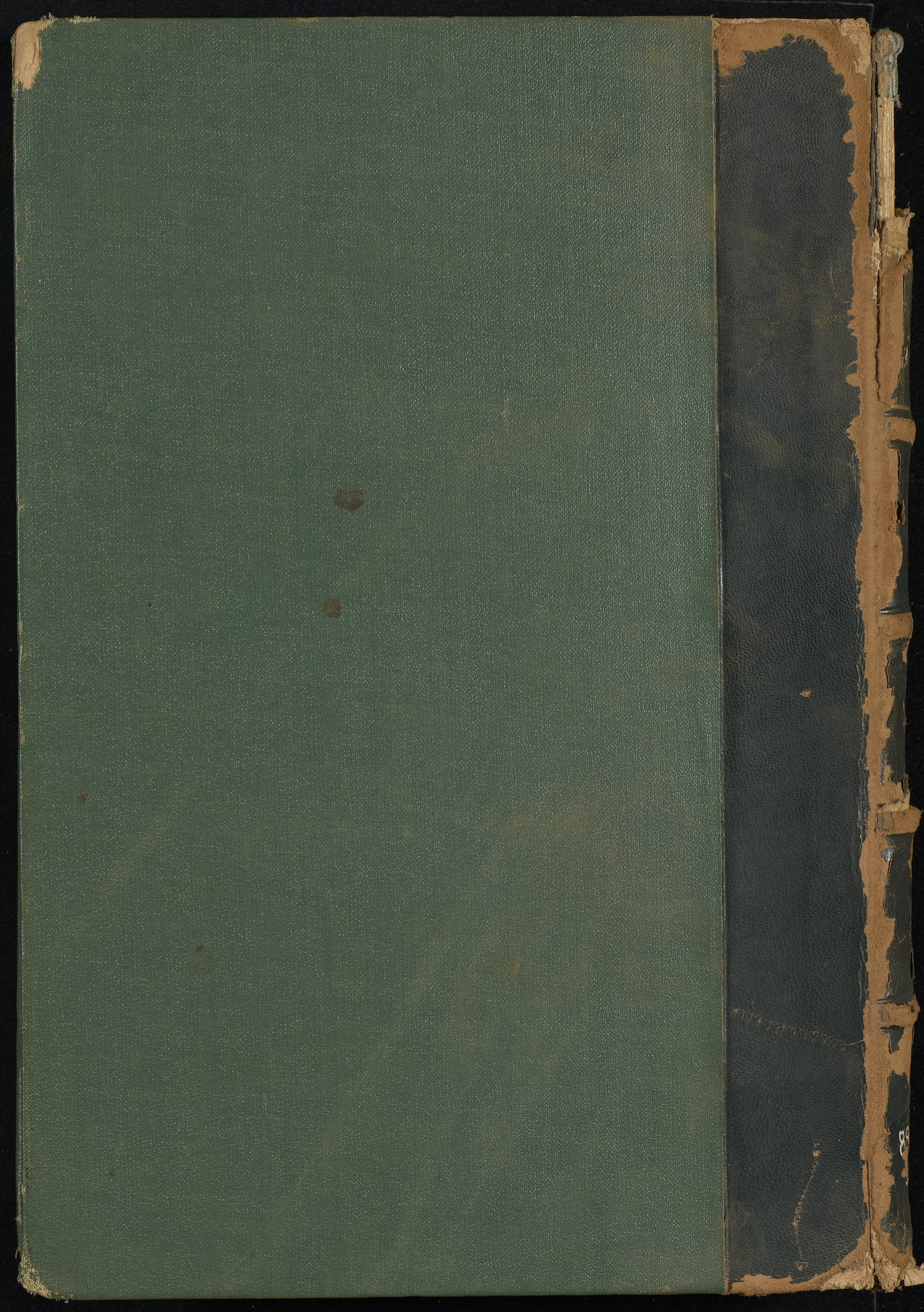
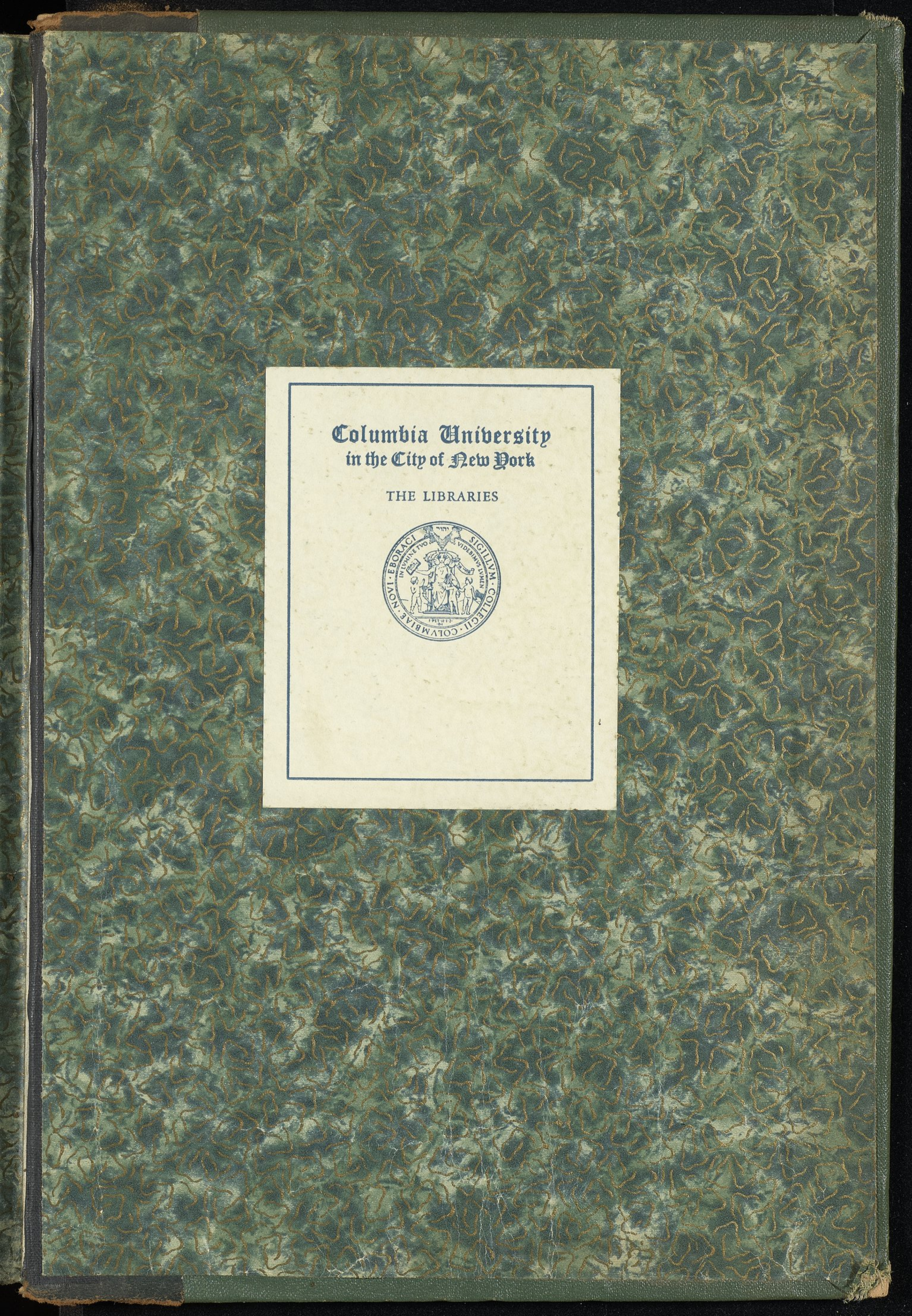
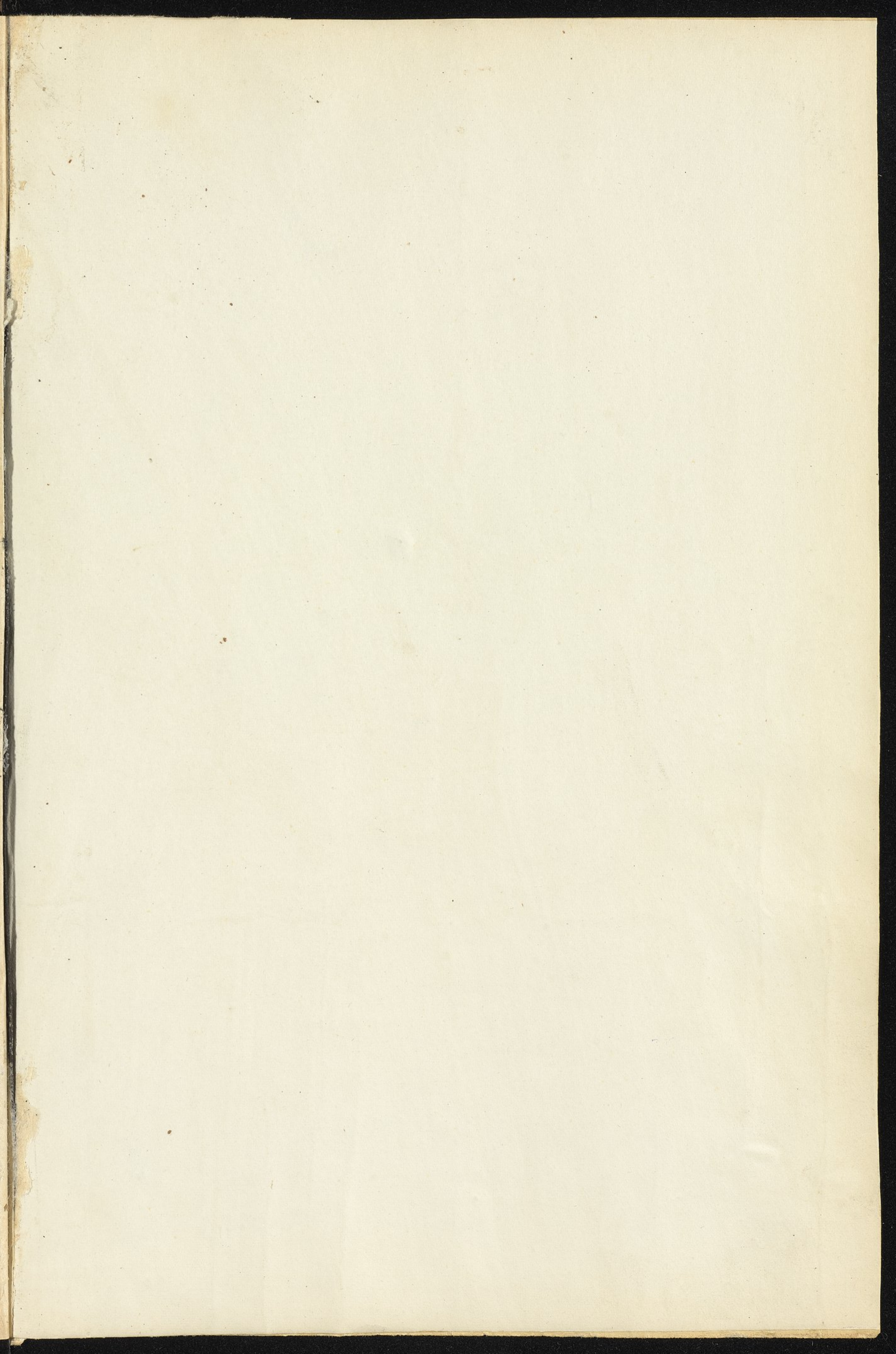



Columbia University
in the City of New York
THE LIBRARIES





دار الكتب المصرية

القسم الأدبى

الجامع لأحكام القرآن

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى

الجزء الأوّل



القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٧٢ هـ — ١٩٥٢ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثانية

لعلّنا فى غير حاجة إلى تعريف القرّاء بهـذا التفسير العظيم ، بعـد أن عرفوه فى طبعتـه الأولى ، فأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير . إذ لم يكد يخرج منه جزء حتى تهافت عليه الجمهور ، ممن عرفوا فضلَ القرطبي وعلمَه وأدبَه ، ودقّته فى تأويل كتاب الله تعالى ، وعَرْض أقوال الأئمة من جهابذة المحققين ، وأُولى البصر بكتاب الله من أعلام المجتهدين .

ولقد رأى القرّاء حين طلع عليهم تفسير القرطبي مبلغ ما بذله مؤلّفه فيـه من جهد كبير ، وعناية فائقة ؛ يدلّان على عُمقه فى البحث ، ومقدرته على فهم كتاب الله ، وإلمامه بأصول علوم الشريعـة وفروعها ، من لغـة وأدب وبلاغة . يتجلّى كل أولئك فى استنباطه الأحكام الشرعية من نصوص الآيات الكريمة ، حتى ليكاد يستغنى به القارئ عن دراسة كتب الفقه ، ثم فى استشهاده بكثير من النصوص الأدبية من لغة العرب شعرها ونثرها ؛ مما يشهد له بطول الباع وسَعة الأفق .

وإن أُخِذ عليـه شىء فليس إلا هَنَاتٍ يسيرةً ، لا تنقص من مقـداره ، ولا تغضّ من قيمته ؛ فقد ينبو الحسام ، وقد يكبو الجواد .

فمن ذلك أنه خالف أحيانا ما اشترطه على نفسه فى مقدّمة كتابه إذ يقول : « ... وأضرب عن كثير من قَصص المفسرين ، وأخبار المؤرّخين ؛ إلا ما لا بُدّ منـه ، ولا غنى عنه للتبيين ... » ؛

فليس مما لا بُدّ منه أو لا غنى عنه ماينقله عن كعب الأحبار : « أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها، فألقى فى قلبه فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا[1] من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال ! لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك، فبعث الله دابة فدخلت فى منخره، فعجّ إلى الله منها فخرجت ... »[2] .

وليس مما لا بُدّ منه : « أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ؛ فلما أهبطوا تأكّدت العداوة وجعل رزقها التراب »[3] .

وليس مما لا بُدّ منه ما يرويه عن ابن عباس قال : «سألت اليهودُ النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال : مَلَكٌ من الملائكة معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله »[4] .

وليس مما لا بُدّ منه ما ذكره عن كلب أصحاب الكهف والاختلاف فى لونه وفى اسمه[5] . ولا ما يرويه عن الزُّهرى فى قوله تعالى « جاعِلِ الملائكةِ رُسُلًا أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : أن جبريل عليه السلام قال له : يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، وإن العرش لعلى كاهله ، وإنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصْع[6] ... » .

ولا ما ذكره فى قوله تعالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فوقهم يومئذٍ ثمانيةٌ » : أن فوق السماء السابعة ثمانية أوعال[7] بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، وفوق ظهورهن العرش »[8] .

---

(١) اسم الحوت .　(٢) راجع جـ ١ ص ٢٥٧ .　(٣) جـ ١ ص ٣١٣ .

(٤) جـ ١ ص ٢١٧ .　(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٠ .　(٦) جـ ١٤ ص ٣٢٠ والوصع : عصفور صغير .

(٧) الأوعال : جمع وعل ، وهو التيس الجبلى .　(٨) جـ ١٨ ص ٢٦٧

إلى غير ذلك من الأمثلة التى ترِد فى مناسبات مختلفة ، جارَى فيها من سبقه من المفسرين الذين ينقلون عن الإسرائيليّات ولا يتحرّوْن الدقة فى المعلومات الكونية ، خصوصا فى الكلام على خلق السموات والأرض ، وتأويل الآيات التى تتعرض للظواهر الطبيعية ، أو تشير إلى المسائل العلمية .

وللمؤلف فى ذلك كثير من العذر ؛ لأنه — رحمه الله — تابع فيه ثقافة عصره ، وما تجرى به ألسنة العلماء فى ذلك الزمان .

وقد رأت الدار — بعد أن تحقّقت حاجة الناس إلى هذا الكتاب ، ورغبة الكثير من العلماء فى الأقطار الإسلامية فى ذيوعه — أن تقرّر إعادة طبعه تعميما للفائدة .

هذا ، وسيرى القارئ أننا حرصنا على أن تكون هذه الطبعة موافقة لسابقتها فى أجزائها وصفحاتها وأرقامها ، إلا فى تفاوت يسير ، يستطيع القارئ أن يدركه فى الصفحة التالية أو السابقة .

كما أننا نبهنا فى هذه الطبعة إلى أمر لم يكن فى سابقتها ؛ فعندما يذكر المؤلف عبارة : « على ما يأتى بيانه » نوضّح ذلك فى الهامش ، مبيّنين موضعه من الكتاب ؛ حتى يسهل على القارئ متابعة الدراسة ، وربط الكلام بعضه ببعض ، دون جهد أو عناء .

ولا يفوتنى أن أُنوّه بفضل حضرات الزملاء الذين آشتركوا معى فى تصحيح هذا الكتاب فى طبعته الأولى بعد جزئه الرابع ، وهم السادة : الشيخ إبراهيم اطفيش ، والشيخ بشندى خلف الله ، والشيخ محمد محمد حسنين .

والله المسئول أن ينفع بهذا التفسير الجليل ، وأن يجزى مؤلفه خير الجزاء ، وأن يعين القائمين بنشر التراث الإسلامى من أمثال هذا الكتاب العظيم . وأن يوفّق « الدار » فى تأدية رسالتها حتى تنهض بهذا العبء الكبير ، وتقدّم للعالم أجمع خير تراث تركه الأقدمون .

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحابته أجمعين ؟

مصححه

أحمد عبد العليم البردونى

١٦ من المحرّم سنة ١٣٧٢ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٥٢)

*

ترجمــــة

أبي عبـد الله القرطبي

مؤلف هذا التفسير[1]

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح (بإسكان الراء و بالحاء المهملة)، الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبي المفسّر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. أوقاتُه معمورة ما بين تَوجُّهٍ وعبادةٍ وتصنيف.

مؤلَّفاته — جمع فى تفسير القرآن كتابا كبيرا فى اثنى عشر مجلدا، سمّاه كتاب "الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّن من السنة وآى الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلّة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ (وهو هذا التفسير). وله كتاب "الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى". وكتاب "التّذكار، فى أفضل الأذكار". وضعه على طريقة التبيان للنّووى، لكن هذا أتمّ منه وأكثر علما. وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة". وكتاب "شرح التّقصى". وكتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة". قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه. وله "أرجوزة جمع فيها أسماء النبى صلى الله عليه وسلم". وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هـذا. وكان مطّرحا للتكلّف، يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. قال صاحب نفح الطيّب: إنه من الراحلين من الأندلس.

---

(١) عن الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون، ونفح الطيب للمقرى.

شيوخه – سمع من الشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه "المُفْهِم، لما أشكل من تلخيص كتاب مُسْلِم".

وحدّث عن الحافظ أبى علىّ الحسن بن محمد بن محمد البكرى، وحدّث أيضا عن الحافظ أبى الحسن علىّ بن محمد بن على بن حفص اليَحْصِبىّ وغيرهما.

وكان مستقرا بمنية ابن خَصيب، وتُوُفّىَ ودُفن بها فى ليلة الاثنين التاسع من شوّال سنة ٦٧١، رحمه الله ورضى عنه.

فهـرس الجـزء الأول

تفسـير سـورة الفـاتحة

وفيها أربعة أبواب :

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

قال الشيخ الفقيه الإمامُ العالمُ العاملُ العلامةُ المحدّثُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح الأنصارى الخزرجى الأندلسىّ ثم القرطبى، رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصّمَد الواحد، الحىّ القيوم الذى لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام؛ والمتكلمُ بالقرآن، والخالقُ الإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا صلّى الله عليه وسلم ما اختلف الْمَلَوان[1]، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارقِ بين الشك واليقين؛ الذى أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعيت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيرا . جعل أمثاله عِبرًا لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن استبصرها؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكام، وفرق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعِظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى : «مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ»[2] . خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا . فقرَأَةُ القرآنِ حَمَلَةُ سِرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخِيرته وأصفياؤه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله أهلين منّا[3]" قالوا : يارسول الله، مَن هم ؟ قال: "هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته" أخرجه ابن ماجه فى سننه، وأبو بكر البزّار فى مُسنده . فما أَحَقَّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكّر

---

(١) الملوان : الليل والنهار . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) فى سنن ابن ماجه : "من الناس".

ما شُرِح له فيه، ويخشى الله ويتّقيه، ويراقبه ويستحييه. فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »(١). ألا وإنّ الحجة على من علِمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجَهِله. ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع؛ وآرتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا؛ كان القرآن حجةً عليه، وخصماً لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القرآن حجة لك أو عليك" خرّجه مسلم. فالواجب على من خصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبّر حقائق عبارته؛ ويتفهّم عجائبه، ويتبيّن غرائبه؛ قال الله تعالى: « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ »(٢). وقال الله تعالى: « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »(٣). جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبّره حق تدبّره؛ ويقوم بقسطه، ويوفى بشرطه، ولا يلتمس الهُدَى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة. ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مُشْكِلا، وتحقيقَ ما كان منه محتملا؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال الله تعالى: « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٤). ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم آستنباط ما نبّه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم؛ قال الله تعالى: « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »(٥). فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا. فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوْعِيَةَ كتابه، وآذاننا مواردَ سننِ نبيّه؛ وهِمَمنا مصروفةً إلى تعلّمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما؛ طالبين بذلك رِضَا رب العالمين، ومتدرّجين به إلى علم المِلّة والدِّين.

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذى آستقل بالسُّنّة والفَرْض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض؛ رأيتُ أن أشتغل به مَدَى عمرى، وأستفرغ

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة. (٢) آية ٢٩ سورة ص. (٣) آية ٢٤ سورة القتال.
(٤) آية ٤٤ سورة النحل. (٥) آية ١١ سورة المجادلة.

فيه مُنَّتِي[1] ؛ بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا، يتضمّن نُكَتًا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات ؛ والردّ على أهل الزَّيْغ والضلالات ، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ؛ جامعًا بين معانيهما، ومُبيِّنًا ما أشكل منهما ؛ بأقاويل السلف، ومَن تبعهم من الخَلَف . وعَمِلتُه تذكرةً لنفسي ، وذخيرةً ليوم رَمْسِي، وعملاً صالحا بعد موتي . قال الله تعالى : « يُنَبَّأُ ٱلْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[2] . وقال تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[3] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له " .

وشرطي في هذا الكتاب : إضافة الأقوال الى قائليها، والأحاديث الى مصنِّفيها ؛ فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله . وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مُبْهَمًا، لا يَعرف مَن أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نُشير الى جُمَل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قَصَص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا ما لا بُدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين ؛ واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام ، بمسائلَ تُسْفِر عن معناها ، وتُرشِد الطالب الى مقتضاها ؛ فضمّنت كل آية تتضمن حُكما أو حكمين فما زاد ، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حُكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا الى آخر الكتاب .

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن ، والمبيّن لما تضمّنه من السُّنّة وآي الفرقان) ، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه ؛ إنه سميع الدعاء ، قريب مجيب ؛ آمين .

---

(١) المنة (بالضم) : القوة . (٢) آية ١٣ سورة القيامة . (٣) آية ٥ سورة الانفطار .

باب ذكر جُمَل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعـامل به

اِعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتباً كثيرة، نذكر من ذلك نُكَتًا تدلّ على فضله، وما أعدّ الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به . فأوّل ذلك أن يستشْعِر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شئ، وصفةُ من ليس له شبيه ولا نِدّ، فهو من نور ذاته جلّ وعَزّ؛ وأن القراءة أصوات القُرّاء ونغماتهم، وهى أكسابهم التى يؤمرون بها فى حالٍ إيجاباً فى بعض العبادات، ونَدْباً فى كثير من الأوقات؛ ويُزْجَرون عنها إذا أَجْنَبُوا[1]، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار، ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتى بيانه . ولولا أنه — سبحانه — جعل فى قلوب عباده من القوّة على حمله ما جعله؛ ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضـه، لضعفت ولاندكّت بثقله، أو لتضعضعت له وأنّى تطيقه؛ وهو يقول — تعالى جَدّه — وقوله الحق : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ»[2] . فأين قوّة القلوب من قوّة الجبال ! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوّة على حمله ما شاء أن يرزقهم؛ فضلاً منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار فى هـذا الباب — فأوّل ذلك ما خرّجه الترمـذىّ عن أبى سعيد قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " يقول الربّ تبارك وتعـالى مَن شَغله القرآنُ وذِكْرِى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين — قال : — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " . قال : هـذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمـد الدّارمىّ السَّـمَرْقَنْدِىّ فى مسنده عن عبد الله قال : السبع الطُّوَل مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثانى مثل الزَّبور، وسائر القرآن بعدُ فضـلٌ . وأسند عن الحارث

(١) فى نسخة : ويؤجرون عنها إذا أجيبوا . (٢) آية ٢١ سورة الحشر .

عن علىّ رضى الله عنه وخرّجه الترمذى قال : سمعت[1] رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ستكون فِتَنٌ كقِطع الّليل المظلم . قلت يارسـول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتابُ الله تبارك وتعالى فيه نَبأ من قبلكم وخبرُ ما بعدكم وحُكم ما بينكم هو الفَصْل ليس بالهَزْل مَن تركه مِن جبّار قصمه الله ومَن ٱبتغى الهُدَى فى غيره أضلّه الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذّكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يَملّه الأتقياء ولا يَخلَق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا مَن علِم عِلمه سَبَق ومن قال به صدق ومَن حكم به عدل ومَن عمل به أُجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعْوَر[2]" .

« الحارث » رماه الشعبىّ بالكذب وليس بشىء ، ولم يَبِنْ من الحارث كذب ، وإنما نُقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا — والله أعلم — كذّبه الشعبىّ ؛ لأن الشعبىّ يذهب إلى تفضيل أبى بكر ، وإلى أنه أوّل من أسـلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظنّ الشعبىّ عوقب لقوله فى الحارث الهَمْدانىّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذّابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوىّ اللغوىّ فى كتاب « الردّ على من خالف مصحف عثمان » عن عبـد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن هـذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدبته ما ٱستطعتم إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمةُ مَن تمسـك به ونجاةُ مَن ٱتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يَخلَق عن كثرة الردّ فٱتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الٓمٓ حَرْفٌ ولا أُلْفينّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيـه سورة البقرة وإن أصْفَر البيوت من الخير البيتُ الصّفِر من كتاب الله" . وقال أبو عبيد فى غريبه عن عبدالله قال : إن هذا القرآن مأدبة

(١) ورد هـذا الحديث فى صحيح الترمذى (ج ٢ ص ١٤٩ طبع بولاق) مع اختـلاف فى بعض كلماته وزيادة ونقص . (٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث .

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ ، شَبّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليــه . يقال : مأدُبة ومأدَبة ؛ فمن قال : مأدُبة ؛ أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليــه الناس . ومن قال : مأدَبة ؛ فإنه يذهب به إلى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : " إن هــذا القرآن مأدَبة الله عزّ وجلّ فتعلّموا من مأدبتــه " . وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد ، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره . [قال :] والتفسير الأوّل أعجب إلىّ .

وروى البخارىّ عن عثمان بن عفّان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه " . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " مَثَلُ المؤمِن الذى يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجّة رِيحُها طيّب وطعمها طيّب ومَثَلُ المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومَثَلُ المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ ومَثَلُ المنافِقِ الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مُر " . وفى رواية : " مثـل الفاجر " بدل " المنافق " . وقال البخارىّ : " مثـل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ومَثَل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ... " وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارى : وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانىّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم ، ح[1] . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشب : أن أبا عبد الرحمن

(١) جرت العادة بالاقتصار على الرمز فى حدّثنا وأخبرنا ، وآستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ، واشتهر ذلك بحيث لا يخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهى الثاء والنون والألف ، وربما حذفوا الثاء . ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد الى إسناد «ح» وهى حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحول ، لتحوّله من إسناد الى إسناد ، وأنه يقول القارئ اذا آنتهى اليها : « ح » ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا حجز ، لكونها حالت بين الاسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ؛ بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصـلوا إليها : الحديث . ثم هــذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة فى صحيح مسلم ، قليلة فى صحيح البخارى . (عن مقدّمة النووى على صحيح مسلم) .

السُّلَمى - كان إذا ختم عليه الخاتِمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هذا ، اتق الله ! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عَمِلتَ بالذى عَلِمت . وروى الدارمى عن وهب الذمارِى قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام . قال سعيد(١) : السَّفَرة الملائكة، والأحكامُ(٢) الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المـاهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام الْبَرَرَة والذى يقرأ القرآن و يَتَتَعْتَع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران". التتعتع : التردّد فى الكلام عِيًّا وصعوبة ؛ و إنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة؛ ودرجات المـاهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ، ثم ترقّى عن ذلك إلى أن شبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن أَلِف حرف ولام حرف وميم حرف " . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رُوِىَ موقوفًا . وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصُّفَّة ؛ فقال : " أيكم يُحِبّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحانَ أو إلى العَقيق فيأتىَ منه بناقتين كَوْماوَيْنِ(٣) فى غير إثم ولا قطع رَحم " فقلنا : يا رسول الله، كلنا نحب ذلك ؛ قال : "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم(٤) أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خير له من ثلاثٍ وأربعٌ خير له من أربع ومِن أعدادهنّ من الإبل".

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن نَفَّس عن مسلم كُرْبَة من كُرَب الدنيا نَفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة ومَن يَسّر على مُعْسر يَسّر الله عليه

(١) سعيد هذا ، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبى يحيى التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف . (٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الغرض وذوو الأحكام ، أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال . (٣) «كوماوين» تثنية كوماء ؛ أى مشرفة السنام عاليته . (٤) قوله : فيعلم . ضبط بنصب الفعل ورفعه و بتشديد اللام من التعليم ، و بتخفيفها من العلم .

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عَوْن العبد ما كان العبد فى عَوْن أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه عِلْمًا سَهّل الله له طريقًا إلى الجنة وما آجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهـم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذَكَرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نَسَبه ".

وروى أبو داود والنّسائى والدارمىّ والترمذى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة". قال الترمذىّ : حديث حسن غريب. وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم قال : " يجىء القـرآن[(١)] يوم القيامة فيقول يارَبّ حُلّه فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقـول يارب آرض عنه فيرضى عنـه فيقال له آقرأ وآرق و يزاد بكل آية حسنة ". قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن آقرأ وآرتق ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ". وأخرجه آبن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنـة آقرأ وآصعد فيقرأ و يصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه ".

وأسـند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لا يوحَى إليه و يقال له يوم القيامـة آقرأ وآرق فيقرأ آية و يصـعد درجة حتى ينجز ما معه من القـرآن ثم يقال له آقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم ".

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا إسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(١) الذى فى نسخ الأصل : « يجيء صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذى .

نصف القرآن وعمـل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كلّه فقـد أخذ النبوة كلها". قال: وحدّثنا محمد بن يحيي المَرْوزيّ أنبأنا محمد وهو آبن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضَمْرة عن عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه فى عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وَجَبت له النار". وقالت أم الدَّرْدَاء: دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها: ما فَضْلُ مَن قرأ القرآن على مَن لم يقرأه ممن دخل الجنة؟ فقالت عائشة رضى الله عنها: إن عدد آى القرآن على عدد دَرَج الجنـة، فليس أحد دخل الجنة أفضلَ ممن قرأ القرآن. ذكره أبو محمد مكيّ. وقال آبن عباس: من قرأ القرآن وآتبع ما فيه هـداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول: «فَمَنِ آتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى»[1]. قال آبن عباس: فضَمِن الله لمن آتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة. ذكره مكيّ أيضا. وقال الليث: يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جل ذكره: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»[2]. و«لَعَلَّ» من الله واجبة.

وفى مُسْنَد أبى داود الطَّيَالسيّ — وهو أوّل مُسْنَد أُلِّفَ[3] فى الإسلام — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين ومن قام بألف آية كُتب من المقنْطِرِين". والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية، والله الموفق للهداية.

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه. (٢) آية ٢٠٤ سورة الأعراف.

(٣) قوله: «وهو أوّل مسند ...» الخ. قال صاحب كشف الظنون: «والذى حمل قائل هـذا القول تقـدم عصره على أعصار من صنف المسانيـد، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك، فانه ليس من تصنيف أبى داود، وإنما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصـة عن أبى داود. ولأبى داود من الأحاديث التى لم تدخل هـذا المسند قدره أو أكثر؛ كما ذكره البقاعى فى حاشية الألفية». وقد توفى الطيالسي سنة ٢٠٤ هـ.

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، ومايكره منها ومايحرم، واختلاف النـاس فى ذلك

روى البُخَارِىّ عن قتادة قال: سألت أنَسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يَمُدّ مَدًّا [إذا] قرأ بِسم الله الرحمن الرحِيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم.

وروى الترمذىّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يُقَطِّع قراءته يقول: «الحمدُ لله رَبِّ العالمَين» ثم يقف «الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» ثم يقف، وكان يقرؤها «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ». قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه.

ورُوى عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحسن النـاس صَوْتاً من إذا قرأ رأيته يخشى الله تعالى"(١). وروى عن زياد النُّمَيْرِىّ أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: آقرأ. فرفع صوته وطَرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصـوت عنـد الذكر. وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المُسَيّب وسعيد بن جُبير والقاسم بن محمد والحسن وآبن سِيرِين والنَّخَعِىّ وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل؛ كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتّطريب فيه. روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل إليه سـعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمـة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التّطريب بعدُ. وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلا قرأ فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم فطرّب؛ فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ البَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ(٢)» الآية.

وروى عن مالك أنه سئل عن النَّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى آبن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

(١) رأى هنا بمعنى علم، وفى بعض النسخ: «رئيته» بالبناء للمجهول؛ ومعناه الظن. (٢) آية ٤١، ٤٢ سورة فصلت.

فقال : لا يعجبنى ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به؛ وذلك لأنه إذا حَسّن الصوتَ به كان أوقع فى النفوس وأسمع فى القلوب ، وآحتجّوا بقوله عليه السلام : "زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم" رواه البَرَاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنَّسائى . و بقوله عليه السلام : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" أخرجه مسلم . و بقول أبى موسى للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبّرته لك تحبيرا . و بما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الفتْح فى مسيرله سورة «الفتح» على راحلته فرجّع فى قراءته . وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ وآبن المبارك والنَّضْر بن شُمَيْل ، وهو آختيار أبى جعفر الطبرىّ وأبى الحسن بن بَطّال والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لمـا ذكرناه و يأتى . وأما ما آحتجّوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنمـا هو من باب المقلوب ؛ أى زَيّنُوا أصواتكم بالقرآن . قال الخطّابىّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحـديث : زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا هو من باب المقلوب؛ كما قالوا : عَرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة؛ فقدّم الأصوات على القرآن، وهو الصحيح .

قال الخطابىّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البَرَاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "زينوا القرآن بأصواتكم" . أى الْهَجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة؛ وقيل : معناه الحض على قراءة القرآن والدُّءوب عليه . وقد روى عن أبى هريره رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "زيّنوا أصواتكم بالقرآن" . وروى عن عمر أنه قال : "حَسِّنُوا أصواتكم بالقرآن" .

قلت : وإلى هـذا المعنى يرجع قولُه عليه السـلام : "ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن" أى ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن؛ كذلك تأوّله عبد الله بن أبى مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت آبن أبى مليكة يقول : قال عبد الله بن أبى يزيد : مرّ بنا أبو لُبَابة فآتبعناه

حتى دخل بيته، فإذا رجل رَثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت ؟ قال : يحسّنه ما استطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّي لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسّنت صوتي بالقرآن، وزيّنته ورتّلته . وهذا يدل [على] أنه كان يَهُذّ[1] في قراءته مع حُسْن الصوت الذي جُبل عليه . والتحبير : التزيين والتحسين ؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتّلها ؛ كما كان يقرأ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول : إن القرآن يُزَيّن بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأوّل هذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن إلى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه . وقد قيل : إن الأمر بالتزيين اكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك ، أي زينوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ[2] » أي قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ[3] » أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا ؛ أي قراءة . وقال الشاعر[4] في عثمان رضي الله عنه :

ضحّوا بأشْمَطَ[5] عُنوانُ السجودِ به * يقطّع الليلَ تسبيحًا وقرآنا

أي قراءة . فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها — على ما نبيّنه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء ؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى استغنيت . وفي الصحاح : تغنى

---

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة . (٢) آية ٧٨ سورة الإسراء .

(٣) آية ١٨ سورة القيامة . (٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

(٥) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط في الرجل شيب اللحية .

الرجل بمعنى آستغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى آستغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حَبْناء التّميمىّ :

كلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَه * ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عُيَيْنَة ووَكِيع بن الجَرّاح، ورواه سفيان عن سعد بن أبي وَقّاص . وقد رُوى عن سفيان أيضا وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهْوَيْه، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . وإلى هذا التأويل ذهب البخارىّ محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»(١) . والمراد الآستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم؛ قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنّى به، يتحزّن به؛ أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته، وليس من الغنية؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد آبن حِبّان البُسْتِىّ، وآحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أَزِيز كأزِيز المِرْجَل من البكاء . الأزِيز (بزايين) : صوت الرعد وغَلَيان القِدْر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن؛ وعَضَدُوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "آقرأ علىّ" فقرأت عليه سورة « النساء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »(٢) فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان . فهذه أربع تأويلات ، ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابىّ فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" قال : كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم(٣) مكان الغناء؛ فقال : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" .

التأويل الخامس — ما تأوّله مَن آستدلّ به على الترجيع والتطريب؛ فذكر عمر بن شَبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل آبن عُيَيْنَة فى قوله : "يتغنّ" يستغنى؛ فقال :

(١) آية ٥١ سورة العنكبوت . (٢) آية ٤١ سورة النساء . (٣) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

لم يصنع آبن عُيَيْنَة شيئا . وسُئل الشافعيّ عن تأويل آبن عُيينة فقال : نحن أعلم بهذا ، لو أراد النبيّ صلى الله عليه وسلم الآستغناء لقال : من لم يستغن ، ولكن لما قال "يتغنّ" علمنا أنه أراد التغنّي . قال الطبريّ : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التغنّى إنما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغنّ بالشّعرِ مهما كنتَ قائلَه * إن الغِنـاء بهذا الشعر مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى آستغنيت فليس فى كلام العرب وأشعارها ، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِـراق * عفيفَ المُناخ طَوِيلَ التَّغَنْ

وزعم أنه أراد الآسـتغناء فإنه غلط منه ، وإنما عنى الأعشى فى هـذا الموضع الإقامة ، من قول العرب : غَنِيَ فلان بمكان كذا أى أقام ؛ ومنه قوله تعالى : « كأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها[1] » وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا متْنا أشدُّ تغانيا *

فإنه إغفال منه ؛ وذلك أن التغانى تفاعل من نفسين إذا آستغنى كل واحد منهما عن صاحبه ؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبـه . ومن قال هذا فى فعل الآثنين لم يجز أن يقول مثله فى الواحد ؛ فغير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمـرو ؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبرى من أنه لم يَرِد فى كلام العرب تغنى بمعنى آسـتغنى ، فقد ذكره الجوهريّ كما ذكرنا ، وذكره الهَرَوِيّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل إنما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد فى مواضع كثيرة ؛ منها قول آبن عمر : وأنا يومئذ قد ناهزت الآحتلام . وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبت اللصّ وداويْت العَليل ، وهو كثير ؛ فيكون تغانى منها . وإذا آحتمل قوله عليه الصلاة والسلام : "يتغنّ" الغناء والآستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر ، بل حمله على الآستغناء أوْلَى لو لم يكن لنا تأويل غيره ، لأنه مرويّ عن

(١) آية ٩٢ سورة الأعراف .

صحابىّ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ٱبن وهب فى حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عُيَيْنة ، ومعلوم أنه رأى الشافعىّ وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أَذِن الله لشىء ما أذن لنبىّ حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به (١) " . قال الطبرىّ : ولو كان كما قال ٱبن عُيَيْنة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى . قلنا قوله : «يجهر به» لا يخلو أن يكون من قول النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أو من قول أبى هريرة أو غيره ، فإن كان الأوّل وفيه بُعْدٌ ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع ، لأنه لم يقل : يطرب به ، وإنما قال : يجهر به ، أى يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذى سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس ٱربعوا (٢) على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا ... " الحديث ، وسيأتى . وكذلك إن كان من صحابىّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه ؛ وقد ٱختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمّى كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غِناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء . قال : وعلى هذا فسره الصحابىّ ، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد ٱحتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعىّ فقال : وقد رفع الإشكال فى هذه المسألة ما رواه ٱبن أبى شيبة قال حدّثنا زيد بن الحُبَاب قال حدّثنا موسى بن علىّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعلّموا القرآن وغَنّوا به وٱكتبوه فوالذى نفسى بيده لهو أشد تَفَصِّياً (٣) من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ ، جِيلًا فجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين

---

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوى : يعنى ما رضى الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحبّ إليه من قول نبىّ يتغنى بالقرآن ، أى يجهر به و يحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة .   (٢) قوله : « ٱربعوا » أى كفّوا وارفقوا .   (٣) التفصى : التفلّت والخروج .

ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيـة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود ؛ فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة الواحدة شبهات[١]، فيؤدّى ذلك إلى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيّروها نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإمّا مقصورة . فإن قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيرله سورة « الفتح » على راحلته فرجّع فى قراءته؛ وذكره البخارىّ وقال فى صفة الترجيع : آءآءآء، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة؛ كما يعترى رافع صوته إذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ وإذا احتمل هذا فلا حجة فيه. وقد خرّج أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّ ليس فيها ترجيع. وروى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يُطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا وإلا فلا تؤذّن ". أخرجه الدّارَقُطْنىّ فى سُنَنه . فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألّا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن، فقال وقوله الحق : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[٢] . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[٣] .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز؛ ضلّ سعْيُهم، وخاب

(١) سيذكر المؤلف فى باب (ذكر معنى الصورة والآية) الخ : أن الشبهات هى الحروف؛ ولم أر هذا التعبير لغيره .
(٢) آية ٩ سورة الحجر . (٣) آية ٤٢ سورة فصلت .

عمالهم ، فيستحلّون بذلك تغيير كتاب الله ، ويهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى تنزيله ما ليس فيه ؛ جهلا بدينهم ، ومُرُوقًا عن سُنّة نبيّهم ، ورَفْضًا لِسيَر الصالحين فيه من سَلَفهم ، ونزوعًا إلى ما يُزيِّن لهم الشيطان من أعمالهم ؛ وهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنون صُنْعًا ؛ فهم فى غَيّهم يتردّدون ، و بكتاب الله يتلاعبون ، فإنّا لله و إنا إليه راجعون ! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون ، فكان كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم .

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رَزِين وأبو عبد الله الترمذىّ الحكيم فى «نوادر الأصول» من حديث حُذَيفة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : "اقرءوا القرآن بلُحُون العرب وأصواتها وإياكم ولُحُون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجىء بعدى قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوْح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم" . اللحون : جمع لَحْن ، وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : ويشبه أن يكون هذا الذى يفعله قرّاء زماننا بين يدى الوعاظ وفى المجالس من اللحون الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . والترجيع فى القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل فى القراءة هو التأنّى فيها والتمهّل وتبيين الحروف والحركات تشبيهًا بالثَّغْر المرتَّل ، وهو المشبَّه بنَوْر الأقحوان ، وهو المطلوب فى قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» (١) . وسُئلت أمُّ سَلَمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ؛ فقالت : مالكم وصلاته ! [كان يصلّى ثم ينام قدر ما صَلّى ، ثم يصلى قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يُصبح ، (٢)] ثم نعتت قراءته ، فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفًا حرفا . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» (٣) . وقال تعالى : «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (٤) . روى مسلم عن أبى هريرة

(١) آية ٤ سورة المزمل . (٢) الزيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .
(٣) آية ٣٦ سورة النساء . (٤) آية ١١٠ سورة الكهف .

قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " إنّ أوّل الناس يُقْضَى عليه يوم القيامة رجلٌ آستُشْهِد فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمَه فعرفها قال فما عمِلت فيها قال قاتلتُ فيك حتى آستشهِدت قال كذبتَ ولكنّك قاتلتَ لأن يقال جرىء فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِى فى النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتِىَ به فعرّفه نِعمه فعرفها قال فما عمِلتَ فيها قال تعلّمت العلم وعلّمتُه وقرأتُ فيك القرآن قال كذبتَ ولكنّك تعلمتَ العلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلْقِىَ فى النار ورجلٌ وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأُتِىَ به فعرّفه نِعَمه فعرفها قال فما عمِلتَ فيها قال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنّك فعلتَ ليقال هو جواد فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِى فى النار ".وقال الترمذى فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على رُكْبتِى فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " . أبو هريرة آسمه عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقال : كُنِّيتُ أبا هريرة لأنى حملت هِرّة فى كُمّى ، فرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه "؟ قلت : هرّة ، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجهَ الله تعالى . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار " .

وخرّج آبن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدِّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَن أقرأ منا مَن أعلم منا " ثم التفت إلى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير " قالوا : لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلّم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحها . قال الترمذىّ : حديث

حسن . وروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعوّذوا بالله من جُبّ الحَزَن " قالوا : يارسول الله وما جب الحَزَن ؟ قال : " وادٍ فى جهنم تتعوّذ منه جهنم فى كل يوم مائة مرة " قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : " القرّاء المراءون بأعمالهم " قال : هـذا حديث غريب . وفى كتاب أسد بن موسى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى جهنم لواديا إن جهنم لتتعوذ من شرّ ذلك الوادى كل يوم سبع مرّات و إن فى ذلك الوادى لَجُبًّا إن جهنم وذلك الوادى ليتعوّذان بآلله من شرّ ذلك الجُبّ و إن فى الجُبّ لَحَيّـةً و إن جهنم والوادى والجبّ ليتعوّذون بآلله من شر تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حَمَلة القرآن الذين يعصون الله ". فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقى الله فى نفسه ويُخْلِص العمل لله ؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص فى الطلب وعمله . فآلذى يلزم حامل القرآن من التّحفظ أكثر ممـا يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ماليس لغيره . روى الترمذى عن أبى الدّرْداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله فى بعض الكتب — أو أَوْحى — إلى بعض الأنبياء قُلْ للذين يتفقّهون لغير الدّين ويتعلمون لغير العمل و يطلبون الدنيـا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُوك[1] الكِبَاش وقلوبهم كقـلوب الذئاب ألسنتهم أحْلَى من العسل وقلوبهـم أمَرّ من الصـبر إياى يخادعون و بى يستهزئون لأُتِيحنّ لهم فتنةً تذَر الحليم فيهم حَيْرَان " .

وخرّج الطبرىّ فى كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء حدّثنا المُحَاربىّ عن عمرو بن عامر البَجَلىّ عن آبن صَدَقة عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أو مَن حدّثه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونَفْسَه يخدع لو يَشْعُر ". قالوا : يارسول الله ، وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بمـا أمرك الله به وتطلب به غيره وآتقوا الرياء فإنه الشرك و إن المُرائى يُدعَى يوم القيـامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضَلّ عَمَلُك و بَطَل

(١) المسوك (جمع مسك ، بفتح ثم سكون) : الجلد .

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يامخادع " . وروى عَلْقَمة عن عبدالله بن مسعود قال : كيف أنتم ! إذا لَبِستكم فتنةٌ يَرْبُو فيها الصغير، ويَهْرَم الكبير، وتُتخذ سُنّة مُبْتَدَعة يجرى عليها النـاس فإذا غُيِّر منها شىء قيل : قد غُيِّرت السُّنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبـد الرحمن ؟ قال : إذا كَثُر قراؤكم، وقلّ فقهاؤكم، وكَثُر أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، وٱلْتُمِست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدِّين. وقال سفيان بن عُيَيْنَة : بلغنا عن ٱبن عباس أنه قال : لو أن حمـلة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهـم الله، ولكن طلبوا به الدنيـا فأبغضهم الله، وهانوا على النـاس . ورُوِى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى : «فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغَاوُونَ»[1] قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره . وسيأتى لهذا البـاب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفســه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه. روى مسلم عن ٱبن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: " إنما مَثَلُ صاحبِ القرآن كَمَثَل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت وإذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهـار ذَكَره وإذا لم يقم به نَسِيَه ". وينبغى له أن يكون لله حامداً، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستعينا، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدّا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجياً عَفْوَ ربه، ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يَعلم بما يُختم له؛ ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن بالله الظن" . أى أنه يرحمه ويغفر له . وينبغى له أن يكون عالما بأهل زمانه، متحفظّا من سلطانه، ساعياً فى خلاص نفسه، ونجاة مُهْجَته، مقدّما بين يديه مايقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما ٱستطاع . وينبغى له أن يكون أهمّ أموره عنده الوَرَع فى دينه، وٱستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

---

(١) آية ٩٤ سورة الشعراء .

وقال ابن مسعود : ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، و بنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه إذا الناس يضحكون، و بصمته إذا الناس يخوضون، و بخضوعه إذا الناس يختالون، و بحزنه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغي لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو و يصفح لحق القرآن؛ لأن في جوفه كلام الله تعالى . وينبغي له أن يأخذ نفسه بالتّصاون عن طُرق الشُّبهات ، و يقل الضحك والكلام في مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، و يأخذ نفسه بالحلم والوقار . و ينبغي له أن يتواضع للفقراء، و يتجنّب التّكبّر والإعجاب، و يتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، و يترك الجدال والمِراء، و يأخذ نفسه بالرفق والأدب . و ينبغي له أن يكون ممن يؤمَن شرّه، و يُرْجَى خيره ويُسلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نَمّ عنده؛ و يصاحب مَن يعاونه على الخير و يدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، و يَزِينه ولا يَشِينه، و ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن ، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ و يعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فما مَثَل من هذه حالته إلّا كَمَثل الحمار يحمل أسفارا . و ينبغي له أن يعرف المكيّ من المَدَنِيّ ليفرّق بذلك بين ما خاطب الله به عباده في أوّل الإسلام ، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام ، وما افترض الله في أول الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض في آخره . فالمدنيّ هو الناسخ للمكيّ في أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكيُّ المَدَنِيَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم في النزول قبل الناسخ له . ومِن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، و يزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبريّ سمعت الجَرْمِيّ يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أُفْتِي الناس في الفقه من كتاب سيبويه . قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجَرْمِيّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير . ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فبها يصــل الطالب إلى مراد الله عزّ وجل فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحاً ؛ وقد قال الضحاك فى قوله تعــالى : « وَلَـٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَـا كُنْتُمْ تَعلمونَ الْكِتَابَ »[(١)] . قال : حَقٌّ على كل مَن تعلّم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر آبن أبى الحوارىّ قال : أتينا فُضيل بن عِيَاض سـنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة ، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول ؛ فقـال بعض القوم : إن كان خارجاً لشئ فسيخرج لتلاوة القرآن ، فأمرنا قارئا فقرأ فأطّلع علينا من كُوَّة ؛ فقلنا : الســلام عليك ورحمة الله ؛ فقـال : وعليكم السلام ؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذًى ، و إن ما أنتم فيــه حَدَثٌ فى الإســلام ، فإنا لله و إنا إليه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العــلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهــلا للجلوس معهم ، فنجلس دونهم ونسترق السمع ، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه ، وأنتم تطلبون العــلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمـا تريدون ؛ قال : قلنـا قد تعلمنا القرآن ؛ قال : إن فى تعلّمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومُحْكَمه من مُتَشابهه ، وناسخه من منسوخه ؛ إذا عرفتم ذلك آستغنيتم عن كلام فُضَيْل وآبن عُيَيْنة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم « يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَـا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَــةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْــلِ اللهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »[(٢)] .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرًا بالقرآن ، وعالمًا بالفُرْقان ؛ وهو قريب على مَن قرّبه عليه ، ولا ينتفع بشىء مما ذكرنا حتى يُخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا ، فلايزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى آعتقاده فيتوب من ذلك و يخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك و يحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا بجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثّورىّ . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيّة ثم جاءت النية بعد .

(١) آية ٧٩ سورة آل عمران .   (٢) آيتا ٥٧ ، ٥٨ سورة يونس .

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحثّ عليه ، وثواب من قرأ القرآن مُعْرباً

قال أبو بكر بن الأنبارىّ : جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم — من تفضيل إعراب القرآن ، والحضّ على تعليمه ، وذمّ اللحن وكراهيته — ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد فى تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضّبّىّ قال حدّثنا محمد — يعنى ابن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن جدّه عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" . حدّثنى أبى قال حدّثنا إبراهيم ابن الهَيْثَم قال حدّثنا آدم — يعنى ابن أبى إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المَرْوَزِىّ قال حدّثنا عبد العزيز بن أبى روّاد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن فلم يُعْرِبه وُكِّل به مَلَك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وُكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة" . وروى جُوَيْبِر عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فإنه عربىّ ، والله يحب أن يُعْرَب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : لَبَعْضُ إعراب القرآن أحبّ إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبىّ قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغنى أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحبّوا العرب لثلاث لأنى عربىّ والقرآن عربىّ وكلام أهل الجنة عربىّ" . وروى سفيان عن أبى حمزة قال : قيل للحسن فى قوم يتعلمون العربية قال : أَحْسَنُوا ، يتعلّمون لغة نبيّهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماماً يلحن ؛ قال : أخّروه ،

وعن آبن أبى مليكة قال : قدم أعرابىّ فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : مَن يُقرِئنى مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل «براءة» ؛ فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسولِه» . بالجرّ، فقال الأعرابىّ : أوَقد برِئَ الله من رسوله؟ فإن يكن الله برئَ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابىّ فدعاه فقال : يا أعرابىّ أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال : يا أمير المؤمنين، إنى قدِمت المدينة ولا علم لى بالقرآن، فسألت من يُقرئنى، فأقرأنى هذا سورة «براءة»، فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسولِه» ؛ فقلت : أوَ قد برئَ الله من رسوله، إن يكن الله برئَ من رسوله فأنا أبرأ منه؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابىّ؛ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال : «إن الله برىء مِن المشركين ورسولُه» فقال الأعرابىّ : وأنا والله أبرأ مما برئَ الله ورسوله منه؛ فأمر عمر آبن الخطاب رضى الله عنه ألّا يُقرئَ الناس إلا عالم باللغة، وأمر أبا الاسود فوضع النحو (١) .

وعن علىّ بن الجَعْد قال سمعت شُعبة يقول : مَثَـلُ صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَلُ الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها . وقال حماد بن سَلَمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو — أو قال العربية — فهو كمثل الحمار تُعَلّق عليه مِخلاة ليس فيها شعير . قال آبن عطية : إعراب القرآن أصل فى الشريعة ؛ لأن بذلك تقوّم معانيه التى هى الشرع .

قال آبن الأنبارىّ: وجاء عن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم، من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشْكله باللغة والشعر ما بيّن صحة مذهب النحو يين فى ذلك، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدّثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا آبن أبى مريم قال : أنبأنا آبن فرّوخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن آبن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فآلتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن علىّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جُبير و يوسف بن مِهْران يقولان : سمعنا آبن عباس يُسأل عن الشىء بالقرآن ؛ فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبى الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن على .

عن ابن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعزّ : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »(١) قال : لا تلبس ثيابك على غَدْر، وتمثّل بقول غَيْلان الثقفيّ :

فإني بحمد الله لا ثوبَ غادرٍ * لبستُ ولا من سَوْءةٍ أتقنّع(٢)

وسأل رجل عكرمة عن الزَّنيم قال : هو ولد الزِّنى، وتمثّل ببيت شعر :

زَنِيم ليس يُعرف من أبوه * بَغِيّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لئيم

وعنه أيضا الزنيم : الدعيّ الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زَنِيم تداعاه الرجال زيادةً * كما زِيد في عَرْض الأدِيم الأكارعُ(٣)

وعنه في قوله تعالى : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ »(٤) قال : ذواتا ظِلّ وأغصان ، ألم تسمع إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هَدِيل حمامةٍ * تدعو على فَنَنِ الغصون حماما

تدعو أبا فرخين صادف طائرا * ذا مِخْلبين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ »(٥) قال : الأرض ؛ قاله ابن عباس . وقال أُميّة بن أبي الصَّلْت : « عندهم لحم بحر ولحم ساهرة »(٦) . قال ابن الأنباريّ : والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحم ساهِرةٍ وبَحْرٍ * وما فاهُوا به لهم مُقيم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرني عن قول الله جلّ وعزّ : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » ما السِّنَة ؟ قال : النُّعاس ؛ قال زُهير بن أبي سُلْمى :

لا سِنَةٌ في طَوال الليل تأخذه * ولا ينام ولا في أمره فَنَدُ(٧)

---

(١) آية ٤ سورة المدّثر. (٢) أورد المؤلف في تفسير سورة المدّثر جـ ١٩ ص ٦٢ هذا البيت برواية أخرى هكذا :

فاني بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

(٣) كذا في اللسان والكامل للبرد . وفي الأصول : « أكارعه » . (٤) آية ٤٨ سورة الرحمن .

(٥) آية ١٤ سورة النازعات . (٦) كذا في الأصول ، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره ابن الأنباري فيما يلي ، وسيأتي للصنف في تفسير سورة النازعات جـ ١٩ ص ١٩٧ هذا البيت .

(٧) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأي من الكبر، وقد يستعمل في غير الكبر.

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ذكر جابر بن عبـد الله ووصفه بالعلم، فقال له رجل : جُعلت فداءك ! تصف جابرًا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ »[1] . وقال مجاهد : أَحَبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبىّ : رَحَل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية ، فقيل له : إن الذى يفسّرها رحل إلى الشأم، فتجهّز ورَحَل إلى الشأم حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ »[2] طَابتُ آسم هذا الرجل [الذى خرج من بيتـه مهاجرا إلى الله ورسوله[3]] أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال آبن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب، وسيأتى . وقال آبن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللَّتَيْن تظاهرتا على رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم، ما يمنعنى إلا مهابته، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مَثَلُ الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كَمَثَل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم رَوْعة ولا يدرون ما فى الكتاب، ومَثَل الذى يعرف التفسير كَمَثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو ، وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لِين عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة : الإمام المُقْسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغـالى فيه ولا الجافى عنه" . وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه، وحلاله وحرامه، والعاملون بما فيه . وروى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "القرآن أفضل من كل شىء فمن وَقّر القرآن فقد وقّر الله ومن آستخف بالقرآن آستخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمـة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمَن وَالَاهم فقد والَى الله ومن عاداهم فقد آستخفّ بحق الله تعالى" .

---

(١) آية ٨٥ سورة القصص . (٢) آية ١٠٠ سورة النساء . (٣) الزيادة من تفسير قطب الدين الشيرازى .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول: «فمن حُرمة القرآن ألا يمسه إلا طاهرا. ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة. ومن حرمتـه أن يستاك و يتخلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه. — قال يزيد بن أبي مالك: إن أفواهكم طُرُقٌ من طرق القرآن، فطهّروها ونظّفوها ما آستطعتم. — ومن حرمته أن يتلبّس كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج.[1] ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته. — وكان أبو العالية إذا قرأ آعتم ولبس وآرتدى وآستقبل القبلة. — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع.[2] روى شعبة عن أبي حمزة عن آبن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَوْر[3] إذا تنخع مضمض، ثم أخذ في الذكر، وكان كلما تنخع مضمض. ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. — قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك. وقاله عكرمة. يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن — . ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند آبتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، و يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان آبتدأ قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمتـه إذا أخذ في القـراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنـه سلطان الآستعاذة الذي آستعاذ في البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تُؤَدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى و يسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس غرائبه[4]. ومن حرمتـه أن يؤدّي لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه، و يشهد بالبلاغ

(١) يقال: تلبس بالثوب بمعنى لبسه. (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى. (٣) التور: إناء يشرب فيه.

(٤) في نوادر الأصول: «إعرابه». وكلاهما مروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" رواه الحاكم والبيهقي.

لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربَّنا وبلّغتْ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم آجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه مرّ ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السورة كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدًا عاليًا لسائر الكتب، عِلمًا كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حِجره إذا قرأه أو على شيء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء. ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقّى النجاسات من المواضع، والمواقع التى تُوطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان مَن قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء. ومن حرمتــه ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرّة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرّة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه، فإن العين تؤدّى إلى النفس، وبين النفس والصّدر حجاب، والقرآن فى الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّى إلى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد آشتركا فى الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد آبن أسلم عن عطاء بن يَسار عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيــه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عُبَادة بن الصامت قال قال رسول الله صلّى الله عليــه وسلّم: "أفضل عبــادة أمتى قراءة القرآن نظرًا". ومن حرمته ألا يتأوّله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا. — حدّثنا عمرو بن زياد الحنظلىّ قال حدّثنا هشيم بن بشــير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عنــد ما يعرض له شيء من أمر الدنيا، — والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جِئتَ على قَدَرٍ

يا موسى ؛ ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »(١) هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا . ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا ، كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء ، ولكن يقال : السورة التى يُذكر فيها كذا . —

قلت : هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم : "الآيتان من آخر سورة البقرة مَن قرأ بهما فى ليلة كفَتَاه" خرّجه البخارىّ ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود . — ومن حرمته ألا يُتْلَى منكوسًا كفعل معلمى الصبيان ، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرِىَ الحذق من نفسه والمهارة ، فإن تلك مخالفة . ومن حرمته ألا يُقَعِّر فى قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين فى إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلّفا ، فإن ذلك محدَث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه . ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية ، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدّم . ومن حرمته أن يُجَلَّل تخطيطه إذا خطه . وعن أبى حُكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة ، فمرّ علىّ رضى الله عنه فنظر إلى كتابته فقال له : أجِلّ قلمك ؛ فأخذت القلم فقططته من طرفه قَطًّا ، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى ؛ فقال : هكذا ، نَوِّرْه كما نوّره الله عزّ وجلّ . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغّض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألّا يُمارِى ولا يجادل فيه فى القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ؛ فيكون قد جحد كتاب الله . ومن حرمته ألّا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللّغو ومجمع السفهاء ؛ ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مَرُّوا باللّغو مرّوا كراما ، هذا لمروره بنفسه ، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألّا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ؛ روى الأعمش عن إبراهيم عن علىّ رضى الله عنه قال : لا يصغّر المصحف .

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ؛ فضربه بالدِّرّة ، وقال : عظّموا القرآن . وروى عن رسول

---

(١) آية ٢٤ سورة الحاقة .

الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسَيْجِد أو مُصَيْحِف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينـة الدنيا ؛ وروى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عنـد رءوس الآى أو يصغّر . وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدبار(١) عليكم". وقال ٱبن عباس وقد رأى مصحفا زُيّن بفضة : تُغرون به السارق و زِينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقىّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هُذَيل : "ما هذا" قال : من كتاب الله كتبه يهودىّ ؛ فقال : "لعن الله من فعل هـذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضـعه" . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ٱبنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه إذا اغتسل بكتابته مستشفيًا من سَقَم ألا يصبّه على كُنَاسة ، ولا فى موضع نجاسة ، ولا على موضع يُوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بُقعة لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا ختم يقرأ من أوّل القرآن قدر خمس آيات ؛ لئـلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ٱبن عباس قال جاء رجل فقال : يا رسول الله، أىّ العمل أفضل؟ قال : "عليك بالحالّ المرتحل" قال : وما الحالّ المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوّله كلما حلّ ٱرتحل" . —

قلت : و يستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارى أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِسْعَر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

---

(١) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : « فالدمار » بالميم بدل الباء الموحدة .

أهله ودعا . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعَبْدة بن أبى لُبَابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا وجّهوا إلينا : أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن إبراهيم التّيْمىّ قال : من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسى ، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح ؛ قال : فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّلَ الليل وأوّلَ النهار . — ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به فى الخلاء ، إلا أن يكون فى غلاف من أَدَم أو فضة أو غيره ، فيكون كأنه فى صدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سمّى الله على كل نَفَس وعَظّم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيّته . روى لَيْث عن مجاهد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبى جعفر قال : من وجد فى قلبه قساوةً فليكتب « يس » فى جام بزعفران ثم يشربه .

قلت : ومن حرمته ألّا يقال : سورة صغيرة . وكَرِه أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ؛ وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ؛ ذكره مكىّ رحمه الله .

قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : ما من المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها الناس فى الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد فى تفسير القرآن بالرأى ، والجرأة على ذلك ، ومراتب المفسرين

روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسّر من كتاب الله إلا آيًا بعدد ، علّمه إياهنّ جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث فى مُغَيَّبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى ؛ ومن جملة مغيّباته مالم يُعْلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

النَّفَخات فى الصُّور ، وكِتبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن آبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "آتّقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار" . وروى أيضا عن جُنْدب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ" ، قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود ، وتُكُلِّم فى أحد رواته (١) . وزاد رَزِين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارىّ النحوى اللغوى فى كتاب الردّ : فُسِّر حديث آبن عباس تفسيرين : أحدهما — من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرّض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — : من قال فى القرآن قولًا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحل ؛ قال الشاعر :

وبُوِّئَتْ فى صَميم مَعْشرِها * فتَمّ فى قَوْمِها مُبَوَّؤُها (٢)

وقال فى حديث جُنْدب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى ؛ من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال آبن عطية : « ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنًى فى كتاب الله عز وجل فيتسوّر (٣) عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء ، وآقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد بآجتهاده المبنىّ على قوانين علمٍ ونظر ؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرّد رأيه » .

---

(١) قوله : أحد رواته . هو سهيل بن أبى حزم وآسمه مهران ، ويقال : عبد الله .

(٢) جاء فى لسان العرب مادّة بوأ تفسيرا لهذا البيت : « أى نزلت من الكرم فى صميم النسب » .

(٣) قوله : فيتسوّر عليه . تسوّر الحائط : هجم مثل اللص . ويعنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

قلت : هذا صحيح وهو الذى آختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وَهْمه وخطر على باله من غير آستدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، و إن من آستنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع ؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ »(١) . وهذا فاسد ؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الآقتصار على النقل والمسموع وترك الآستنباط ، أو المراد به أمرا آخر . و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن وآختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لآبن عباس وقال : "اللّهمّ فقّهه فى الدّين وعلّمه التأويل" . فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه ؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . و إنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشىء رأى ، و إليه ميل من طبعه وهواه ؛ فيتأول القرآن على وَفْق رأيه وهواه ، ليحتجّ على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ، و يرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه ، أى رأيه حَمَله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن و يستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(٢) و يشير إلى قلبه ، و يومئ إلى أنه المراد بفرعون ؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله

(١) آية ٥٩ سورة النساء . (٢) آية ٢٤ سورة طه .

الباطنيـة فى المقاصد الفاسـدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فينزّلون القرآن على وَفْق رأيهـم ومذهبهم على أمورٍ يعلمون قطعاً أنهـا غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى — أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير آستظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدّلة [1] ، وما فيه من آلاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ؛ فمن لم يحكِم ظاهر التفسير و بادر إلى آستنباط المعانى بمجرّد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زُمْرة من فسر القرآن بالرأى ؛ والنقلُ والسماع لا بُدّ له منـه فى ظاهر التفسير أوّلا ليتّقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والآستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع فى الوصـول إلى الباطن قبـل إحكام الظاهر ؛ ألا ترى أن قوله تعـالى : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا [2] » معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا ، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير ، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهى إليه . والله أعلم .

قال آبن عطية : « وكان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيّب وعامر الشعبىّ وغيرهمـا يعظّمون تفسير القرآن و يتوقّفون عنـه تورّعا وآحتياطا لأنفسهم مـع إدراكهم وتقدّمهم » . قال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمـة من السلف المـاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن ؛ فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحجِم عن القول . و بعضٌ يُشفق من أن يجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه و يقتفى طريقه . فلعلّ متأخّرا أن يفسر حرفاً برأيه و يخطىء فيـه و يقول : إمامى فى تفسير القـرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن آبن أبى مليكة قال : سـئل أبو بكر الصـديق رضى الله عنـه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظلّنى ، وأىّ أرض تُقِلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

---

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا . (٢) آية ٥٩ سورة الإسراء .

قال ابن عطية « وكان جِلّةٌ من السلف كثير عددهم يفسّرون القرآن وهم أبقوا على المسلمين (١) فى ذلك رضى الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جُبير وغيرهما، والمحفوظ عنه فى ذلك أكثر من المحفوظ عن علىّ » . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن علىّ بن أبى طالب . وكان علىّ رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحضّ على الأخذ عنه، وكان ابن عباس يقول : نِعْم تَرْجُمان القرآن عبد الله بن عباس . وقال عنه علىّ رضى الله عنه : ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق . ويتلوه عبد الله ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص . وكل ما أخذ عن الصحابة فحَسَن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم . وعن عامر بن واثلة قال : شهدت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول فى خطبته : سلونى، فوالله لا تسألونى عن شىء يكون إلى يوم القيامة إلّا حدّثتكم به، سلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلتْ أم بنهار، أم فى سهل نزلتْ أم فى جبل؛ فقام إليه ابن الكوّاء (٢) فقال : يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْوًا ؟ وذكر الحديث . وعن المِنْهال بن عمرو قال قال عبد الله ابن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبْلُغه المَطِىُّ لأتيته؛ فقال له رجل : أما لقيت علىّ بن أبى طالب ؟ فقال : بلى، قد لقيته . وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مِثْل الإخاذ يُرْوِى الواحد والإخاذ يُرْوِى الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ (٣) . ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنبارىّ فى كتاب الردّ، وقال : الإخاذ عند العرب : الموضع الذى يحبس الماء كالغدير . قال أبو بكر : حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

---

(١) من قولهم : أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته .

(٢) اسمه عبد الله بن أبى أو فى اليشكرى كما فى تاريخ الطبرى فى عدة مواضع .

(٣) قوله : من تلك الآخاذ . يعنى أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم .

زيد العَمّى[١] عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخُدْرى" قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "أرحم أمتى بها أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَىّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ آبن جبَل وأمين هـذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعَاءٌ من العلم وسَلْمانُ بَحْرٌ من علم لا يُدْرَك وما أظَلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال البطحاء — من ذى لهجة أصدق من أبى ذرّ" .

قال آبن عطية : «ومن المبرِّزين فى التابعين الحسن البصرى" ومجاهد وسعيد بن جُبير وعلقمة . قرأ مجاهد على آبن عباس قراءة تَفَهّم ووقوف عند كل آية ؛ ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق آبن عباس ، وإنما أخذ عن آبن جبير؛ وأما السُّدّى" فكان عامر الشَّعْبِىّ يطعن عليه وعلى أبى صالح؛ لأنه كان يراهما مقصِّرين فى النظر» .

قلت : وقال يحيى بن مَعين : الكلبىّ ليس بشىء . وعن يحيى بن سعيد القطّان عن سفيان قال قال الكلبى قال أبو صالح : كل ما حدّثتك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدّرَوَغْ زَنْ[٢] — يعنى أبا صالح مولى أم هانئ — والدروغ زن : هو الكذاب بلغة الفُرْس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وآنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" . خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ البغدادى : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدِّين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف ، والانتحال للباطل ، وردّ تأويل الأبله الجاهل؛ وأنه يجب الرجوع إليهم ، والمعوّل فى أمر الدِّين عليهم ، رضى الله عنهم .

---

(١) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من رآه بياعم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على آسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشىء يقول : حتى أسأل عمى .

(٢) آسمه باذام ، وقيل : باذان ، بمعجمة بين ألفين . يروى عن على وابن عباس ومولاته أم هانئ ؛ كما فى تهذيب التهذيب .

قال ابن عطية : « وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضّل وعلىّ بن أبى طلحة والبخارى وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير — رحمه الله — جمع على الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها وشفى فى الإسناد . ومن المبرِّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علىّ الفارسىّ ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما استدرك الناس عليهما . وعلى سَنَنهما مكىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وأبو العباس المهدَوىّ متقن التأليف ، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ، ونضّر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسنة ، وما جاء فى ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٣) وفرض طاعته فى غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل، وقال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »(٤) . ذكر ابن عبد البر فى كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى مُحْرِمًا عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : إيتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى ؛ قال : فقرأ عليه « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وعن هشام بن حُجَير قال : كان طاوس يصلى ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس : اتركهما ؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تُتخذا سنة ؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر، فلا أدرى أتُعذَّب عليهما أم تُؤجر، لأن الله تعالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »(٥) . وروى أبو داود عن المِقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

---

(١) آية ٤٤ سورة النحل . (٢) آية ٦٣ سورة النور . (٣) آية ٥٢ سورة الشورى .
(٤) آية ٧ سورة الحشر . (٥) آية ٣٦ سورة الأحزاب .

ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه " .

قال الخطابى : قوله "أوتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وَحْياً يُتْلَى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ؛ فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذّر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيّروا وضلّوا ؛ قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة[1] ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفّه والدَّعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مَظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها آستغناء عنها ؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ[2] » معناه تركهم الله آستغناء عنهم . وقوله : " فله أن يعقبهم بمثل قراه " هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حَرَموه من قِراه . و"يعقبهم" يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : « وإن عاقَبْتُم[3] » أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قِراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فآعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجملٍ فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(١) الحجلة : مثل القبة . (٢) آية ٦ سورة التغابن . (٣) آية ١٢٦ سورة النحل .

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : "خذوا عني مناسككم". وقال : "صلّوا كما رأيتموني أصلّي". أخرجه البخاري. وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهْر في كتاب الله أربعا لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السُّنة تفسّر هذا.

وروى الأوزاعيّ عن حسان بن عطية قال : كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك. وروى سعيد بن منصور : حدّثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعيّ عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السُّنة من السنة إلى القرآن. وبه عن الأوزاعيّ قال قال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة. قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعني أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السُّنة قاضية على الكتاب فقال : ما أجْسُر على هذا أن أقوله، ولكني أقول : إن السنة تفسّر الكتاب وتبينه.

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذي ناب من السباع، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

باب كيفية التعلّم والفقه لكتاب الله تعالى، وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدّاني في كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأُبَيّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا. وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء ابن السائب عن أبي عبد الرحمن السلميّ قال: كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلّم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. وفي موطأ مالك: أنه بلغه أن عبد الله

آبن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلّمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى[(١)] « أسمـاء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد أبى بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن آبن عمر قال : تعلّم عمر البقرة فى آثنتى عشرة سنة ، فلما ختمها نَحَر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبـارىّ : حدّثنى محمـد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيـد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمـرو عن زياد بن مِخْراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن ، وسَهُل علينا العمل به ، وإن من بَعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ، و يصعب عليهم العمل به .

حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا إسماعيل آبن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن آبن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها ، ورُزقوا العمل بالقرآن ، و إن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبى والأعمى ولا يُرزقون العمل به . حدّثنى حسن بن عبد الوهاب أبو محمـد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حمـاد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا ، وذلك إنا رَوَيْنا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة ، فلما حفظها نَحَر جزورا شكرًا لله ، و إن الغلام فى دهرنا هـذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا ، فمـا أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه ، دون معرفته وفهمه ، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل ، وليكن تحفّظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وآبن عُلَيّة ومَعْمر ، قال معمر : سمعت الزُّهرىّ يقول : من طلب العلم جُمْلَةً فاته جملة ، و إنما يدرك العلم حديثا وحديثين ، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : آعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . وقال آبن عبد البر : وروى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همّتهم الدراية ، وأن السفهاء همّتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به . ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسُّنّة الغرّاء :

إن العلوم وإن جلّت محاسنها * فتاجُها ما به الإيمان قد وَجَبَا
هو الكتاب العزيز آلله يحفظه * وبعد ذلك علْم فرّج الكُرَبَا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا آنتهاء لها * فآختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه * يأيها الطالب آبحث وآنظر الكتبا
وآتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كلّ العلوم تدبّره تر العجبا
وآقرأ هُديت حديث المصطفى وسَلَنْ * مولاك ماتشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سُرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن هذا القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف فآقرءوا ما تَيَسّر منه"

روى مسلم عن أُبَىّ بن كعب : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بنى غفار[1] ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتُك القرآن على حَرْف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف؛ فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة) : غدير صغير. وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذيّ عنه قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : " ياجبريل إنى بُعثت إلى أمة أُمّيّة منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قَطُّ فقال لى يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " . قال هذا : حديث صحيح . وثبت فى الأمهات : البخارى ومسلم والموطإ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنّفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتى بكماله فى آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد آختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتىّ ، نذكر منها فى هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول — وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عُيَيْنة وعبد الله بن وهب والطبرى والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أَقْبِل وتعال وهَلُمّ . قال الطحاوىّ : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال : جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال آقرأ على حرف ؛ فقال ميكائيل : آستزده ؛ فقال : آقرأ على حرفين ؛ فقال ميكائيل : آستزده ، حتى بلغ إلى سبعة أحرف ؛ فقال : آقرأ فكُلٌّ شافٍ كافٍ إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ؛ على نحو هَلُمّ وتعالَ وأقبِل وآذهب وأسرع وعجِّل . وروى ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن آبن عباس عن أُبَىّ بن كعب أنه كان يقرأ «لِلَّذين آمَنُوا آنْظُرُونا»[1] : للذين آمنوا أمهلونا ، للذين آمنوا أخّرونا ، للذين آمنوا آرقبونا . وبهذا الإسناد عن أُبَىّ أنه كان يقرأ «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ»[2] : مَرّوا فيه ، سَعَوْا فيه . وفى البخارىّ ومسلم قال الزهرى : إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ليس يختلف فى حلال ولا حرام .

قال الطحاوى : إنما كانت السّعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أُمّيّين لا يكتب إلا القليل منهم ؛ فلما كان يشق على كل ذى لغة أن يتحوّل إلى غيرها من اللغات ؛ ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوُسّع لهم

(١) آية ١٣ سورة الحديد . (٢) آية ٢٠ سورة البقرة .

فى آختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفّظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال آبن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم آرتفعت تلك الضرورة فآرتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أُبَىّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أُبَىّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال المَلَك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شافٍ كافٍ إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب " . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وذكر من كلام آبن مسعود نحوه . قال القاضى آبن الطيب[1] : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أُبَىّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نُسخ، فلا يجوز للناس أن يبدّلوا آسما لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثانى — قال قوم : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها، يَمَنها ونِزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتى جوامع الكَلِم؛ وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هُذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابى : على أن فى القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله : « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ »[2] . وقوله : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ »[3] وذكر وجوها، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله . وإلى هذا القول — بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات — ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام وآختاره آبن عطية . قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاضى أبو بكر الباقلانى .

(٢) آية ٦٠ سورة المائدة . (٣) آية ١٢ سورة يوسف .

أسعد بها وأكثر حظا فيهـا من بعض، وذكر حديث ٱبن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصـاحف : ما ٱختلفتم أنتم وزيد فٱكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهـم . ذكره البخاوى وذكر حديث ٱبن عباس قال : نزل القرآن بلغـة الكَعْبَيْن ؛ كعب قريش وكعب خُزاعة . قيـل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ٱبن الطيب رضى الله عنـه : معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »[(١)] ولم يقل قرشيًّا ؛ وهـذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عَدْنان دون قَحْطان، أو ربيعة دون مُضَر ؛ لأن ٱسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ٱبن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عنـدى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغـة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ٱبن عطية : معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم "أنزل القرآن على سبعة أحرف" أى فيه عبارة سبع قبائل بلغـة جملتها نزل القرآن، فيعبّر عن المعنى فيـه مَرّة بعبارة قريش ، ومرة بعبـارة هُذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش : ٱبتدأ [خلق الشىء وعمله][(٢)] فجاءت فى القرآن فلم تتجه لٱبن عباس، حتى ٱختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فَطَرْتها؛ قال ٱبن عباس : ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى «فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ» . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعـالى « رَبَّنَـا افْتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنَا بالحَقِّ »[(٣)] حتى سمعت بنت ذِى يَزَنٍ تقول لزوجها : تعالَ أُفاتِحْكَ؛ أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعـالى « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »[(٤)] أى على تنقص لهم . وكذلك ٱتفق لقطبـة بن مالك إذ

(١) آية ٣ سورة الزخرف . (٢) زيادة عن ابن عطية . (٣) آية ٨٩ سورة الأعراف .
(٤) آية ٤٧ سورة النحل .

سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة : « والنَّخْلَ باسِقاتٍ »[1] ذكره مسلم فى باب (القراءة فى صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مُضَر؛ قاله قوم، وآحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مُضَر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكِنانة ، ومنها لأسد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَيْم، ومنها لضَبّة، ومنها لقَيْس ؛ قالوا: هذه قبائل مُضَر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب؛ وقد كان آبن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كَشْكَشَة قَيْس وتَمْتَمة تميم ؛ فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا ، فيقولون فى « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا »[2] : جعل رَبُّشِ تحتشِ سريًّا ؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات، وفى أكياس : أكيات . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شىء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحَلْق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجِلّة ، وآحتجوا بقراءة آبن مسعود : لَيَسْجُنُنَّه عتى حين ؛ ذكرها أبو داود؛ وبقول ذى الرُّمّة :

فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها * ولَوْنُكِ إلا عَنّها غيرُ طائلِ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الآختلاف فى القراءة فوجدتها سبعاً : منها ما تتغيّر حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأَطْهَرَ، « ويَضِيقُ صَدْرِى » ويضيق . ومنها ما لا تتغيّر صورته ويتغيّر معناه بالإعراب، مثل: « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعد . ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها . ومنها ما تتغيّر صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف المنفوش .

(١) آية ١٠ سورة ق . (٢) آية ٢٤ سورة مريم .

ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود . ومنهـا بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت [سكرة] الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعالى ، وهى أمْرٌ ونَهْىٌ ووعد ووعيد وقَصَصٌ ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هـذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ »(١) فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام " أنزل القرآن على سبعة أحرف " القراءات السبع التى قرأ بها القرّاء السبعة ؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالدّاوُدِى وابن أبى صُفْرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القرّاء السـبعة ، ليست هى الأحرف السـبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القرّاء ، وذلك أن كل واحد منهـم اختار فيما روى وعلِم وجهــه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعُرِف به ونُسب إليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ؛ ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر ، وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

(١) آية ١١ سورة الحج .

فى ذلك مصنفات، فاستمر الإجماع على الصواب، وحصل ماوعد الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما. قال ابن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع؛ وأما شاذّ القراءات فلا يصلّى به لأنه لم يجمع الناس عليه، أما أن المروىّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه، وأما مايؤثر عن أبى السمّال[1] ومن قارنه فإنه لا يوثق به. قال غيره: أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن، ولا يُعمل بها على أنها منه، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نُسبت إليه كقراءة ابن مسعود: فصيام ثلاثة أيام متتابعات. فأما لو صرّح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين: النفى والإثبات؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن، ولم يثبت فلا يثبت. والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد.

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام. قال ابن عطية: أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام: "فاقرءوا ما تيسّر منه" بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليوسّع بها على أمته، فأقرأ مرّة لأبىّ بما عارضه به جبريل، ومرّة لابن مسعود بما عارضه به أيضا؛ وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة «الفرقان»، وقراءة

---

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام): هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى، له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة. وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع وفى ص ٣٦٨ محرّفا، والتصويب عن طبقات القراء.

هشام بن حَكيم لهـا ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم فى كل قراءة منهما وقد آختلفا : " هكذا أقرأنى جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مَرّة بهذه ومَرّة بهذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إنّ ناشِئةَ اللّيلِ هى أشدّ وَطْأً وأَصْوَب قِيلًا » فقيل له : إنمـا نقرأ « وأقوَمُ قِيلا » . فقال أنس : وأَصْوَب قِيلًا، وأَقْوَم قِيلًا وأهيأ، واحد؛ فإنمـا معنى هذا أنها مروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إِنّا نَحْنُ نَزّلْنـا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُون »[1] . روى البخاريّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفُرْقان » على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقْرأنيها ، فكدت أن أَعْجَل عليه، ثم أمهلته حتى آنصرف ثم لَبّبته[2] بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرْسِلْه[3] آقْرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هكذا أنزلت " ثم قال لى : " آقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه " .

قلت : وفى معنى حديث عمر هـذا ، مارواه مسـلم عن أُبَىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلّى، فقرأ قراءة أنكرتُها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سِوَى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سِوَى قراءة صاحبه؛ فأمرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقرأا، فحسّن النبيّ صلى الله عليـه وسلم شأنهما؛ فسُقِط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى النبيّ صلى الله عليـه وسلم ماقد غشِيَنى ، ضرب فى صـدرى ففِضت عَرَقًا، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فَرَقًا، فقال لى : "يا أُبَىّ أُرْسِلَ إلىّ أنِ آقرأ القرآن على حرفٍ فرددت إليه أن هوّن على أمّتى فردّ إلىّ الثانيةَ آقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمّتى

(١) آية ٩ سورة الحجر . (٢) قوله : لببته بردائه . أى جمعت ثيابه عند صـدره ونحره ثم جررته .

(٣) أرسل الشىء : أطلقه .

فردّ إلىّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردّة رددتكها مسألة تسألنيها فقلت اللّهمّ اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتى وأخّرت الثالثة ليومٍ يرغب إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام ".

قول أُبَىّ رضى الله عنه: « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حَيْرة ودهشة؛ أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله، ويكدّر عليه وقته؛ فإنه عظُم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه؛ وإلا فأىّ شىء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النّسخ الذى هو أعظم، فكيف بالقراءة!

ولمّا رأى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة؛ ولما ظهر له قُبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلّم به — قال: " وقد وجدتموه "؟ قالوا: نعم، قال: " ذلك صريح الإيمان ". أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة. وسيأتى الكلام عليه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى.

باب ذكرِ جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقِه ما سواها، وذِكْرِ من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدّة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم متفرقاً فى صدور الرجال، وقد كتب الناس منه فى صُحُف وفى جَريدٍ وفى لِخافٍ وظُرَر وفى خَزَف وغير ذلك — قال الأصمعى: اللِّخاف: حجارة بيض رِقاق، واحدتها لَخْفة. والظُّرَر: حجر له حدّ كحدّ السكين، والجمع ظِرار؛ مثل رُطَب ورِطاب، ورُبَع ورِباع، وظِرّان أيضا مثل صُرَد وصِردان — فلما اسْتَحرّ[1] القتلُ

(١) قوله: استحر، أى اشتد وكثر.

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة ، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء ، كأبَىّ وآبن مسعود وزيد ؛ فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك ، فجمعه غير مرتب السُّوَر ، بعد تعب شديد ، رضى الله عنه . روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتلَ أهلِ اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتـل قد آستَحَرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلّا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن ؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيتُ الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك ، كنتَ تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلّفنى نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : هو والله خير ؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف (١) والعُسُب (٢) وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة « التوبة » آيتين مع خُزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن آبن غالب عن آبن شهاب وقال : مع أبى خزيمة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبى خزيمة « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم . (٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع منه خوصه .

وقال الترمذي فى حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . قال: حديث حسن صحيح .

وفى البخارى عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصُّحف فى المصاحف فقدتُ آيةً من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى[1] — الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين — « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . وقال الترمذى عنه : فقدتُ آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة ، فألحقتها فى سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » فى الجمع الأول ، على ما قاله البخارى والترمذى ؛ وفى الجمع الثانى فقدت آية من سورة « الأحزاب » . وحكى الطبرى : أن آية « براءة » سقطت فى الجمع الأخير ، والأوّل أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؟ قيل له : إن عثمان رضى الله عنه لم يَقصِد بما صنع جَمْعَ الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك ؛ على ما يأتى . وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس آختلفوا فى القراءات بسبب تفرق الصحابة فى البلدان وآشتد الأمر فى ذلك وعظم آختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضى الله عنه . وذلك أنهم آجتمعوا فى غزوة أرمينية فقرأت كل طائفة بما رُوِى لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حُذيفة المدينة — فيما ذكر البخارى والترمذى — دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : فيماذا ؟ قال : فى كتاب الله ، إنى حضرت

---

(١) خزيمة ذو الشهادتين غير أبى خزيمة بالكنية (القسطلانى) .

هذه الغزوة، وجَمَعَتْ ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدّم وقال : إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما آختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة، لأن الحق لا يختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فإن النـاس قد آختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك، وقراءتى أفضل من قراءتك. وهـذا شبيه بالكفر؛ قلنا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة؛ فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد آختلافا؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين؛ فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشـيين : إذا آختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سـوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك؛ فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها، وآستصوبوا رأيه وكان رأيا سـديدا موفّقا؛ رحمة الله عليـه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : أن عثمان قَرَن بزيد أبَانَ بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جُعلت إماما فى هذا الجمع الأخير؛ وهذا صحيح .

وقال آبن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولّاه رجل ،

والله لقد أسلمت وإنه لفى صُلب رجل كافر! . يريد زيد بن ثابت . ولذلك قال عبد الله ابن مسعود: يأهل العراق، اكتموا المصاحف التي عندكم وغُلّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول: «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فالقوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هذا فى سورة «آل عمران»(١) إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارى: ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود فى جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم فى الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلّه ورسول الله صلّى الله عليه وسلم حىّ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقى بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار . ولا ينبغى أن يظنّ جاهل أن فى هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساويًا لهما فى الفضائل والمناقب . قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء نَتَجه الغضب، ولا يُعمل به ولا يؤخذ به، ولا يُشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم . فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل: أن عبد الله بن مسعود تعلم بقيّة القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة: مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون: المعوِّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له: فقول عبد الله بن مسعود فيهما؟ فقال: لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله .

قلت: هذا فيه نظر، وسيأتى . وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد — أظنه عن أنس بن مالك، قال: كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) فى آية ١٦١ راجع جـ ٤ ص ٢٥٦

فلان بن فلان ؛ فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَل إليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال ٱبن شهاب : وٱختلفوا يومئذ فى التابوت ، فقال زيد : التابوه . وقال ٱبن الزبير وسعيد بن العاصى : التابوت ؛ فرُفع ٱختلافهم إلى عثمان فقال : ٱكتبوه بالتاء ؛ فإنه نزل بلسان قريش . أخرجه البخارى والترمذى . قال ٱبن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء ، فأثبتوه بالتاء ؛ وكتبت المصاحف على ما هو عليه غابر الدهر ، ونسخ منها عثمان نسخاً . قال غيره : قيل سبعة ، وقيل أربعة وهو الأكثر ، ووجّه بها إلى الآفاق ، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات ، فٱتخذها قرّاء الأمصار معتمد ٱختياراتهم ، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القرّاء السبعة من الٱختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم ٱعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال ٱبن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله! وإيّاكم والغُلُوّ فى عثمان ، وقولكم : حرّاق المصاحف ؛ فوالله ما حرقها إلا عن ملإ منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم . وعن عُمير بن سعيد قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام ، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا ٱجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة ٱبن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرّة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها

ذكر الله تعالى، وقول من حرقها أولى بالصواب، وقد فعله عثمان . وقد قال القاضي أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التي فيها القرآن، إذا أداه الاجتهاد إلى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفي فعل عثمان رضي الله عنه رد على الحلولية (١) والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات، وأن القراءة والتلاوة قديمة، وأن الإيمان قديم، والروح قديم؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كل ملحد وموحد أن القديم لا يُفْعَل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير مُحْدَثا ، والمحدَث لا يصير قديما، وأن القديم ما لا أول لوجوده ، وأن المحدَث هو ما كان بعد أن لم يكن؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك إذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما؛ فيقال لهم : ما تقولون في كلام الله تعالى، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق؟ فإن قالوا : نعم، فارقوا الدين، وإن قالوا : لا، قيل لهم : فما قولكم في حروف مصورة آية من كتاب الله تعالى من شمع، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت في النار فذابت واحترقت ، فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فإن قالوا : نعم ، تركوا قولهم؛ وإن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت؛ فإن قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب؛ وهو الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، منبها على ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن في إهاب ثم وقع في النار ما احترق . وقال الله عز وجل : "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

(١) الحلولية : فرقة من المتصوفة تقول : إن الله حالٌّ في كل شيء، وفي كل جزء منه متحد به حتى جوزوا أن يطلق على كل شيء أنه الله . والحشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره .

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول ، وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضـة — قبحهم الله تعـالى — فى القـرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحـرف كما فعلتم ، فإنكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ» . فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكّرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة» . ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أَوْلا ، فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — إنما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فهى قرينـة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية « الأحزاب » فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ؛ والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ٱبن عبد البر : « أبو خزيمة لا يوقف على صحة ٱسمه وهو مشهور بكنيته ؛ وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أَصْرم بن ثعلبة بن غُنْم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفّى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس . قال ٱبن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبى خزيمة نسب إلا ٱجتماعهما فى الأنصـار ، أحدهما أَوْسىّ والآخر خَزْرَجِىّ » . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآنَ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلّم أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ،

وزيد، وأبو زيد؛ [قال][1] : ونحن ورثناه. وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عَقِباً ، وكان بَدْرِيًّا، وآسم أبى زيد سعد بن عُبيد . قال آبن الطَّيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعليّ وتميم الداريّ وعُبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقيناً مِن فى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضَه عنه و بعضه عن غيره، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام، و إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضي، عبدَ الله بن مسعود وسالماً مولى أبى حُذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن. روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من هذا الذى يقرأ القرآن" . فقيل له : هذا عبد الله بن أُمّ عَبْد؛ فقال : "إن عَبْد الله يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل" الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : "غضًّا كما أنزل" أى إنه كان يقرأ الحرف الأوّل الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رُخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع و جماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال قال لى عبد الله بن عباس : أيّ القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة آبنِ أُمّ عَبْدٍ ؛ فقال لى : بل هى الآخرة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخاري . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

ذلك وما بُدّل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من آبن أمّ عبدٍ — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأُبَيّ بن كعب وسالم مَوْلى أبى حُذيفة" .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد : حدّثنا محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت مِن فِي رسول الله صلى الله عليه وسلم آثنتين وسبعين سورة — أو ثلاثا وسبعين سورة — وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »[(١)] . قال أبو إسحاق : وتعلّم عبد الله بقيّة القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصارى .

قلت : فإن صح هذا ، صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون ، فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبى صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنى إبراهيم بن موسى الخُوزى[(٢)] حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن اسماعيل حدّثنا زهير عن أبى إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ، قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوذتين ، فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر « المعوذتين » إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدّثناه إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القُرَظى قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب ، فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

---

(١) آية ٢٢٢ من السورة المذكورة . (٢) كذا فى الأصول . والذى فى التهذيب وغيره : آبن يزيد .

قلت : قوله عليه السلام " خذوا القرآن من أربعة من آبن أم عَبْد " يدل على صحته ، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق كلٌّ منهم عزَا قراءته التى آختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ؛ فأسند عاصم قراءته إلى علىّ وآبن مسعود ، وأسند آبن كثير قراءته إلى أُبَىّ ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبَىّ ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخَطّابى .

باب ما جاء فى ترتيب سُوَر القرآن وآياته، وشكله ونقطه، وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال آبن الطَّيب : إن قال قائل قد آختلف السلف فى ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدّم المكىّ على المدنىّ ، ومنهم من جعل فى أوّل مصحفه الحمد ، ومنهم من جعل فى أوّله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » ، وهذا أوّل مصحف علىّ رضى الله عنه . وأما مصحف آبن مسعود فإن أوّله : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » ثم البقرة ثم النساء ، على ترتيب مختلف . ومصحف أُبَىّ كان أوّله : الحمد لله ، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ؛ ثم كذلك على آختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطَّيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الآجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكىّ رحمه الله فى تفسير سورة « براءة » وذكر أن ترتيب الآيات فى السور ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولمّا لم يأمر بذلك فى أوّل سورة « براءة » تُركت بلا بسملة ؛ هذا أصح ما قيل فى ذلك ، وسيأتى[1] .

وذكر آبن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدّمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٦١

ربيعة : قد قُدِمّتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألّفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ننتهى إليه ، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدّثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال ابن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلُّفًا ، وأقومها هَدْيًا ، وأحسنها حالا ؛ اختارهم الله لصحبة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأما ما روى من اختلاف مصحف أُبَىّ وعلىّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فُرِّق على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ، ويوقف جبريلُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية ؛ فاتّساق السور كاتّساق الآيات والحروف ، فكلُّه عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن ربّ العالمين ؛ فمن أخر سورة مقدّمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أَخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن ". وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبى إسحاق عن البراء قال : آخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ »(١) . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق ، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

(١) آخر سورة « النساء » .

لَا يُظْلَمُونَ » . فقال جبريل للنبيّ عليهما السلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقَّف عليه فى المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقّن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف؛ ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيّة قرأت قبلُ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها . وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا، وقالا : ذلك منكوس القلب؛ فإنما عَنيَا بذلك من يقرأ السورة منكوسة، و يبتدئ من آخرها إلى أولها لأن ذلك حرام محظور؛ ومن الناس من يتعاطى هذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك و يقدر على الحفظ، وهذا حظّره الله تعالى ومنعه فى القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية؛ ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده — تعنى بالمدينة — وقد قدّمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السُّوَر .

قال أبو بكر الإنبارى : حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدثنا حجاج بن مِنهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق،

« يأيها النبىّ لم تحرّم » إلى رأس العشر، و « إذا زلزلت » ، و « إذا جاء نصر الله » ، هؤلاء السُّوَر نزلن بالمدينة؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السُّـوَر على منازلها بمكة والمدينة ، لم يدر أين تقع الفاتحة ، لاختلاف الناس فى موضع نزولها ، ويضطرّ إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسـد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسـلّم ما حكاه عن ربه تعـالى . وقد قيل إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها ، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها ؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقـدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هـذا الباب الموجود فى كلامنا المستحْلَى من نظامنا . قال عَبِيد بن الأبرص :

أنْ بُدِّلتْ منهـمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالَهـا الخطـوبُ

عينـاكَ دمعُهـما سَروبٌ * كأنّ شَأْنَيْهما شَعيب

أراد عيناك دمعهما سَروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشًا ، فقـدّم المؤخر وأخر المقدّم ؛ ومعنى سَروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه « السَّارب » للذاهب على وجهه فى الأرض ؛ قال الشاعر[1] :

* أنّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما ، الشأن واحد الشئون ، وهى مُوَاصِـل قبائل الرأس وملتقاها ، ومنها يجىء الدمع . شعيب : متفرّق .

---

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة « سرب » : « قال ابن برى : رواه ابن دريد « سربت » بباء موحدة لقوله : وكنت غير سروب » ومن رواه « تسريت » بالتاء باثنتين فمعناه : كيف سريت ليلا ، وأنت لا تسرين نهارا » .

(فصل) — وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات.

وأسند الزّبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى؛ وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر.

(فصل) — وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية: مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك. وذكر أبو عمرو الدّانى فى كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كَرِه التّعشير فى المصحف، وأنه كان يَحُكّه. وعن مجاهد أنه كره التعشير والطِّيب فى المصحف. وقال أشهب: سمعت مالكا وسُئل عن العُشُور التى تكون فى الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال: تعشير المصحف بالحبر لا بأس به؛ وسُئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السُّوَر فى كل سورة ما فيها من آية، قال: إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يُكتب فيها شىء أو يشكل، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا. قال أشهب: ثم أخرج إلينا مصحفا لجدّه، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر. وقال قتادة: بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا. وقال يحيى بن أبى كثير: كان القرآن مجرّدا فى المصاحف، فأول ما أحدثوا فيه النّقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم. وعن أبى حمزة قال: رأى إبراهيم النَّخَعِىّ فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لى: امحه فإن عبد الله بن مسعود قال: لا تخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه. وعن أبى بكر السراج قال قلت لأبى رزين: أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا؟ قال: إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن.

قال الدانى رضى الله عنه : وهـذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم، قادهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمـرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك وآستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحـرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

(فصل) — وأما عدد حروفه وأجزائه فروى سلام أبو محمد الحِمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفاظ والكُتّاب، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ . قال : وكنت فيهم، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا . قال : فأخبرونى إلى أىّ حرف ينتهى نصف القرآن ؟ فإذا هو فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » فى الفاء . قال : فأخبرونى بأثلاثه ؛ فإذا الثلث الأوّل رأس مائة من براءة، والثلث الثانى رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء، والثلث الثالث ما بقى من القرآن . قال : فأخبرونى بأسباعه على الحروف ؛ فإذا أوّل سبع فى النساء « فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَنْ صَدَّ » فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » فى التـاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » فى الألف، والسبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » فى الهـاء ، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو ، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر ، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا، فأوّل ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن . وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدّانى ، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

(فصل) — وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأوّل ، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأوّل ستة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العـدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة ، ولم يسمّوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه إليه .

وأما المدنيّ الأخير فهو فى قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آى القرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات ، وهو العدد الذى رواه سليم[1] والكسائى عن حمزة ، وأسنده الكسائى إلى علىّ رضى الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن . وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذِّمَارى : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون . فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون؛ نقص آية . قال ٱبن ذَكْوان : فظننت أن يحيى لم يعدّ «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا ، ويعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن — فى قول عطاء بن يسار — سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هذا يخالف ما تقدّم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عدّ حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وٱنفصالها عنها، وسُمِّيت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاك سُورةً * ترى كلّ مَلْك دونها يتذبذبُ

أى منزلة شرف ٱرتفعت إليها عن منزل الملوك . وقيل : سُمِّيت بذلك لشرفها وٱرتفاعها كما يقال لما ٱرتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

(١) فى الأصول : «مسلم» والراوى عن حمزة هو سليم بن عيسى الكوفى وهو أخص أصحاب حمزة به . (طبقات القراء) .

عنده كُسور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل . سُمّيت بذلك ؛ لأنها قطعت من القرآن على حِدَة ، من قول العرب للبقيّة : سُؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ؛ فعلى هـذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خُفّفت فأبدلت واوا لآنضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سُورة ، وجمع سُورة سُوَر بفتح الواو . وقال الشاعر[1] :

* سُودُ المحاجرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَر *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة ، بمعنى أنها علامة لآنقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وآنفصاله ، أى هى بائنـة من أختها ومنفردة . وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ؛ أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ »[2] . وقال النابغة :

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُهـا * لستة أعوام وذا العـامُ سابعُ

وقيل : سُمّيت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ؛ كما يقال : خرج القوم بآياتهم أى بجماعتهم . قال بُرْج بن مُسْهِر الطائى :

خَرجنا من النَّقْبَيْن لا حَىَّ مثلُنا * بآياتنا نُزجى اللِّقاحَ المطَافلا

وقيل : سُمّيت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . وآختلف النحويون فى أصـل آية ، فقال سيبويه : أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحرّكت الياء وآنفتح ما قبلها آنقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعـدها مدّة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَة على وزن فاعلة مثـل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحرّكها وآنفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لآلتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أَيّيَة بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآياء[3] . وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهرُ من آيائه * غيرَ أثافيـهِ وأرْمِـدائه

---

(١) هو الراعى . وصدر البيت : * هنّ الحرائرُ لا ربات أخمرة *

(٢) آية ٢٤٨ سورة « البقرة » . (٣) قال فى اللسان مادة (أيا) : أياء جمع الجمع نادر .

وأما الكلمة فهى الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشُّبهات[(١)] أى الحروف، وأطول الكلم فى كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ[(٢)] » . و « أَنُلْزِمُكُمُوهَا[(٣)] » وشبههما ؛ فأما قوله : « فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ[(٤)] » فهو عشرة أحرف فى الرسم[(٥)] وأحد عشر فى اللفظ . وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك . ومن حروف المعانى ما هو على كلمة واحدة، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفردا . وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ » . « وَالضُّحَى » . « وَالْعَصْرِ » . وكذلك « الٓمٓ » . و « الٓمٓصٓ » . و « طه » . و « يسٓ » . و « حمٓ » فى قول الكوفيين، وذلك فى فواتح السور، فأما فى حشوهن فلا . قال أبو عمرو الدانى : ولا أعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله فى الرحمن : « مُدْهَامَّتَانِ[(٦)] » لا غير . وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك فى قوله : « حمٓ عٓسٓقٓ » على قول الكوفيين لا غير . وقد تكون الكلمة فى غير هذا : الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا[(٧)] » قيل : إنما يعنى بالكلمة ها هنا قوله تبارك وتعالى : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ[(٨)] » إلى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ « وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى[(٩)] » . قال مجاهد : لا إله إلا الله . وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم" . وقد تسمّى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون : قال قُسٌّ فى كلمته كذا، أى فى خطبته ؛ وقال زُهير فى كلمته كذا، أى فى قصيدته ؛ وقال فلان فى كلمته يعنى فى رسالته ؛ فتسمى جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم فى تسميتهم الشيء باسم ما هو منه وما قاربه وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا .

وأما الحرف فهو الشُّبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز . قال أبو عمرو الدانى : فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم نر هذا التعبير لغير المؤلف ؛ وقد سبق التعبير به فى ص ١٦ من هذا الجزء . (٢) سورة النور آية ٥٥
(٣) سورة هود آية ٢٨ (٤) سورة الحجر آية ٢٢ (٥) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى فى الرسم فقط .
(٦) سورة الرحمن آية ٦٤ (٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ (٨) سورة القصص آية ٥ (٩) سورة الفتح آية ٢٦

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أو كلمة ؟ قلت: كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليه ، ولا ينفرد وحده فى الصورة ولا ينفصل مما يختلط به ؛ وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كانفراد الكلم وآنفصالها، فلذلك سُميت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا: المذهبَ والوجهَ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنزل القرآن على سبعة أحرف" أى سبعة أوجه من اللغات، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب؛ كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

وآختلفوا هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب؛ فذهب القاضى أبو بكر بن الطيب والطبرىّ وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربىّ صريح ، وما وجد فيه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنما آتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة وغيرهم، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتها لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّا مبيناً، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه . فالمشكاة : الكُوّة . ونشأ : قام من الليل؛ ومنه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ» و«يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ » أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد؛ كله بلسان الحبشة . والغَسّاق: البارد المُنْتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان؛ بلغة الروم . والسِّجيل : الحجارة والطين بلسان الفرس. والطُّور الجبل . واليَمّ: البحر بالسريانية . والتَّنُّور: وجه الأرض بالعجمية.

قال آبن عطية: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن آستعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، و برحلتى قريش، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام،

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصى وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة ؛ فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة ، واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربى الصحيح ، ووقع بها البيان ؛ وعلى هذا الحد نزل بها القرآن . فإن جهلها عربى ما فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى « فاطر » إلى غير ذلك . قال ابن عطية : « وما ذهب إليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة لفظة فذلك بعيد ؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع فى الأكثر؛(١) لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأول أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دخيلة فى كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أو لا ، فإن كان الأول فهى من كلامهم ، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فإن قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومن سلم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون ، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم ، والله أعلم .

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة .

---

(١) فى الأصول : « والأخرى فرع ، لأنا ندفع ... الخ » . والزيادة والتصويب عن ابن عطية .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . وإنما وجب حصول هـذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجىء الرسل وادّعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى ادّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر، وانشقاق القمر، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر .

والشرط الثانى هو أن تخرق العادة . وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجىء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها؛ لم يكن فيما ادّعاه معجزة، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه، وذلك أن يقول : الدليل على صدقى أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع الماء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقام قول الرب سبحانه ، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال : صدق ، أنا بعثته . ومثال هذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقى ؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما استشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله لو قال : صدق فيما ادّعاه علىّ . فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو، وخرق به العادة على يد الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ؛ فيقول : آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا أو يحرك الأرض عند قولى لها : تزلزلى ؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدَّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة: آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبىّ ، فإن هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعله الله لم يقع على وَفْق دعواه . وكذلك ما يروى أن مُسَيْلِمة الكذاب لعنه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء ، فما فعل الله سبحانه من هذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ، فإن تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة ، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل بطل كونه نبيًّا ، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه ، ولهذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن ادّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سُوَر من جنس نظمه ، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المقيّدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدّجال فيما رويتم عن نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ما هو معروف مشهور ؛ فإنا نقول : ذلك يدّعى الرسالة ، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان ، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة ، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والمِلّة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال ، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدَثات ، تعالى ربّ البريّات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شىء ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هـذا فٱعلم أن المعجزات على ضربين : الأول — ما ٱشتهر نقله وٱنقرض عصره بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . والثانى — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، وٱستفاضت بثبوته ووجوده ، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة ؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلْقا كثيرا وجَمًّا غفيرا ، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا ، وأن يستوى فى النقل أولهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العـدد ، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب ؛ وهذه صفة نقل القرآن ، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفًا عن سَلَف والسّلفُ عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة ، وصدقه بالأدلة المعجزات ؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ ، فنقَلَ القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان ، ونقله إلينا بعـدهم أهل التواتر الذين لا يجـوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه ، لكثرة العدد ، ولذلك وقع لنا العلم الضرورىّ بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن ظهور القـرآن على يديه وتحدّيه به . ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجـود البلدان ، كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة ، وأشـباه ذلك من الأخبـار الكثيرة الظاهرة المتواترة ؛ فالقرآن معجزة نبينّا صـلّى الله عليه وسـلّم الباقية بعده إلى يوم القيامة ، ومُعجزة كلّ نبيّ ٱنقرضت بٱنقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والإنجيل .

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء ، وكذلك قال رب العزة الذى تولَّى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أُنيسا أخا أبى ذرّ قال لأبى ذَرّ : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر ؛ وكان أُنيس أحد الشعراء ، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقْراء[1] الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق و إنهم لكاذبون . وكذلك أقرّ عُتْبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لمّا قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حٰمٓ » فُصِّلت ، على ما يأتى بيانه هنالك[2] ؛ فإذا اعترف عُتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة ، بأنه ما سمع مثل القرآن قطّ كان فى هذا القول مُقرًّا بإعجاز القرآن له ولضُربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه .

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمّل ذلك فى سورة « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ »[3] إلى آخرها ، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[4] إلى آخر السورة ، وكذلك قوله سبحانه : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ »[5] إلى آخر السورة . قال ابن الحصار : فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق ، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره ؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »[6] ، ولا أن يقول : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ »[7] .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النّظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية ؛ و بمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها وقع التحدّى والتعجيز ، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن

(١) أقراء الشعر : أنواعه وطرقه و بحوره وأنحاؤه . (٢) راجع ج ١٥ ص ٣٣٧ .
(٣) راجع ج ١٧ ص ١ (٤) راجع ج ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع ج ٩ ص ٣٧٦
(٦) راجع ج ١٥ ص ٣٠٠ (٧) راجع ج ٩ ص ٢٩٦

ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار، وهى أقصر ســورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مُغَيَّبَيْن : أحدهما — الإخبار عن الكَوْثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سـائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عنـد نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا »[١] ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى؛ حتى يقـع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدّمت فى أوّل الدنيا إلى وقت نزوله من أُمّىّ ما كان يَتْلُو من قبله من كتاب ، ولا يَخُطّه بيمينه؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها، والقرون الخالية فى دهرها؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه ، وتحدّوه به من قصة أهل الكهف، وشأن موسى والخضر عليهما السـلام ، وحال ذى القرنين ؛ فجـاءهم — وهو أمّىّ من أُمة أُمّيّة ، ليس لهـا بذلك علم — بمـا عرفوا من الكتب السالفة صحته؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا ممـا لا سبيل إليه إلا عن تعلّم؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردّدا إلى المتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ؛ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوَحْى .

ومنها : الوفاء بالوعد، المدرك بالحس فى العيان، فى كل ما وعد الله سبحانه؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة، كوعده بنصر رسوله عليه السلام، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيّـد بشرط ، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »[٢] « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »[٣] « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »[٤] و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »[٥] ، وشبه ذلك .

ومنهـا : الإخبار عن المغيّبات فى المستقبل التى لا يطلع عليهـا إلا بالوحى؛ فمن ذلك :

(١) راجع جـ ١٩ ص ٧٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٦١ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٣٩ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٤٤ .

ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ » (١) الآية . ففعل ذلك . وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنُّجْح ، وكان عمر يفعل ذلك ، فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » (٢) وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » (٣) . وقال « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » (٤) وقال : « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ » (٥) . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا ربّ العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحِكَم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمىّ .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمّنه ظاهرا و باطنا من غير آختلاف ، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » (٦) .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، و وجه حادى عشر قاله النَّظّام وبعض القَدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدّى بمثله . وأن المنع والصَّرْفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا إن المنع والصَّرْفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، و إذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحته و بلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصّرفة لم يكن معجزا . وآختلف من قال بهذه الصّرفة

(١) راجع ج ٨ ص ١٢١ . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٩٧ . (٣) راجع ج ١٦ ص ٢٨٩ .
(٤) راجع ج ٧ ص ٣٦٩ . (٥) راجع ج ١٤ ص ١ . (٦) راجع ج ٥ ص ٢٩٠

على قولين : أحدهما — أنهم صُرِفوا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثانى — أنهم صرفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم ؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدروا عليه .

قال ابن عطية : « وجه التحدّى فى القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطتـه أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبيّن المعنى بعـد المعنى ، ثم كذلك من أول القـرآن إلى آخره . والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بَشَرًا لم يكن محيطا قطّ ؛ فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهـذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسـلم صُرِفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ فى قدرة أحد من المخلوقين ، و يظهر لك قصـور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد » .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره ، ذكر فى آية واحدة أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، و بشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ » (١) الآية . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناء بعـد استثناء ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرة الفوت ، والدار الآخرة وثوابها وعقابها ، وفوز الفائزين ، وتردّى المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، فى شطر آية وذلك فى قوله تعالى : « فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم

(١) آية ٧ سورة القصص . (٢) آية ١٨٥ سورة آل عمران .

مَنْ أَغْرَقْنَا[1] » . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة و إجرائها و إهلاك الكفرة ، وآستقرار السفينة وآستوائها ، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ : « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » إلى قوله : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله ؛ أنزل الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ[2] » . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ[3] » . فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار ، إلى مثل سورة من السُّوَر القِصار ؛ فقال جلّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ[4] » . فأُفحموا عن الجواب ، وتقطّعت بهم الأسباب ، وعدلوا إلى الحروب والعناد ، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد ؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أَهْوَنَ كثيرا ، وأبلغَ فى الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللَّحْن[5] ، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللَّسَن[6] .

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتِى من جوامع الكلم ، وآختص به من غرائب الحِكَم ؛ إذا تأمّلتَ قولَه صلّى الله عليه وسلّم فى صفة الجِنان ، وإن كان فى نهاية الإحسان ، وجدته منحطًّا عن رتبة القرآن ؛ وذلك فى قوله عليه السلام : "فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلب بَشَر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . هـذا أعدل وزنا ، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا ؛ على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية ؛ لأن الكلام كلما طال آتسع فيـه مجال المتصرف ، وضاق المقال على القاصر المتكلّف ؛ وبهذا قامت الحجة على العرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنـة المعارضة ؛ كما قامت الحجة فى معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى

---

(١) آية ٤٠ سورة العنكبوت . (٢) آية ٣٣ ، ٣٤ سورة الطور . (٣) آية ١٣ سورة هود .
(٤) آية ٢٣ سورة البقرة . (٥) اللحن (بالتحريك) : الفطنة واللغة . (٦) اللسن (بالتحريك) : الفصاحة .

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبىّ الذى أراد إظهاره ؛ فكان السـحر فى زمان موسى عليـه السلام قد انتهى إلى غايته ؛ وكذلك الطّب فى زمن عيسى عليه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سُوَر القرآن وغيره

لا ٱلتفات لما وضعه الواضعون ، وٱختلقه المختلقون ، من الأحاديث الكاذبة ، والأخبار الباطلة ، فى فضـل سُوَر القرآن ، وغير ذلك من فضائل الأعمال ؛ قد ٱرتكبها جماعة كثيرة ، ٱختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى ٱرتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثـل : المغيرة بن سـعيد الكوفى ، ومحمـد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وغيرهما ، وضـعوا أحاديث وحدّثوا بها ليُوقعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبىَّ بعدى إلا ما شاء الله" ، فزاد هذا الآستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره ٱبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه ؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه ؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دِين ، فٱنظروا ممن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هَوِينا أمْرًا صَيّرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا ، يدعون النـاس إلى فضائل الأعمال ، كما رُوى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المَرْوَزىّ ، ومحمد بن عكاشة الكِرمانى ، وأحمـد بن عبد الله الجُوَيبارِى ، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن ٱبن عباس فى فضل سُوَر القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت النـاس قد أعرضوا عن القرآن وٱشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغَازى محمد بن إسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أُبَىّ بن كعب عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى فضل القرآن سورة سورة؛ وقد بحث باحث عن مخرجه حتى آنتهى إلى من آعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإنّ أثر الوضع عليه لبيّن . وقد أخطأ الواحدىّ المفسّر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤّال والمُكْدِين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاحٍ قد حفِظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد؛ قال جعفر بن محمد الطيالسى : صلّى أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين، فى مسجد الرُّصَافة، فقام بين أيديهما قاصٌّ فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا مَعْمر عن قَتادة عن أنس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : من قال لا إلٰه إلا الله يُخلق من كل كلمةٍ منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان . وأخذ فى قصةٍ نحوٍ من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد؛ فقال : أنت حدّثته بهذا؟ فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا آبن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا؛ فقال له : أنت يحيى بن معين؟ قال : نعم، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وما علمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن مَعين وأحمد بن حنبل غيركما، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما . فهؤلاء الطوائف كَذَبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحَمَام واللّهْو به؛ فأُهْدِى إليه حمام وعنده أبو البَخْتَرِىّ[1]

(١) أبو البخترى : هو وهب بن وهب بن وهب بن كثير . آنتقل من المدينة إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرقى من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيرى وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفى سنة مائتين .

القاضى فقال : روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سَبَق إلا فى خُفٍّ أو حافر أو جَناح" فزاد : أو جناح، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سَنِيّة ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمام أن يذبح؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو آقتصر النـاس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غُنْية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : "آتقوا الحديث عنّى إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدا فليتبوأ مقعده من النار" الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه . فحذارِ مما وضعه أعداء الدين ، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا إليهم، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السُّـنّة، أن القرآن آسم لكلام الله تعـالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليـه وسلّم معجزةً له — على نحو ما تقدّم — وأنه محفوظ فى الصدور، مقـروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ فى المصاحف؛ معلومةٌ على الاضطرار سُـوَرُه وآياته، مُبَرّأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ ، ولا فى حصره بعدّ، فمن آدّعى زيادة عليه أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهت الناس، وردّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليـه، وردّ قوله تعالى : «قُل لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»[1] ، وأبطل آية رسوله

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٦

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادٌّ لكتاب الله ولما جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّج تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته، ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبع فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، وينمى فرعها، ويحرسها من معايب أُولِي الحَنَف والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : « والعصر ونوائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » . ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» . فادّعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وادّعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغيّر لفظ

« أحد » وآدّعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن فى قراءة المسلمين .

وآدّعى أن المصحف الذى فى أيدينا آشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيّرة، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[1]؛ فادّعى أن الحكمة والعزة لا يشاكلان المغفرة، وأن الصواب : « وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » . وترامى به الغىّ فى هذا وأشكاله حتى آدّعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها »، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعـه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» . وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف علىّ وأنتم أذلة» . وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : «هذا صراط علىّ مستقيم» . وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهـم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : « أليس قلت للنـاس » فى موضع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتـاء فشاذّ قبيح خبيث ردىء؛ لأن ليس لا تجحد الفعل المـاضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم؛ وهو لغة شاذة لا يُحمل كتاب الله عليها .

وآدّعى أن عثمان رضى الله عنه لمـا أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصب؛ لأن عبد الله بن مسعود وأُبَىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " أقرأ أمّتى أُبَىّ بن كعب " ولقوله عليه السلام : " مَن سرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة آبن أُمّ عَبْد " . وقال هـذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : « إنّ هذَيْن »[2]، « فأصدق وأكون »، « وبشر عبادىَ الذين » بفتح الياء ، « فما أتانىَ الله » بفتح الياء . والذى فى المصحف : « إِنَّ هَـذَانِ »[2] بالألف ،

(١) آية ١١٨ سورة المائدة . (٢) بتشديد النون، قراءة نافع .

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ » ، « فَمَا آتَانِ اللَّهُ » بغير ياءين فى الموضعين .
وكما خالف ابن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ » بإثبات نونين، يفتح الثانية بعضهم و يسكنها بعضهم، وفى المصحف نون واحدة(١)؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : «ألا إن ثمودَا كفروا ربّهم » بغير تنوين، وإثبات الألف يوجب التنوين؛ وكل هذا الذى شنّع به على القرّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العدّ فيما تقدّم مما اختلفت فيه المصاحف، وسيأتى بيان هذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أُبَيّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل؛ لأن عبد الله بن كَثير قرأ على مجاهد، ومجاهد قرأ على ابن عباس، وابن عباس قرأ القرآن على أُبَيّ بن كعب «حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ» ، فى رواية وقرأ أُبَيّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ وهذا الإسناد متّصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصّيانة، وإذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهد على ابن عباس ، وقرأ ابن عباس على أُبَيّ بن كعب، وقرأ أُبَيّ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ،وليس فيها«وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أَبِيّ نبّأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُرْوَى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبَيّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها »؛ وعن ابن عباس « ليس

(١) يلاحظ أن الذى فى المصحف نونان .

عليكم جُناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » . ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحلّ ، ولا على أنها معارَض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد يُستتاب ؛ فإن تاب و إلا ضُربت عنقه . وقال أبو عبيد: لم يزل صَنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزَّيْغ فانكشف عواره، ووضحت فضائحه . قال أبو عبيد : وقد حدّثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله — بحُمْقِهم — جَمْعَ القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ . قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلمٍ كما أثبت الذى أثبت بعلمٍ . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان ؛ فإذا قرأ قارئ : « تَبَّت يَدَا أبى لهب وقد تَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيَّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف » فقد كَذَب على الله جلّ وعلا وقَوّله مالم يقل، و بدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا فى القرآن مايحلّون به عُرا الإسلام، و يَنسُبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم . وفيه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام، وبثباته تقام الصلوات، وتُؤدّى الزكوات وتتحرّى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته » : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجرًا ، وذكر عليًا فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

« قل هو » وغيّر « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد . وإسقاط ما أسقطه نَفْىٌ له وكُفر ، ومَن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لنا رَبّك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» ففى «هو» دلالة على موضع الرّد ومكان الجواب ؛ فاذا سقط بطل معنى الآية ، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . و يقال لهذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ عن الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدّمين من أهل ملّتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شىء ، صحيح اللفظ والمعانى ، سليمها من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم » فأىّ زيادة فى القرآن أوضح من هذه ، وكيف تخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مُفْتر ومُبْطل من أن يلحق به مثلها ، و إذا تُؤُمِّلَتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تخلط به ، ولا توافق معناه ، وذلك أن بعدها « لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ » فكيف يؤكل الشراب ، والذى أتى به قبلها : فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون . فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ، لأن الشراب لا يؤكل ، ولا تقول العرب : أكلت الماء ؛ لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته ، ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى مَن خالف حَرْفًا منه كفر . « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أجوافهم من الشحم وما يتعلق به من الصّديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البليّة والنِّقمة ، والشراب محال أن

يؤكل. فإن آدّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لِتَصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن. وحسبك بهذا كله ردّا لقوله، وخِزيا لمقاله. وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يُتلى، وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن؛ على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ»(1) إن شاء الله تعالى.

القول فى الآســتعاذة

وفيها آثنتا عشرة مسألة:

الأولى — أمر الله تعالى بالآستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ» أى إذا أردت أن تقـرأ؛ فأوقع المـاضى موقع المستقبل كما قال الشاعر:

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ وآستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: «ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى» المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله: «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» وهو كثير.

الثانيــة — هـذا الأمر على النّدب فى قول الجمهور فى كل قراءة فى غير الصـلاة. وآختلفوا فيه فى الصلاة. حكى النّقاش عن عطاء: أن الآستعاذة واجبة. وكان آبن سيرين والنّخعى وقوم يتعوّذون فى الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله فى الآستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعىّ يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان.

الثالثــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

(1) راجع جـ ٢ ص ٦١

لفظ كتاب الله تعالى . ورُوى عن ٱبن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ فقال لى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " يابن أُمّ عَبْد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنى جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم " .

الرابعة — روى أبو داود وٱبن ماجه فى سُننهما عن جُبَير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى صلاة فقال عمرو[1] : لا أدرى أى صلاة هى؟ فقال : " الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا — ثلاثا — الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه " . قال عمرو : هَمْزُه المُوْتَةُ، ونَفْثُه الشِّعر، ونَفْخُه الكِبْر . وقال ٱبن ماجه : المُوْتَة يعنى الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل مِن فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : " سبحانك اللّهُمّ وبحمدك تبارك ٱسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه " ؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ٱبن القاسم[2] رحمه الله أن الٱستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ٱبن عطية : « وأما المقرئون فأكثروا فى هذا من تبديل الصفة فى ٱسم الله تعالى وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد ؛ ونحو هذا مما لا أقول فيه : نِعمت البِدْعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز » .

الخامسة — قال المَهْدَوِىّ : أجمع القرّاء على إظهار الٱستعاذة فى أوّل قراءة سورة « الحمد » إلا حمزة فإنه أسرّها . وروى السُّدِّىّ[3] عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو اللّيث السَّمَرْقَنْدِىّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، فإذا نسيه

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (انظر سنن ٱبن ماجه جـ ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود جـ ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » . (٣) فى بعض النسخ : « المسيبى » .

القارئ وذَكَره فى بعض الحزب قطع وتعوّذ، ثم ٱبتـدأ من أوّله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذى وقف فيه؛ وبالأوّل قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادســـة — حكى الزَّهراوىّ قال: نزلت الآية فى الصلاة ونُدبنا إلى الاستعاذة فى غير الصـلاة وليس بفرض . قال غيره : كانت فرضًا على النبىّ صلى الله عليه وسـلم وحده ، ثم تأسّـينا به .

السابعـــة — رُوِى عن أبى هريرة أن الاسـتعاذة بعد القراءة؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربىّ: «ٱنتهى العِىّ بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخُدْرِىّ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة؛ وهذا نص . فإن قيل : فما الفائدة فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتهـا ٱمتثال الأمر؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها فى ٱمتثالها أمرًا أو ٱجتنابها نهيًا؛ وقد قيل : فائدتها ٱمتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ[1] » . قال ٱبن العربى: «ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[2] » قال : ذلك بعد قراءة أمّ القرآن لمن قرأ فى الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يَعضُده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أمّ القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسرّ هذه الرواية » .

الثامنـــة — فى فضل التعوّذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : ٱستَبّ رجلان عند النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبىّ صلّى الله عليـه وسلم فقال : هل تدرى ما قال

(١) آية ٥٢ سورة الحج . (٢) آية ٩٨ سورة النحل .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارى أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى يلبّسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب(١) فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه وآتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن آبن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : " يا أرضُ ربى وربّك الله أعوذ بالله من شرّك ومن شرّ ما خلق فيك ومن شر مايَدِبّ عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكنى البلد ووالد وما ولد " . ورَوَتْ خَوْلة بنت حَكيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : " مَن نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّه شىء حتى يرتحل " . أخرجه المُوَطّأ ومسلم والترمذىّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يُتعوّذ منه كثير ثابت فى الأخبار، والله المستعان .

التاسعة — معنى الآستعاذة فى كلام العرب : الآستجارة والتحيّز إلى الشىء، على معنى الآمتناع به من المكروه؛ يقال : عُذت بفلان وآستعذت به؛ أى لجأت إليه . وهو عياذى؛ أى ملجئى . وأعذت غيرى به وعوّذته بمعنًى . ويقال : عَوْذٌ بالله منك؛ أى أعوذ بالله منك؛ قال الراجز :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْر * عَـوْذٌ بربّى منكُم وحُجُرْ

والعرب تقول عند الأمر [تنكره](٢) : حُجْرًا له (بالضم) أى دفعًا، وهو آستعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أعْوُذ نقلت الضمة إلى العين لآستثقالها على الواو فسكنت .

---

(١) قوله : يقال له خنزب . فى نهاية آبن الأثير : «قال أبو عمرو : وهو لقب له ، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم» . (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (حجر) .

العاشرة — الشيطان واحد الشياطين، على التكسير والنون أصلية، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير. وشطنت داره أى بعدت، قال الشاعر[١]:

نأتْ بسعادَ عنك نَوًى شَطُونُ * فبانتْ والفؤادُ بها رهينُ

وبئر شَطُون أى بعيدة القعر. والشَّطَن: الحبل، سُمّى به لبعد طرفيه وامتداده. ووصف أعرابى فرسا [لايُحْفَى][٢] فقال: كأنه شيطان فى أشطان. وسُمّى الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرّده، وذلك أن كل عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان، قال جرير:

أيامَ يدعوننى الشيطانَ من غزَلٍ * وهُنّ يَهْوَيْنَنى إذ كنتُ شيطانَا

وقيل: إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك[٣]، فالنون زائدة. وشاط إذا احترق. وشيّطت اللحم إذا دخنته ولم تنضجه. واشتاط الرجل إذا احتدّ غضبا. وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن. واشتاط إذا هلك، قال الأعشى:

قد نَخضِب العَيْرَ من مكنون فائله[٤] * وقد يَشيط على أرماحنا البَطَلُ

أى يهلك. ويردّ على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول: تَشَيْطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيّن أنه تفيعل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تشيّط، ويردّ عليهم أيضا بيت أُميّة بن أبى الصَّلْت:

أيُّما شاطنٍ عَصَاه عَكَاه[٥] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه.

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعد من الخير المهان. وأصل الرجم: الرمى بالحجارة، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم. والرجم: القتل واللعن والطرد والشتم، وقد قيل هذا كله فى قوله تعالى: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ». وقول أبى إبراهيم: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ»[٦]. وسيأتى إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو النابغة الذبيانى؛ كما فى لسان العرب مادّة (شطن). (٢) الزيادة عن لسان العرب مادّة (شطن).
(٣) فى الأصول: «إذا بطل» والتصويب عن اللسان. (٤) الفائل: عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك ينحدر فى الرجلين. (٥) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شدّه. (٦) راجع جـ ١١ ص ١١١ وجـ ١٣ ص ١٢١

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : رأيت النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص فى صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذى تلعنه يا رسول الله؟ قال: "هذا الشيطان الرجيم" فقلت: يا عدوّ الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمّة منك؛ قال: ما هذا جزائى منك؛ قلت: وما جزاؤك منى يا عدوّ الله ؟ قال : والله ما أبغضك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه فى رَحِم أمّه .

البسملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء: «بسم الله الرحمن الرحيم» قَسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذى وضعت لكم يا عبادى فى هذه السورة حق ، وإنى أَفِى لكم بجميع ما ضمنت فى هذه السورة من وعدى ولطفى وبرّى . و « بسم الله الرحمن الرحيم » مما أنزله الله تعالى فى كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن « بسم الله الرحمن الرحيم » تضمّنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات ؛ وهذا صحيح .

الثانية — قال سعيد بن أبى سكينة : بلغنى أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه نظر إلى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له . قال سعيد : وبلغنى أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بِشْر الحافِى ، فإنه لما رفع الرقعة التى فيها اسم الله وطيبها طُيّب اسمه [1] ، ذكره القشيرى . وروى النسائى عن أبى المليح عن ردف رسول الله

---

(١) نص القصة كما فى وفيات الأعيان والرسالة القشيرية : « ... وسبب توبته أنه أصاب فى الطريق ورقة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالية فطيّب بها الورقة وجعلها فى شق حائط ، فرأى فى النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر، طيبت اسمي لأطيبنك في الدنيا والآخرة . فلما انتبه من نومه تاب ».

صلى الله عليـه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تَعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصيـر مثل البيت و يقول بقوّته صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب ". وقال عليّ بن الحسين فى تفسير قوله تعـالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا(١) » قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وَكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن عبـد الله آبن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ليجعل الله تعـالى له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النـار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون فى كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنالك هى قوّتهـم، و ببسم الله آستضلعوا . قال آبن عطية : ونظير هذا قولهم فى ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظة « هى » من كلمات سورة « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » . ونظيره أيضا قولهم فى عدد الملائكة الذين آبتدروا قول القائل: ربّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركا فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفا؛ فلذلك قال النبى صلّى الله عليه وسلّم: " لقد رأيت بضعا وثلاثين مَلَكا يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل ". قال آبن عطية: وهذا من مُلَح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثــة — روى الشعبى والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكتب « بآسمك اللّهُمّ » حتى أُمِر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزلت : « قُلِ آدْعُوا اللَّهَ أَوِ آدْعُوا الرَّحْمَنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلمـا نزلت : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » كتبها . وفى مصنف أبى داود قال الشعبى وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة: إن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعــة — رُوِى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تيجان السُّوَر . قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها. وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها ؛ وهو قول مالك .

(الثاني) أنها آية من كل سورة ؛ وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعي : هي آية في الفاتحة ؛ وتردّد قوله في سائر السُّوَر ؛ فمرّة قال : هي آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم في أنها آية من القرآن في سورة النمل .

وٱحتج الشافعي بما رواه الدَّارَقُطْنِيّ من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد[1] بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فٱقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأمّ الكتاب والسبع المثاني و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها". رفع هذا الحديث عبدالحميد ٱبن جعفر، وعبد الحميد هذا وثّقه أحمد بن حنبل ويحيي بن سعيد ويحيي بن معين؛ وأبوحاتم يقول فيه : محلّه الصدق ؛ وكان سفيان الثوريّ يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبي بلال ثقة مشهور .

وحجة ٱبن المبارك وأحد قولي الشافعي ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : "نزلت عليّ آنفًا سورة" فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» . وذكر الحديث ، وسيأتي بكماله في سورة الكوثر إن شاء الله تعالى[2] .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه . قال ٱبن العربي : « ويكفيك أنها

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا في الأصول والتصويب عن سنن الدارقطني وتهذيب التهذيب . وعبدالحميد بن جعفر هذا ، يكنى أبا الفضل ، ويقال : أبو حفص ، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفي . راجع تهذيب التهذيب . (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١٦ .

ليست من القرآن آختــلاف الناس فيهـا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبـار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا فى النمل وحدها . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد «الحمد لِلهِ رب العالمين» قال الله تعالى حَمِدنى عبدى و إذا قال العبد « الرحمنِ الرحيم » قال الله تعالى أثنى علىّ عبدى و إذا قال العبد « مالكِ يومِ الدينِ » قال مجّدنى عبدى — وقال مرة فوّض إلى عبدى — فإذا قال «إيّاك نعبد و إيّاك نستعين» قال هذا بينى و بين عبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال «آهدِنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوبِ عليهم ولا الضالين» قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل" . فقوله سبحانه : "قسمت الصلاة" يريد الفاتحة، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها؛ فجعل الثلاث الآيات الأُوَل لنفسه، وآختص بها تبارك آسمه، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه و بين عبده؛ لأنها تضمنت تذلّل العبد وطلب الآستعانة منـه، وذلك يتضمن تعظيم الله تعـالى، ثم ثلاث آيات تتمة سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : "هؤلاء لعبدى" أخرجه مالك؛ ولم يقل : هاتان؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال آبن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهـذه القسمة التى قسمها الله تعالى و بقوله عليـه السلام لأُبَىّ : "كيف تقرأ إذا آفتتحت الصـلاة" قال : فقرأت « الحمـد لِلهِ رب العالمين » حتى أتيت على آخرها — أنّ البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة؛ وأكثر القرّاء عدّوا «أنعمت عليهم» آية، وكذا روى قتادة عن أبى نَضْرة عن أبى هريرة قال : الآية السادسـة « أنعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهـم عدّوا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل : فإنها ثبتت فى المصحف وهى مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت فى النمل، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح؛ ولكن لكونها قرآنا ، أولكونها فاصلة بين السور

— كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود — أو تبركًا بها ، كما قد اتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجُرَيرى (١) : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » فى شىء من القرآن إلا فى «طس» «إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى . ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها فى أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ؛ والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقد تولى الدّارَقُطْنِيّ جمع ذلك فى جزء صححه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة فى مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة فى صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث . وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صلّيت خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين؛ لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا فى أوّل قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح فى ذلك بوجه عظيم، وهو المعقول؛ وذلك أن مسجد النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسُّنّة ؛ وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا استحبّوا قراءتها فى النفل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السَّعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها فى النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضا .

---

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) : وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

وجمـلة مذهب مالك وأصحابه : أنهـا ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصلّى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرًّا ولا جهرا ؛ و يجوز أن يقرأها فى النوافل . هـذا هو المشهور من مذهبه عنـد أصحابه . وعنـه رواية أخرى أنها تقرأ أول السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أول أم القرآن . وروى عنـه ٱبن نافع ٱبتـداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهـل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم ٱبن عمر ، وٱبن شهاب ؛ و به قال الشافعى وأحمـد و إسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهـذا يدل على أن المسألة مسئلة ٱجتهادية لا قطعية ، كما ظنـه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الآختلاف المذكور؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة؛ منهم : أبو حنيفة والثَّورِى؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وٱبن مسعود وعَمّار وٱبن الزبير؛ وهو قول الحكم وحماد؛ و به قال أحمد ٱبن حنبل وأبو عبيـد ؛ ورُوِىَ عن الأوزاعىّ مثـل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبـد البرّ فى (الآستذكار) . وٱحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلّى بنـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رُزَيق[(1)] عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر ، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن ، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقـد رُوى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون بالمسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مُسَيْلِمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم ، ونزل : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هـذا على

---

(١) كذا فى تهذيب التهذيب . وفى الأصول : « عمار عن رزيق » وهو خطأ .

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقي الرَّمَل في الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة في صلاة النهار وإن زالت العلة.

السادسة — اتفقت الأمة على جواز كَتْبها في أوّل كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فروَى مُجالد عن الشَّعْبِي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم». وقال الزهري: مضت السُّنّة ألا يكتبوا في الشعر «بسم الله الرحمن الرحيم». وذهب إلى رسم التسمية في أوّل كتب الشعر سعيد بن جُبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين. قال أبو بكر الخطيب: وهو الذي نختاره ونستحبه.

السابعة — قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله: مُبَسْمِل، وهي لغة مُوَلَّدة، وقد جاءت في الشعر؛ قال عمر بن أبي ربيعة:

لقد بَسْملتْ ليلَى غداةَ لقيتُها * فيا حَبَّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ

قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل. قال يعقوب بن السِّكِّيت والمُطَرِّز والثعالبي وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله. يقال: قد أكثرت من البسملة؛ أي من قول بسم الله. ومثله حَوْقَلَ الرجل، إذا قال: لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله. وهَلَّلَ، إذا قال: لا إله إلا الله. وسَبْحَلَ، إذا قال: سبحان الله. وحَمْدَلَ، إذا قال: الحمد لله. وحَيْصَلَ، إذا قال: حيّ على الصلاة. وجَعْفَلَ، إذا قال: جُعلت فِداك. وطَبْقَلَ، إذ قال: أطال الله بقاءك. ودَمْعَزَ، إذا قال: أدام الله عِزّك. وحَيْفَلَ، إذا قال: حيّ على الفلاح. ولم يذكر المُطَرِّز: الحَيْصَلة، إذا قال: حيّ على الصلاة. وجعفل، إذا قال: جُعلت فِداك. وطبقل، إذا قال: أطال الله بقاءك. ودمعز، إذا قال: أدام الله عزك.

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أوّل كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر، والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى: «فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ». «وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا». وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخَمِّر[1] إناءك وآذكر آسم الله وأَوْكِ سقاءك وآذكر آسم الله " . وقال : " لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا " . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكلْ مما يَلِيكَ" وقال : " إنّ الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر آسم الله عليه " وقال : " من لم يذبح فليذبح بآسم الله " . وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجَعًا يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى آبن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " سَتْرُ ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكَنِيف أن يقول بسم الله " . وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سَمّى الله تعالى ، ثم يُفرغ الماء على يديه .

التاسـعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَـدَرِيّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الآحتجاج عليهم من ذلك أن الله سبحانه أمرنا عند الآبتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك ، كما ذكرنا .

فمعنى « بسم الله » ، أى بالله . ومعنى « بالله » ، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهـذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله « بسم الله » يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه و بركته ؛ وهـذا تعليم من الله تعالى عباده ، ليذكروا آسمه عند آفتتاح القراءة وغيرها ، حتى يكون الآفتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العاشـرة — ذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى إلى أن « آسم » صلة زائدة ، وآستشهد بقول لَبِيد :

إلى الحَـوْل ثم آسم السـلام عليكما * ومَن يَبْك حَوْلًا كاملًا فقد آعتذر

(١) التخمير : التغطية . والوكاء : الخيط الذى تشد به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

فذكر « آسم » زيادة، وإنما أراد : ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لَبيد هـذا على أن الآسم هو المسمَّى . وسيأتى الكلام فيه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — آختلِف فى معنى زيادة « آسم » ؛ فقال قُطْرُب : زِيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القَسَم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام : بالله .

الثانية عشرة — آختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير : آبدأ بسم الله . أو على معنى الخبر؟ والتقدير : آبتدأت بسم الله؛ قولان : الأول للفراء، والثانى للزجاج . فـ « باسم » فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى آبتدائى بسم الله؛ فـ « بسم الله » فى موضع رفع خبر الآبتداء . وقيل : الخبر محذوف؛ أى آبتدائى مستقر أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان «بسم الله» فى موضع نصب بثابت أو مستقر، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » فـ « عنده » فى موضع نصب؛ رُوى هـذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير آبتدائى بسم الله موجود أو ثابت، فـ « بآسم » فى موضع نصب بالمصدر الذى هو آبتدائى .

الثالثة عشرة — « بسم الله » ، تكتب بغير ألف آستغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الآستعمال؛ بخلاف قوله : « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » فإنها لم تحذف لقلة الآستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش : تُحذف الألف . وقال يحيى بن وَثّاب : لا تُحذف إلا مع « بسم الله » فقط، لأن الآستعمال إنما كَثُر فيه .

الرابعة عشرة — وآختلِف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمّا كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خُصّت بالخفض

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف آسماً ؛ نحو الكاف فى قول الشاعر (١) :

* ورُحْنا بِكَابْنِ الماءِ يُجْنَبُ وسْطَنا *

أى بمثل آبن الماء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — آسمٌ ، وزنه اِفْعٌ ، والذاهب منه الواو ؛ لأنه من سَمَوْت ، وجمعه أسماء ، وتصغيره سُمَىّ . وآختلِف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعْل ، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقُفل وأقفال ؛ وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيـه أربع لغات : اِسم بالكسر ، واُسم بالضم . قال أحمد بن يحيى : مَن ضمّ الألف أخذه من سَمَوْت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقـال : سِمٌ وسُمٌ ، ويُنْشَد :

والله أسمـاك سُمًـا مباركـا * آثـرك الله بـــه إيثارَكـا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجبَنـا مقـدّمه * يُدْعَى أبا السَّمح وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكاً لكل عظم يَلْحُمُهْ (٢) *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا ، فهو قرضاب . « سِمه » بالضم والكسر جميعا . ومنه قول الآخر :

* بآسم الذى فى كل سورةٍ سِمُه *

وسكنت السين من « بآسم » آعتلالا (٣) على غير قيـاس ، وألفه ألف وصل ، وربمـا جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ؛ كقول الأَحْوَص :

وما أنا بالمَخْسُوس فى جِذْم مالكٍ * ولا مَن تَسَمَّى ثم يلتزم الإسمـا (٤)

---

(١) هو آمرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء مُلِحّ . ويلحمه : ينزع عنه اللحم . (٣) كان الأصل اسم نقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت البـاء به سكنت السين تخفيفا . (٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جدّ أعلى للشاعر .

السادسة عشرة — تقول العرب فى النسب إلى الآسم : سُمِوِىّ، وإن شئت آسْمِىّ ، تركته على حاله ، وجمعه أسماء، وجمع الأسماء أسامٍ . وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله .

السابعة عشرة — آختلفوا فى آشتقاق الآسم على وجهين ؛ فقال البصريون : هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلوّ والرفعة، فقيل : آسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الآسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سُمِّىَ الآسم آسمًا لأنه علا بقوّته على قسمى الكلام : الحرف والفعل؛ والآسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل؛ فلِعُلُوّه عليهما سمى آسما؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهى العلامة؛ لأن الآسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل آسم على هذا «وسم» . والأوّل أصح؛ لأنه يقال فى التصغير سمى وفى الجمع أسماء؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهى :

الثامنة عشرة — فإن من قال الآسم مشتق من العُلُوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم فى أسمائه ولا صفاته؛ وهذا قول أهل السُّنة . ومن قال الآسم مشتق من السمة يقول : كان الله فى الأزل بلا آسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفاتٍ، فإذا أفناهم بقى بلا آسم ولا صفة؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم فى الخطإ من قولهم: إنّ كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام فى الآسم والمُسَمَّى وهى :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضى أبو بكر بن الطيّب — إلى أن الآسم هو المسمى ، وآرتضاه آبن فُورَك؛ وهو قول أبى عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم؛ فقوله دالّ على الذات الموصوفة بكونه عالما ، فالآسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق؛ فالخالق هو الرب، وهو بعينه الآسم . فالآسم عندهم هو المسمّى بعينه من غير تفصيل .

قال ٱبن الحصار : مَن ينفى الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمّى ، ومَن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسيأتى لهذه مزيد بيان فى « البقرة » و « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه ٱسم الله الأعظم ولم يتسمّ به غيره ؛ ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع ؛ وهو أحد تأويلى قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمّى باسمه الذى هو « الله » . فالله ٱسم للوجود الحق الجامع لصفات الإلٰهيّة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إله إلا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يُعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال ؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — وٱختلفوا فى هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم؟ . فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . وٱختلفوا فى ٱشتقاقه وأصله ؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه ، مثل فِعال ؛ فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مِثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ ٱبنُ عمِّكَ لا أفضلتَ فى حسَبٍ * عنّى ولا أنت ديّانى فتخـزونى

كذا الرواية : فتخزونى ، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفرّاء : معنى « بسم الله » بسم الإله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لامًا مشدّدة ؛ كما قال عزّ وجلّ : «لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى» ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل : هو مشتق من « وَلَه » إذا تحيّر ؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل وَالِهٌ وٱمرأة والهة ووَالِهٌ ، وماء موله [1] : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تتحير

(١) قوله : ماء موله . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدّد وتفتح الواو .

الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هـذا أصل « إلاه » « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح ، و إسادة ووسادة؛ ورُوى عن الخليل . ورُوى عن الضحاك أنه قال : إنما سُمّى « الله » إلهاً ، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم ، ويتضرّعون إليه عند شدائدهم . وذُكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألَهُون إليه (بنصب اللام) ويألِهُون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الآرتفاع؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لاهًا ، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيـل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبّد . وتألّه إذا تنسّك؛ ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ » على هذه القراءة ؛ فإن آبن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فآسم الله مشتق من هـذا ، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنـه قول الموحدين : لا إله إلا الله ، معناه لا معبود غير الله . و « إلا » فى الكلمة بمعنى غير، لا بمعنى الآستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب ، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام المِلك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالِكُها فصار « لَهُ » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليـه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعىّ وأبو المعالى والخطابى والغزالى والمفضَّـل وغيرهم ، ورُوِىَ عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بِنْية هـذا الاسم ، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه؛ كقولك : يا الله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا آلرحمن ولا يا آلرحيم ، كما تقـول : يا الله ، فدل على أنهما من بِنْية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — وآختلفوا أيضا فى آشتقاق آسمه الرحمن؛ فقال بعضهم: لا آشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقًّا من الرحمة لاتّصل بذكر المرحوم، فجاز أن يقال : الله رَحْمٰن بعباده، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عزّ وجلّ : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ» الآية . ولما كتب علىّ رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : «بسم الله الرحمن الرحيم» قال سُهيل بن عمرو : أما «بسم الله الرحمن الرحيم» فما ندرى ما «بسم الله الرحمن الرحيم»! ولكن ٱكتب ما نعرف : باسمك اللّهُمّ ، الحديث . قال ٱبن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف ، وٱستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ قال ٱبن الحصّار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الاية الأخرى : «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ» . وذهب الجمهور من الناس إلى أن «الرحمن» مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ؛ ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها، فلذلك لا يُثَنّى ولا يجمع كما يُثَنّى «الرحيم» ويُجمع .

قال ٱبن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خَرّجه الترمذى وصحّحه عن عبد الرحمن ٱبن عَوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرّحِم وشققت لها ٱسمًا من ٱسمى فمن وَصَلها وَصَلته ومَن قَطَعها قطعته" . وهذا نص فى الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر ٱبن الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له : أن «الرحمن» ٱسم عبرانىّ فجاء معه بـ «الرحيم» . وأُنشد[1] :

لن تُدرِكوا المجدَ أو تَشْروا عباءَكُم * بالخَزِّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا

أو تتركون إلى القَسَّين هِجْرَتَكم[2] * ومَسْحَكم صُلْبَهم رَحمانَ قُربانا

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : «الرحيم» عربىّ و «الرحمان» عبرانىّ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح ؛ كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مُطَرِّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ : «بسم الله الرحمن الرحيم» قال : مدح نفسه . قال أبو إسحاق :

---

(١) قائله جرير . واليَنبوت : ضرب من الشجر . (٢) أنظر شرح القاموس واللسان مادة «رحم» .

وهذا قولٌ حَسَن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قولٌ حَسَن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ؛ والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضُّلٌ بعد تفضّل ، وإنعامٌ بعد إنعام ، وتقويةٌ لمطامع الراغبين ، ووعدٌ لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؟ فقيل : هما بمعنًى واحد ؛ كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل ؛ نحو قولك : رجل غضبان ، للمتلئ غضباً . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَلَّس (١) :

فأما إذا عَضّت بك الحربُ عضّةً * فإنك معطــوفٌ عليــك رَحيمُ

فـ«الرحمن» خاصُّ الاسم عام الفعل . و «الرحيم» عام الاسم خاصُّ الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : «الرحمن» اسم عامّ فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله . «والرحيم» إنما هو فى جهة المؤمنين ؛ كما قال تعالى : « وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » . وقال العرزمىّ (٢) : «الرحمن» بجميع خلقه فى الأمطار ونِعَم الحواس والنِّعم العامة ، و«الرحيم» بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : «الرحمن» إذا سُئل أعطى ، و«الرحيم» إذا لم يُسأل غَضب . وروى ابن ماجه فى سُنَنه والترمذىّ فى جامعه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مَن لم يسأل الله يغضب عليه" لفظ الترمذىّ . وقال ابن ماجه : "مَن لم يَدْعُ اللهَ سبحانه غضِب عليه" . وقال : سألت أبا زرعة عن أبى صالح هذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسىّ وهو خُوزِىّ (٣) ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

---

(١) هو عملس بن عقيل ؛ كما فى هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم . (٢) هو عبد الملك ابن أبى سليمان العرزمى ؛ كما فى الخلاصة . (٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

الله يَغْضب إن تركتَ سـؤاله * وبُنىّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال ٱبن عباس : هما ٱسمان رقيقان ، أحدهما أرقّ من الآخر ، أى أكثر رحمة .

قال الخطابىّ : وهذا مشكل ؛ لأن الرقة لا مدخل لهـا فى شىء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البَجَلى : هذا وَهَم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شىء ، و إنما هما ٱسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عز وجل ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفيق يُحب الرفق و يُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العُنْف " .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن « الرحمن » مختص بالله عزّ وجلّ ، لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره ، ألا تراه قال : « قُـلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَنَ (١) » فعادل الآسم الذى لا يَشركه فيه غيره . وقال : « وَٱسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ (٢) » فأخبر أن « الرحمن » هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مُسَيْلِمة الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة ، ولم يتسمّ به حتى قَرع مسامِعَه نَعْتُ الكذاب فألزمه الله تعـالى نَعْت الكذاب لذلك ، و إن كان كلّ كافرٍ كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمُسَيْلِمة علمـًا يُعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى ٱسمه الرحمن : إنه ٱسم الله الأعظم ؛ ذكره ٱبن العربىّ .

السادسة والعشرون — «الرحيم» صفة مطلقة للخلوقين ، ولمـا فى «الرحمن» من العموم قدّم فى كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل ؛ قاله المهدوى . وقيل : إن معنى «الرحيم» أى بالرحيم وصلتم إلى الله و إلى الرحمن ، فـ«ـالرحيم» نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن و بالرحيم ؛ أى و بمحمد صلى الله عليه وسـلم وصلتم إلىّ ، أى بآتباعه و بمـا جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ؛ والله أعلم .

---

(١) آية ١١٠ سورة الإسراء جـ ١٠ ص ٣٤٢ (٢) آية ٤٥ سورة الزخرف جـ ١٦ ص ٩٥

السابعة والعشرون — رُوِى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى قوله «بسم الله» : إنه شفاء من كل داء، وعَوْنٌ على كل دواء . وأما «الرحمن» ، فهو عَوْنٌ لكلّ مَن آمن به، وهو آسم لم يُسَمّ به غيره . وأما «الرحيم» ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسّره بعضهم على الحروف؛ فرُوِى عن عثمان بن عفّان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال : "أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البَرّ والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصّة" . ورُوِى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شيء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شيء قدير فلا شيء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو آفتتاح آسم من أسمائه؛ فالباء مفتاح آسمه بصير، والسين مفتاح آسمه سميع، والميم مفتاح آسمه مليك، والألف مفتاح آسمه الله، واللام مفتاح آسمه لطيف، والهاء مفتاح آسمه هادى، والراء مفتاح آسمه رازق، والحاء مفتاح آسمه حليم، والنون مفتاح آسمه نور؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند آفتتاح كل شيء .

الثامنة والعشرون — وآختلف فى وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله»؛ فرُوِىَ عن أمّ سَلمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «الرحيمْ . الحمد» يسكّن الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة . وقرأ به قوم من الكوفيين . وقرأ جمهور الناس : «الرحيمِ الحمد» ، تُعرب «الرحيم» بالخفض وبوصل الألف من «الحمد» . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ «الرحيمَ الحمد» ، بفتح الميم وصلة الألف؛ كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال آبن عطية : ولم تُرْوَ هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى : «الم آلله» .

تفسير سورة الفاتحة

" بحول الله وكرمه "

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأول – فى فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل

الأولى — روى الترمذىّ عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومة (١) بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل" . أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلّى؛ فذكر الحديث . قال آبن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على آسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على آسمه أيضا؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد: «لا يوقف له على آسم» . وذكر فى كتاب الصحابة الآختلاف فى آسمه . والحديث خرّجه البخارى عن أبى سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت : يارسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال : "ألم يقل الله « آسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ (٢) » " — ثم قال : — "إنّى لأعلمنّك سورة هى أعظم السُّوَر فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ثم أخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : "الحمد لله ربّ العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيتُه" . قال آبن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

(١) أى وقال الله هى مقسومة .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٨٩

من جِلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخارى، وآسمه رافع، ويقال: الحارث بن نُفيع بن المعلى، ويقال: أَوْس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ تُوُفِّيَ سنة أربع وسبعين وهو آبن أربع وستين [سنة][1]، وهو أوّل من صلّى إلى القِبْلة حين حُوِّلت، وسيأتى[2]. وقد أسند حديثَ أُبَيٍّ يزيدُ بن زُرَيع قال: حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَيّ وهو يصلى؛ فذكر الحديث بمعناه.

وذكر آبن الأنبارى فى كتاب الردّ له: حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الورّاق حدّثنا أبو داود حدّثنا شَيبان عن منصور عن مجاهد قال: إنّ إبليس — لعنه الله — رَنّ أربع رنات: حين لُعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة.

الثانية — آختلف العلماء فى تفضيل بعض السُّوَر والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتىّ، وجماعة من الفقهاء. ورُوِى معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك فى قول الله تعالى: «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» قال: محكمة مكان منسوخة. وروى آبن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. وآحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول، والذاتيّة فى الكل واحدة، وهى كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه. قال البُسْتىّ: ومعنى هذه اللفظة "ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن": أن الله تعالى لا يُعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

(١) قال آبن حجر فى الإصابة: «وهو خطأ؛ فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك».	(٢) راجع ج ٢ ص ١٤٩

ما يُعطى لقـارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : " أعظم سـورة " أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضـل من بعض . وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى. وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدّلالات على وحدانيّته وصفاته ليس موجودا مثلًا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفضيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة؛ وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن رَاهْوَيه(١) وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو آختيار القاضى أبى بكر بن العـربى" وآبن الحصار؛ لحديث أبى سـعيد بن المُعَلَّى وحديث أُبىّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " يا أُبَىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم " قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب فى صدرى وقال: "لِيَهْنِكَ العِلْمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال آبن الحصار : عجبى ممن يذكر الآختلاف مع هذه النصوص .

وقال آبن العربى : قوله : " ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها " وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هـذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشىء أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكل؛ كقولك : زيد أفضل العلمـاء، فهو أفضل النـاس .

وفى الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها؛ حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن. ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُرْبة إلا بها، ولا يلحق عمـل بثوابها، وبهـذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

(١) ضبطه آبن خلكان فقال: « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعـدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة ، وقيل فيه أيضا : راهويه ، بضم الهاء وسكون الواو وفتح الياء » .

كما صارت «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد» فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأُبَىّ . "أىّ آية فى القرآن أعظم" قال : «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ» . وإنما كانت أعظمَ آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" أفضلَ الذكر، لأنها كلمات حَوَت جميع العلوم فى التوحيد، والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب، وآية الكرسى، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهن و بين الله حجاب" . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها، وهى آثنا عشر آسما :

(الأول) الصلاة[1]، قال الله تعالى[2] : "قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين" الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) [سورة] الحمد، لأن فيها ذكر الحمد، كما يقال : سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب، من غير خلاف بين العلماء، وسُمّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظا، وتُفتتح بها الكتابة فى المصحف خطًّا، وتُفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب، وفى هذا الآسم خلاف، جوّزه الجمهور، وكرهه أنس والحسن وآبن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى : «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» . وقال أنس وآبن سيرين : أم الكتاب آسم اللّوح المحفوظ . قال الله تعالى : «وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ» .

---

(١) فى تفسير الألوسى وغيره : سورة الصلاة .   (٢) أى فى الحديث القدسى .

(الخامس) أم القرآن، وآختلف فيه أيضا، فجوّزه الجمهور، وكرهه أنس وآبن سيرين؛ والأحاديث الثابتة تردّ هذين القولين . روى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسُمّيت أم الكتاب لأنه يُبتدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويُبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقال يحيى بن يَعْمر : أُمّ القُرَى : مكة ، وأُمّ خُراسان : مَرْوُ ، وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سُمّيت أم القرآن لأنها أوّله ومتضمّنة لجميع علومه، وبه سُمّيت مكة أم القُرَى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت ،ومنه سُمّيت الأم أُمًّا لأنها أصل النّسل ، والأرض أمّا، فى قول أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

فالأرض مَعْقِلُنا وكانت أمّنا * فيها مقابرنا وفيها نولد

ويقال لراية الحرب : أمّ؛ لتقدمها وآتباع الجيش لها . وأصل أم أُمّهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى : «وَأُمَّهَاتُكُمْ» . ويقال أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظَّلَامَ بِأُمَّاتِكَا *

وقيل : إن أمّهات فى الناس، وأمّات فى البهائم؛ حكاه آبن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى ، سميت بذلك لأنها تُثَنّى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها آستثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذُخْرًا لها .

(السابع) القرآن العظيم ، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله عزّ وجلّ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والآعتراف بالعجز عن القيام بشىء منها إلا بإعانته تعالى، وعلى الآبتهال إليه فى الهداية إلى الصراط المستقيم؛ وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء، روى الدارمىّ عن أبى سعيد الخُدْرِى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سمّ"[1] .

---

(١) الذى فى مسند الدارمى عن عبد الملك بن عمير : قال قال رسول الله "فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء" .

(التاسع) الرُّقية، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخُدْري وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذي رَقَى سَيِّد الحي : "ما أدراك أنها رُقْية" فقال : يا رسول الله شيء أُلْقِيَ في رُوعِي؛ الحديث . خرّجه الأئمة، وسيأتي بتمامه .

(العاشر) الأساس، شكا رجل إلى الشعبي وجع الخاصرة؛ فقال: عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول : لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دُحِيَت؛ وأساس السموات عَرِيبا (١)، وهي السماء السابعة؛ وأساس الأرض عجيبا، وهي الأرض السابعة السفلى؛ وأساس الجنان جنة عدن، وهي سُرّة الجنان عليها أُسِّست الجنة؛ وأساس النار جهنم، وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح؛ وأساس بني إسرائيل يعقوب؛ وأساس الكتب القرآن؛ وأساس القرآن الفاتحة؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تُشْفَى (٢) .

(الحادي عشر) الوافية، قاله سفيان بن عُيَيْنة، لأنها لا تتنصّف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ؛ ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز .

(الثاني عشر) الكافية، قال يحيي بن أبي كثير : لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خلّاد الاسكندراني قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أم القرآن عِوَض من غيرها وليس غيرها منها عِوَضًا" .

الخامسة — قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» . وقيل : السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : أن فيها رقية؛ فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدّم والله أعلم .

(١) وفي بعض الأصول : غربيا (بالغين المعجمة) . (٢) كذا في نسخ الأصل . ولو كان جوابا للأمر لكان «تشف» مجزوما .

السادسـة — ليس فى تسميتها بالمثـانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى؛ لأن الأخبار تثنى فيه. وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ٱبن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من « البقرة » إلى «الأعراف» ست، وٱختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة؛ وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلجُوا المسجدَ وٱدعـوا ربَّكم * وٱدرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « الحجر» [(١)] إن شاء الله تعالى .

السابعـــة — المثانى جمع مثنى ، وهى التى جاءت بعد الأولى ، والطُّوَل جمع أَطْوَل . وقـد سُمِّيت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطُّوَل فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتهـا على المفصّل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السُّوَر التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفى : أنها ست؛ وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل « إياك نعبد » آية، وهى على عدّه ثمانى آيات ؛ وهذا شاذ . وقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى» وقوله : ”قسمت الصلاة“ الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه ، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوّذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبـارى قال : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا سليمان ٱبن الأشعث حدّثنا ٱبن أبى قُدامة حدّثنا جرير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٩

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال: آختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانيــة — آختلفوا أهى مَكية أم مَدَنيّـة ؟ . فقال آبن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحى — وآسمه رُفيع — وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنيـة . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينـة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . والأوّل أصح لقوله تعالى : « وَلَقَد آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » والحِجْرُ مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حُفظ أنه كان فى الإسلام قطّ صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » ؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " . وهذا خبر عن الحُكْم ، لا عن الآبتداء ، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى آبن الطيب آختلاف الناس فى أوّل ما نزل من القرآن؛ فقيل: المدثر، وقيل : آقرأ، وقيل: الفاتحة . وذكر البَيْهَقى فى دلائل النبوّة عن أبى ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: "إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة، وتَصِل الرَّحِم ، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : ياعَتِيق، اذهب مع محمد إلى وَرَقة بن نَوْفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده، فقال: آنطلق بنا إلى وَرَقة، فقال : "ومن أخبرك" . قال: خديجة، فآنطلقا إليه فقصا عليه، فقال: "إذا خلوتُ وحدى سمعتُ نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض" فقال : لا تفعل، إذا أتاك فآثْبُت حتى تسمع ما يقول ثم آئتنى فأخبرنى . فلما خلا ناداه : يا محمد، قل «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين —

حتى بلغ — ولا الضالين» ، قل : لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له ؛ فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بشّر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبيّ مرسل ، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و إن يدركنى ذلك لأجاهدن معك . فلما تُوُفّىَ ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البَيْهَقِىّ رضى الله عنه : هذا منقطع . يعنى هـذا الحديث ، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه «ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ» و «يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» .

الثالثــة — قال ٱبن عطية : ظنّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد ؛ لمـا رواه مسلم عن ٱبن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبيّ صلّى الله عليه وسـلّم سمع نَقيضا(1) من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه مَلَك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم ؛ فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتَهما لم يُؤْتَهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه . قال ٱبن عطية : وليس كما ظنّ ، فإن هـذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِماً به و بما ينزل معه ؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها ؛ والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسـلم بشىء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بهـا جبريل عليه السلام ، لقوله تعالى : «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية ، نزل بها جبريل مرتين ؛ حكاه الثعلبى . وما ذكرناه أولى ، فإنه جمع بين القرآن والسُّنة ، ولله الحمد والمنّــة .

---

(1) النقيض : الصوت .

الرابعة — قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، وإذا ثبت ذلك فحكم المصلّى إذا كبّر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت، ولا يذكر توجيها ولا تسبيحا ، لحديث عائشة وأنس المتقدّمين وغيرهما، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت، قال بها جماعة من العلماء ؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا آفتتحا الصلاة : سبحانك اللّهمّ وبحمدك، تبارك آسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك . وبه قال سفيان وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعىّ يقول بالذى رُوى عن علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا آفتتح الصلاة كبّر ثم قال : "وجّهت وجهى" الحديث، ذكره مسلم، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله (١) .

قال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنيهة قبل أن يقرأ يقول : "اللّهمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللّهُمّ نقّنِى من خطاياى كما يُنَقّى الثوب الأبيض من الدّنَس اللّهمّ آغسلنى من خطاياى بالماء والثّلج والبَرَد" وآستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فآغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعىّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — وآختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعيّنة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نَسِيَها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . وآختلف قولُه فيمن تركها ناسيا فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية آبن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال آبن خُويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة ويسجد للسهو بعد السلام . قال آبن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ويأتى بركعة بدلًا منها، كمن

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٣ .

أسقط سجدةً سهوًا . وهو آختيار آبن القاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومى المدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة ؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليه السلام : "لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن" وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة ، وهو الصحيح على ما يأتى . ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات ، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعىّ : إن تركها عامدا فى صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه ؛ على آختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدَّين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أسوّغ الآجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة ؛ نحو : « الحمد لله » . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصلّى بأم القرآن فى كل ركعة ، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها . قال آبن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجىء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يجىء بها ويعود إليها ، كسائر المفروضات المتعيِّنات فى العبادات.

السادسة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعًا فالإمام يحمل عنه القراءة ؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعًا أنه يكبّر ويركع ولا يقرأ شيئا ، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ ، وهى المسألة :

السابعة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صلاة السِّر ؛ فإن فعل فقد أساء ؛ ولا شىء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهي المسألة :

الثامنة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك ؛ لقول الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالى أنازع القرآن" ، وقوله فى الإمام : "إذا قرأ فأنصتوا" ، وقوله : "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" .

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُوَيْطِيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب في كل ركعة، إماماً كان أو مأموما، جَهَر إمامُه أو أسرّ. وكان الشافعيّ بالعراق يقول في المأموم: يقرأ إذا أسَرّ ولا يقرأ إذا جَهَر؛ كمشهور مذهب مالك. وقال بمصر: فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ ، والآخر يجزئه ألا يقرأ و يكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر. وقال ابن وهب وأشهب وابن عبدالحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جَهَر إمامه أو أسَرّ؛ لقوله عليه السلام: "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عامّ، ولقول جابر : مَن صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يُصَلّ إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر، وأن الفاتحة متعيّنة في كل ركعة لكل أحد على العموم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب"، وقوله: "مَن صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها ؛ و به قال عبد الله بن عَوْن وأيوب السّختياني وأبو ثور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروى مثله عن الأوزاعيّ؛ و به قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وأُبَيّ بن كعب وأبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُبادة بن الصّامت وأبي سعيد الخُدْري وعثمان ابن أبي العاص وخَوّات بن جُبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعي؛ فهؤلاء الصحابة بهم القُدْوة، وفيهم الأُسْوة ، كلهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سُننه مايرفع الخلاف و يزيل كل احتمال فقال: حدّثنا أبو كُريب حدّثنا محمد بن فضيل،ح، وحدّثنا سُوَيد بن سعيد

حدّثنا علىّ بن مُسْهِر جميعاً عن أبى سفيان السّعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صــلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد لله وســورة فى فريضــة أو غيرها" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليـه السلام قال للذى علمـه الصلاة : "وٱفعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى. ومن الحجة فى ذلك أيضا مارواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عُبادة بن الصامت عن صــلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصــلاة فصلّى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عُبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عُبادة يقرأ بأم القرآن ؛ فلمـا ٱنصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأمّ القرآن وأبو نعيم يجهر ؟ قال : أجل ! صلّى بنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم بعض الصلوات التى يُجهر فيها بالقراءة فالتبسَتْ عليـه ؛ فلما ٱنصرف أقبـل علينا بوجهه فقال : "هل تقرءون إذا جهرتُ بالقراءة" ؟ فقال بعضنا : إنا نصنع ذلك ؛ قال : "فلا . وأنا أقول مالى يُنازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جَهرتُ إلا بأمّ القرآن" . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين ؛ وهو قول مالك بن أنس وٱبن المبارك والشافعى وأحمد و إسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدّارَقُطْنِىّ وقال : هــذا إسناد حسن ، ورجاله كلهم ثِقات ؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيليـاء[1] ، وأن أبا نعيم أوّل من أذّن فى بيت المَقْــدِس . وقال أبو محمد عبـد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخـه ولا ٱبن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومســلم شيئا . وقال فيـه أبو عمر : مجهول . وذكر الدار قطنىّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام ، فأمرنى أن أقرأ ، قلت : و إن كنت أنت ؟ قال : و إن كنت أنا ؛ قلت : و إن جهرت ؟ قال : و إن جهرتُ . قال الدار قطنىّ : هذا إسناد صحيح . ورُوى عن جابر بن عبـد الله

---

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الإمام ضامن فما صنع فآصنعوا" . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيَّ أن يقرأ بها فى نفسه حين قال له : إنى أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم آستدل بقوله تعالى[1] : "قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "آقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين" الحديث .

العاشرة — أمّا ما آستدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : "و إذا قرأ فأنصتوا" أخرجه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرىّ ؛ وقال : وفى حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة "و إذا قرأ فأنصتوا" قال الدارقطنىّ : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمى فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبى عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعَدِىّ بن أبى عمارة . قال الدّارَقُطْنِىّ : فإجماعهم يدل على وَهَمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمى ؛ ولكن ليس هو بالقوىّ ، تركه القَطّان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبى هريرة وقال : هذه الزيادة "إذا قرأ فأنصتوا" ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صَحّح حديث أبى هريرة وقال : هو عندى صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها فى كتابه من حديث أبى موسى و إن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وآبن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا» فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام فى الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيّب . وقد روى الدّارَقُطْنِىّ عن أبى هريرة أنها نزلت فى رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : "مالى أنازع القرآن" فأخرجه مالك عن آبن شهاب عن آبن أُكَيمة اللّيثى ، وآسمه فيما قال مالك : عمرو ،

(١) أى فى الحديث القدسي .

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد تُوُفّيَ سنة إحدى ومائة وهو ٱبن تسع وسبعين سنة، لم يَرْوِ عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره. والمعنى فى حديثه: لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج، ٱقرءوا فى أنفسكم. يُبَيِّنه حديثُ عبادةَ وفُتْيَا الفاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين. فلو فهم المنع جملة من قوله: "مالى أنازع القرآن" لما أفتى بخلافه، وقول الزهرى فى حديث ٱبن أُكَيمة: فٱنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جَهَر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد بالحمد على ما بينا، وبالله توفيقنا.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[1] وهو ضعيف، كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن جابر. أخرجه الدارقطنيّ وقال: رواه سفيان الثورى وشعبة و إسرائيل ٱبن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عُيينة و جَرير بن عبد الحميد وغيرهم، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد مرسلًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو الصواب. وأما قول جابر: من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام، فرواه مالك عن وهب بن كَيسان عن جابر قولَه. قال ٱبن عبد البر: ورواه يحيى ٱبن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. وصوابه موقوف على جابر كما فى المُوَطّأ. وفيه من الفقه إبطالُ الركعة التى لا يُقرأ فيها بأم القرآن، وهو يشهد لصحة ما ذهب إليه ٱبن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتدّ المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب. وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة، وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره.

---

(١) قد ترجمه ٱبن حجر فى التهذيب وٱبن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن ٱبن سعد فى الطبقات قد وصفه بذلك.

الحادية عشرة ــ قال ٱبن العربي : لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " وٱختلف النـاس فى هذا الأصل هل يُحمل هـذا النفى على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ ٱختلفت الفَتْوَى بحسب ٱختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر فى هـذا الأصل والأقوى أن النفى على العموم ، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة فى صلاته بطلت . ثم نظرنا فى تكرارها فى كل ركعة ؛ فمن تأوّل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ٱفعل ذلك فى صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة ــ ما ذكرناه فى هذا الباب من الأحاديث والمعانى فى تعيين الفاتحة يرد على الكوفيين قولهم فى أن الفاتحة لا تتعيّن ، وأنهـا وغيرها من آى القرآن سواء . وقد عيّنها النبيّ صلى الله عليـه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيّن عن الله تعالى مراده فى قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرِيّ قال : أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدلّ هذا الحديث على أن قوله عليـه السلام للأعرابى : " ٱقرأ ما تيسّر معك من القرآن " ما زاد على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : « فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن ــ زاد فى رواية ــ فصاعدا " . وقوله عليه السلام : " هى خِداج ــ ثلاثا ــ غير تمام " أى غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخِداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة ؛ إذا ألقت ولدها لغير تمـام ، وأخدجت إذا قذفت به قبـل وقت الولادة وإن كان تام الخلق .

والنظر يوجب فى النقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنهـا صلاة لم تتم ؛ ومَن خرج من صلاته وهى لم تتم فعليه إعادتها كما أمر ، على حسب حكمها . ومن ٱدعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يُلزم ، والله أعلم .

الثالثة عشرة ــ روى عن مالك أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة مَن يحسن

فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صـلاته وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسألة . وأما ما روى عن عمـر رحمه الله أنه صلّى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن، قال : لا بأس إذًا، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر ، ومرّة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عمر، وكلاهما منقطع لا حجة فيه؛ وقد ذكره مالك فى الموطأ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيي وطائفة معه، لأنه رماه مالك من كتابه بأخرةٍ[1] ، وقال ليس عليه العمل لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة ؛ وهو الصحيح عنـه . روى يحيي بن يحيي النيسابورى قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعيّ عن همام بن الحارث أن عمر نسى القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همّـام من عمر؛ روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سـئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمـر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هـذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدم من أصولهم فى ذلك . وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ؛ إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم . قال مالك : وسـنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأولَيَيْن بأم القرآن وسورة، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعيّ : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه، وقال : وإن نسى أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثَّوْرِيّ : يقرأ فى الركعتين الأولين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبّح فى الأخريين إن شاء ، وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

---

(١) أى بتأخر وبعد عن الخير .

صلاته ، وهو قول أبى حنيفة وسائر الكوفيين . قال آبن المنذر : وقد روينا عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : آقرأ فى الأُولَيَيْن وسبح فى الأخريين ، وبه قال النَّخَعِىّ . قال سفيان : فإن لم يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسى أن يقرأ فى ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فى كل ركعة ، كقول الشافعى المصرى ، وعليه جماعة أصحاب الشافعى . وكذلك قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد المالكى ؛ قال : قراءة الفاتحة واجبة عندنا فى كل ركعة ، وهذا هو الصحيح فى المسألة . روى مسلم عن أبى قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى بنا فيقرأ فى الظهر والعصر فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين ، ويسمعنا الآية أحيانا ، وكان يطوّل فى الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك فى الصبح . وفى رواية : ويقرأ فى الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك ، ونصٌّ فى تعيُّن الفاتحة فى كل ركعة ؛ خلافا لمن أبى ذلك ، والحُجّة فى السُّنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبى هريرة قال : فى كل صلاة قراءة ؛ فما أسمعنا النبىّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منّا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأمّ القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفى البخارى : وإن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة ؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخُدْرى وخَوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وآبن عمر وآبن عباس وغيرهم ؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين ، ومنهم من حَدّ آية ، ومنهم من لم يَحُدّ ، وقال : شىء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عُبادة وأبى سعيد الخدرى وغيرهما . وفى المُدَوّنة : وكيع عن الأعمش عن خَيْثمة قال : حدّثنى من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشىء معها . وآختلف المذهب فى قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة ، فضيلة ، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا عَلِق منه بشيء ، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا صلّى وحده أو مع إمام فيما أسرّ فيه الإمام ؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا ، فعلمنى ما يجزئنى منه ؛ قال : "قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله" ؛ قال : يا رسول الله ، هذا لله ، فمالى ؟ قال : "قل اللّهُمّ ٱرحمنى وعافنى وٱهدنى وٱرزقنى" .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هذا اللفظ فلا يدع الصلاة مع الإمام جهدَه ؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدًا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد ، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثامنة عشرة — من لم يواته لسانُه إلى التكلم بالعربية من الأعجمين وغيرهم تُرجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية ؛ لأن المقصود إصابة المعنى . قال ٱبن المنذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به ، وخلاف ما علم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية عشرين — من ٱفتتح الصلاة كما أمر وهو غير عالم بالقراءة ، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة ، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعلِقت بحفظه من مجرّد السماع فلا يستأنف الصلاة ؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أُمِر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ٱبن سحنون .

الباب الثالث — فى التأمين، وفيه ثمان مسائل

الأولى — ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون « ولا الضالين » : آمين؛ ليتميّز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانية — ثبت فى الأمّهات من حديث أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه مَن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ماتقدّم من ذنبه". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدمات أربع تضمّنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين مَن خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : "ادعوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ" .

الثالثة — روى أبو داود عن أبى مُصَبِّح المَقْرائى قال : كنا نجلس إلى أبى زُهير النميرى وكان من الصحابة، فيحدّث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة . قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألحّ فى المسئلة، فوقف النبىّ صلى الله عليه وسلم يسمع منه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : "بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يا فلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم". وقال وهب بن مُنَبّه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف مَلَكًا يقول : اللّهمّ اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر "لقّننى جبريل آمين عند

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : "آمين خاتم رب العالمين". قال الهَرَوِى قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم] (١) الآفات والبلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده و إظهار ما فيه . وفى حديث آخر : "آمين درجة فى الجنة". قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللّهُمّ آستجب لنا ، وُضِع موضع الدعاء. وقال قوم : هو آسم من أسماء الله ؛ رُوِى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله آبن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . وروى الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رَبِّ آفعل" . وقال مُقاتل : هو قوة للدعاء، وآستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيّب رجاءنا .

الخامســة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين . قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تسلُبَنّى حبّها أبدًا * ويرحمُ الله عبــدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حـــتى أبلّغها ألفين آمينـا

وقال آخر فى القصر :

تباعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعــدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ؛ مِن أمّ إذا قصد ، أى نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : « وَلَا آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

البَيْتَ الْحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرِى . قال الجوهرى : وهو مبنيّ على الفتح مثل أين وكيف، لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمَّن فلان تأمينا .

السادسة — اختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيّين إلى ذلك . وقال الكوفيون و بعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى ؛ و به قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخيّر . و روى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين و إنما يقول ذلك مَن خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك . وحجتهم حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم لْيَؤمّكم أحدكم فإذا كبّر فكبّروا و إذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَىٍّ عن أبى هريرة، وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حُجْر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ « ولا الضالين » قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِيّ ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سُنّة تفرّد بها أهل الكوفة، هذا صحيح والذى بعده » . وترجم البخارى « باب جَهْر الإمام بالتأمين » .

وقال عطاء : «آمين» دعاء، أمّن ابنُ الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجّة (١) . قال الترمذى : و به يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ومَن بعدهم ، يَرون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . و به يقول الشافعى وأحمد و إسحاق . وفى المُوَطّأ والصحيحين قال ابن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتجّ بها المسجد . وأما حديث أبى موسى وسُمَىّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين، وهو إذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معًا، ولا يتقدّموه بقول : آمين،

(١) اللجة : الصوت .

لمـا ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليـه السلام : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا" . وقال ابن نافع في كتاب ابن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمامَ يقول : « ولا الضالين » . و إذا كان ببُعْد لا يسمعه فلا يقل . وقال ابن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة و يقول : آمين.

السابعـــة ـــ قال أصحاب أبي حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما رُوي في تأويل قوله تعالى : « قَـدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعِيَيْن .

الجـواب : أنّ إخفاء الدعاء إنمـا كان أفضـل لمـا يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شـعارٍ ظاهر ، و إظهارُ حق يُندب العباد إلى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحـة المشتملة على الدعاء والتأمين في آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجارٍ مجراه؛ وهذا بيّن .

الثامنـــة ـــ كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السـلام . ذكر الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبي قال حدّثنـا رَزِين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ الله أعطى أمتي ثلاثا لم تُعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون" قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك ٱسمه عنـدما ذكر دعاء موسى في تنزيله : « قد أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : ربنَـا ، فكان من هارون التأمين، فسماه داعيا في تنزيله، إذ صيّر ذلك منه دَعوة . وقد قيـل : إن آمين خاص لهذه الأمة ؛ لمـا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين" أخرجه ٱبن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال ... ؛ الحديث . وأخرج أيضا من

حديث ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ماحسدتكم اليهود على شيء ماحسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين". قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم: إنما حَسَدَنا أهل الكتاب لأن أولها حمدٌ لله وثناءٌ عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين.

الباب الرابع — فيما تضمّنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ستّ وثلاثون مسئلة

الأولى — قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشّربة فيحمده عليها". وقال الحسن: ما مِن نعمة إلا والحمد لله أفضل منها. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أَخذ". وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك". قال أبو عبد الله: معناه عندنا أنه قد أُعطى الدنيا، ثم أُعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هى من الباقيات الصالحات؛ قال [الله تعالى: «وَالْبَاقِيَاتُ الصالِحَاتُ][2] خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا». وقيل فى بعض الروايات: لكان ما أعطى أكثر مما أخذ. فصيرّ الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذًا من الله؛ فهذا

---

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها.

(٢) زيادة عن نوادر الأصول.

فى التدبير (١). كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد، والدنيا من الله؛ وكلاهما من الله فى الأصل، الدنيا منه والكلمة منه؛ أعطاه الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة. وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّثهم: "أن عبدا من عباد الله قال يارَب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعَضَلَتْ بالملَكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يارَبّنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يارَبّ إنه قد قال يارَبّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها".

قال أهل اللغة: أعضل الأمر: اشتد واستغلق؛ والمعضّلات (بتشديد الضاد): الشدائد. وعضّلت المرأة والشاة: إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه؛ بتشديد الضاد أيضا؛ فعلى هذا يكون: أَعْضَلت الملكين أو عَضَّلَت الملكين بغير باء. والله أعلم. ورُوى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الطُّهور شَطْرُ الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث.

الثانيــة — اختلف العلماء أيّما أفضل؛ قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أو قول لا إله إلا الله؟ فقالت طائفة: قوله الحمد لله رب العالمين أفضل؛ لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله؛ ففى قوله توحيد وحمد؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط. وقالت طائفة: لا إله إلا الله أفضل؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله". واختار هذا القول ابن عطية قال: والحاكم بذلك قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

---

(١) فى بعض نسخ الأصل: «فى التذكير».

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه ، وأن مما أنعم الله به الإيمان ؛ فدلّ على أن الإيمان فعله وخلقه ؛ والدليل على ذلك قوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . والعالَمون جملة المخلوقات ، ومن جملتها الإيمان ، لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم ؛ على ما يأتى بيانه .

الرابعة — الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل ؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد ؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا ؛ وقد جُمع لفظ الحمد جمع القلة فى قول الشاعر :

وأبلج محمودِ الثّناءِ خَصَصْتُه * بأفْضَلِ أقوالى وأَفْضَلِ أَحْمُدِى

فالحمد نقيض الذم ، تقول : حمدت الرجل أَحْمَدُه حَمْدًا فهو حميد ومحمود ؛ والتحميد أبلغ من الحمد . والحمد أعمّ من الشكر ، والمحمَّد : الذى كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْمِ الجَوَادِ المُحَمَّدِ *

وبذلك سُمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر[(1)] :

فَشَقّ له مِن اسمه لِيُجِلَّه * فذو العَرْش محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمَحْمَدة : خلاف المذمّة . وأَحْمَد الرجلُ : صار أمره إلى الحمد . وأحمدته : وجدته محمودا ؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته ؛ أى صادفته محمودا موافقًا ، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه . ورجل حُمَدَة — مثل هُمَزَة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدة النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء ، وليس بمرضى . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمىّ فى كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله ؛ إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . واستدل الطبرى على أنهما بمعنًى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو فى الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه ؛ لأن قولك شكرا ، إنما خصصت به الحمد ؛ لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعم من الحمد ؛ لأنه باللسان وبالجوارح

(١) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

والقلب؛ والحمد إنمـا يكون باللسان خاصّة . وقيل : الحمد أعمّ ؛ لأن فيـه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضـع الشكر موضع الحمد . ورُوى عن آبن عباس أنه قال : الحمد لله كلمةُ كل شاكر ، و إن آدم عليـه السلام قال حين عَطَس : الحمـد لله . وقال الله لنوح عليـه السلام : « فَقُلِ الحَمْدُ لِلهِ الَّذى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (١) وقال إ براهيم عليـه السلام : « الْحَمْـدُ لِلهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ » (٢) . وقال فى قصة داود وسليمان : « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » (٣) . وقال لنبيّه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا » (٤) . وقال أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ » (٥) . « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٦) . فهى كلمة كلّ شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بمـا أولى من الإحسان (٧) . وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا : الحمد أعمّ من الشكر؛ لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر؛ والجزاء مخصوص إنمـا يكون مكافأة لمن أولاك معروفا؛ فصار الحمـد أعمّ فى الآية لأنه يزيد على الشكر . ويُذكر الحمـد بمعنى الرضا؛ يقال : بلوته فحمِدته ، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : « مَقَامًا مَحْمُودًا » (٨) . وقال عليه السلام : "أحمد إليكم غسل الإحليل" أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله « الحمـد لله » : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد؛ لأن الحمد حاء وميم ودال؛ فالحاء من الوحدانية ، والميم من الملك ، والدال من الدّيمومية؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم فى تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أوّلها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث ما دامت قوته فى جسدك ألا تعصيه؛ فهذه شرائط الحمد .

---

(١) آية ٢٨ سورة المؤمنون . (٢) آية ٣٩ سورة إبراهيم . (٣) آية ١٥ سورة النمل .
(٤) آية ١١١ سورة الإسراء . (٥) آية ٣٤ سورة فاطر . (٦) آية ١٠ سورة يونس .
(٧) عقب ذلك آبن عطية فى تفسيره بقوله : فالحامد من النـاس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف . (٨) آية ٧٩ سورة الاسراء .

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن فى ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيّه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَى»[(1)] . وقال عليه السلام : "احثوا فى وجوه المدّاحين التراب" رواه المِقداد . وسيأتى القول فيه فى « النّساء »[(2)] إن شاء الله تعالى .

فمعنى «الحمد لله رب العالمين» : أى سبق الحمد منّى لنفسى قبل أن يَحْمَدنى أحد من العالمين، وحَمْدِى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة ، وحَمْدِى الخلق مشوب بالعلل . قال علماؤنا : فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجاب لها المنافع و يدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حَمِد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل؛ فاستفراغ طَوْق عباده هو محل العجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله : "لا أُحصى ثناء عليك" . وأنشدوا :

إذا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عليك بصالحٍ * فأنْتَ كما نُثْنِى وفوقَ الذى نُثْنِى

وقيل : حَمِد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فَحَمِد نفسه عنهم؛ لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المِنّة .

السابعة — وأجمع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من « الحمد لله » . ورُوِى عن سفيان بن عُيينة ورُؤْبة بن العَجّاج : « الحمدَ لله » بنصب الدال؛ وهذا على إضمار فعل . ويقال : «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة فى هذا ؟ فالجواب أن سيبويه قال : إذا قال الرجل الحمدُ لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما فى قولك : حمدت الله حمدا ؛ إلا أن الذى يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله ؛ والذى ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيبويه . إنما يتكلم بهذا تعرّضًا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا ؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث : "مَن شغل بذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين" . وقيل : إن مدحه عزّ وجلّ لنفسه وثناءه عليها ليعلِّم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا : قولوا الحمد لله . قال الطبرى : «الحمد لله»

---

(1) آية ٣٢ سورة النجم .		(2) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦

ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمرَ عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال: قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجيء قولوا إياك. وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر:

وأعلمُ أنّنى سأكونُ رَمْسًا * إذا سار النّواعِجُ[1] لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى: المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ابن أبى عَبلَة: «الحمد لله» بضم الدال واللام على إتباع الثانى الأول؛ وليتجانس اللفظ، وطلبُ التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم؛ نحو: أُجوُءك، وهو منحدُرٌ من الجبل، بضم الدال والجيم. قال:

* ... اضرب الساقينُ أُمُك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة. وفى قراءةٍ لأهل مكة «مُرُدفين» بضم الراء إتباعا للميم، وعلى ذلك «مُقُتلين» بضم القاف. وقالوا: لِإمِّك، فكسروا الهمزة اتباعا للام؛ وأنشد للنعمان بن بشير:

ويلِ امِّها فى هَـواءِ الجَوّ طالبـةً * ولا كهذا الذى فى الأرض مَطْلوبُ[2]

الأصل: ويلٌ لأمها؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم أتبع اللام الميمَ. وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن علىّ: «الحمدِ لِله» بكسر الدال على إتباع الأول الثانى.

الثامنـة — قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ أى مالكهم، وكل من ملك شيئا فهو رَبّه؛ فالربُّ: المالك. وفى الصحاح: والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للملك، قال الحارث بن حِلّزة:

وهُوَ الربّ والشّهيدُ على يَوْ * مِ الحِيَـارَيْنِ[3] والبَـلاءُ بَلاءُ

---

(١) النواعج من الإبل: السّراع. (٢) وصف عقابا تتبع ذئبا لتصيده. وهذا البيت نسـبه سيبويه فى كتابه مرة للنعمان (جـ ٢ ص ٢٧٢) وأخرى لامرئ القيس (جـ ١ ص ٣٥٣). ونسبه البغدادى فى خزانة الأدب فى الشاهد ٢٦٦ لامرئ القيس أيضا. وقد ورد فى ديوانه: * لا كالذى فى هواء الجو... * وعلى هذا لا شاهد فيه. (٣) الحياران: موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء.

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ»(١) . وفى الحديث : "أن تلد الأمة ربتها" أى سيدتها؛ وقد بيناه فى كتاب (التذكرة) . والرب : المصلح والمدبر والجابر والقائم . قال الهروى وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شىء و إتمامه : قد ربه يربه فهو ربّ له وراب؛ ومنه سمى الربانيون لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : "هل لك من نعمة تربها عليه" أى تقوم بها وتصلحها . والرب : المعبود؛ ومنه قول الشاعر :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه * لَقَدْ ذلّ مَنْ بالتْ عليه الثعالِبُ

و يقال على التكثير : رباه وربّبه وربّته(٢) ؛ حكاه النحاس . وفى الصحاح : وربّ فلانٌ ولده يربه ربًّا، وربّبه وتربّبه بمعنًى؛ أى رباه . والمربوب : المربّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم ؛ لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك فى القرآن، كما فى آخر «آل عمران»(٣) وسورة «إبراهيم»(٤) وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال .

واختلف فى اشتقاقه؛ فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم، ومنه قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»(٥) . فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل؛ وعلى أن الرب بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على «ربّ» اختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله و بين عباده، فيقال : الله ربّ العباد، وزيد ربّ الدار؛ فالله سبحانه ربّ الأرباب؛ يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل ربّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، و إنما

(١) آية ٤٢ سورة يوسف . (٢) فى النحاس : «على التكبير» . (٣) راجع ج ٤ ص ٣١٣ .
(٤) راجع ج ٩ ص ٣٦٨ (٥) آية ٢٣ سورة النساء .

يملك شيئًا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهـذه المعانى ، فهذا الفرق بين صـفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ آختلف أهل التأويل فى «العالمين» آختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالَمون جمع عالَم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم ؛ قاله الحسين بن الفضل ؛ لقوله تعالى : «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ»(١) أى من الناس . وقال العَجّاج :

* خِنْدِفُ هامةُ هذا العَأْلَمِ(٢) *

وقال جَرير بن الخَطَفَى :

تَنَصَّفُه البريّةُ وهْوَ سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال آبن عباس : العالَمون الجنّ والإنس ؛ دليله قوله تعالى : «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»(٣) ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العـالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجنّ والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم ؛ لأن هذا الجمع إنما هو جَمْع مَن يعقل خاصّة .

قال الأعشى :

* ما إنْ سمعتُ بمثلهم فى العالَمينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون . وهو معنى قول آبن عباس أيضـا : كل ذى رُوح دبّ على وجه الأرض . وقال وَهْب بن مُنَبِّه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالَم ؛ الدنيا عالَم منها . وقال أبو سعيد الخُـدْرى : إن لله أربعين ألف عالَم ؛ الدنيـا مِن شرقها إلى غربها عالَمٌ واحد . وقال مُقاتل : العالَمون ثمانون ألف عالَم ، أربعون ألف عالَم فى البر ، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيـع آبن أنس عن أبى العالية قال : الجنّ عالَم ، والإنس عالَم ؛ وسـوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالَم ، خلقهم لعبادته .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٦٥

(٢) خندف آسم قبيلة من العرب ، وذكر العلامة الشنقيطى أن العجاج كان ينشد : العأْلم ؛ بالهمز والإسكان .

(٣) سورة الفرقان آية ١

قلت : والقول الأول أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود؛ دليله قوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (١) . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » . ثم هو مأخوذ من العَلَم والعَلَامة؛ لأنه يدل على مُوجده . كذا قال الزجاج قال : العالَم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العَلَم والعَلَامة والمَعْلَم : ما دلّ على الشيء ؛ فالعالَم دالٌّ على أن له خالقا ومدبرا ، وهذا واضح . وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدى الجُنَيد: الحمد لله ؛ فقال له : أتمها كما قال الله ، قل : رَبّ العالمين ؛ فقال الرجل : ومَن العالَمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخى ؟ فإن المحدَث إذا قُرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب فى «ربّ» فالنصب على المدح، والرفع على القطع؛ أى هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٣) وصف نفسه تعالى بعد «رَبّ العالمين »، بأنه « الرحمن الرحيم » ؛ لأنه لما كان فى اتصافه بـ « رب العالمين » ترهيبٌ قرنه بـ « الرحمن الرحيم » ، لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع ؛ كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٢) . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . وقال : « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (٣) » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من جنّته أحد" . وقد تقدّم ما فى هذين الاسمين من المعانى، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤) قرأ محمد بن السَّمَيْقَع بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مالِك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَليك؛ قال الشاعر (٤) :

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوال ❊ عصينا المَلْكَ فيها أن ندينا

---

(١) آية ٢٣ سورة الشعراء . (٢) آية ٤٩ — ٥٠ سورة الحجر . (٣) آية ٣ سورة غافر .
(٤) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخـر[١] :

فاقنعْ بما قَسَم المليكُ فإنّما * قَسَم الخلائقَ بيننا علاّمُها

الخلائق : الطبائع التى جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى «مَلِك» فيقرأ «مَلِكى» على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — اختلف العلماء أيّما أبلغ : مَلِك أو مالك ؟ والقراءتان مَرْوِيّتان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر. ذكرهما الترمذى ؛ فقيل : «مَلِك» أعمّ وأبلغ من «مالك» إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا؛ ولأن أمر المَلِك نافذ على المالك فى مِلْكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل: «مالك» أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم ؛ فالمالك أبلغ تصرُّفًا وأعظم ؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع ، ثم عنده زيادة التملّك .

وقال أبو علىّ: حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بـ«ملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كلّ شىء بقوله : «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فلا فائدة فى قراءة من قرأ «مالك» لأنها تكرار . قال أبو علىّ : ولا حجة فى هذا ؛ لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدُّم العام ثم ذِكر الخاص كقوله : «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ» فالخالق يعمّ . وذكر المصوّر لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعالى : «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» بعد قوله : «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» . والغيب يعمّ الآخرة وغيرها؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والردّ على الكفرة الجاحدين لها؛ وكما قال : «الرحمن الرحيم» فذكر «الرحمن» الذى هو عام وذكر «الرحيم» بعده، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» . وقال أبو حاتم: إن «مالكا» أبلغ فى مدح الخالق من «مَلِك» ، و«ملك» أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ؛ والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هـذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام؛ فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ؛ كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير؛ و إذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلْك؛ ولا تقول : ملِك المُلْك . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على المِلك ـ بكسر الميم ـ وهو لا يتضمن «المُلْك» ـ بضم الميم ـ و «ملِك» يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة . ويتضمّن أيضا الكمال، ولذلك آستحق الملك على من دونه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : «إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ»[1]، ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب، والعرب أفضل من العَجَم وأشرف . ويتضمّن الآقتـدار والآختيار، وذلك أمر ضرورى فى المَلِك، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره، قهره عدوّه وغلبه غيره وآزدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد ؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام : «مَالِىَ لَا أَرَى ٱلْهُـدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا»[2] إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعانى الشريفة التى لا توجد فى المـالك .

قلت : وقد آحتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة ــ لا يجوز أن يتسمّى أحد بهذا الآسم ولا يدعى به إلا الله تعـالى ؛ روى البخارىّ ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : "يقبض الله الأرض يوم القيامة و يطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وعنـه أيضا عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : "إن أَخْنَع آسم عنـد الله رجل تسـمّى ملك الأملاك ــ زاد مسلم ــ لا مالك إلا الله عزّ وجلّ" قال سفيان[3] : «مثـل : شاهانْ شاهْ . وقال

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) سورة النمل آية ٢٠، ٢١

(٣) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث .

أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانىّ عن أخنع ؛ فقال : أوْضع » . وعنــه قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه " . قال ابن الحصار : وكذلك « ملك يوم الدين » و « مالك الملك » لا ينبغى أن يُختلف فى أن هذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمـالك وملك وهى :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظـيم : « إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا »[1] . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمّتى عُرِضُوا علىّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ[2] هذا البحر ملوكا على الأسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة " .

الثامنـــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » ويوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اِعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل فى كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ؛ كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله فى العـام المقبل ، تأويله سيحج فى العـام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليـه وهو لم يفعله بعدُ ، وإنمـا أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : « مالك يوم الدين » على تأويل الاستقبال ، أى سيملك يوم الدِّين أو فى يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا إلى القدرة ؛ أى إنه قادر فى يوم الدين ، أو على يوم الدين و إحداثه ؛ لأن المـالك للشىء هو المتصرف فى الشىء والقادر عليه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شىء .

والوجه الأول أمَسّ بالعربية وأنفذ فى طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدِّين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن في الدنيا كانوا منازعين في الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »[1] فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أي في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصِف الله سبحانه بأنه مَلِكٌ كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فآستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت آستقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[2] . وجَمْعُ يومٍ أيام ؛ وأصله أَيْوَام فأدغم ؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أيْوَم ، كما يقال : ليلةٌ لَيْلاء . قال الراجز[3] :

* نِعْمَ أخو الهيجاء في اليوم ٱلْيَمِى *

وهو مقلوب منه[4] ، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا ؛ كما قالوا : أَدْلٍ في جمع دَلْوٍ .

الحادية والعشرون — الدِّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ؛ كذلك قال آبن عباس وآبن مسعود وآبن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ و يدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ »[5] أي حسابهم . وقال : « الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »[6] وقال : « أَئِنَّا لَمَدِينُونَ »[7] أي مجزيّون محاسبون . وقال لَبِيد :

---

(١) سورة غافر آية ١٦ . (٢) سورة المائدة آية ٣ . (٣) هو أبو الأخزر الحماني كما في اللسان مادة « يوم » . (٤) قوله : « وهو » أي اليمى . (٥) سورة النور آية ٢٥ . (٦) سورة الجاثية آية ٢٨ . (٧) سورة الصافات آية ٥٣

حصَادُك يوماً ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يوماً كما هو دائن

آخـر :

إذا ما رمـونا رميناهـمُ * ودِنّاهم مثـل ما يُقرضـونا

آخـر :

وٱعلم يقينـا أن مُلْكك زائلٌ (١) * وٱعلم بأنّ كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَيْنًا (بفتح الدال) ودِينا (بكسرها) جزيته ؛ ومنه الدّيّان في صفة الرب تعالى أى المجازى ؛ وفى الحديث : "الكيِّس من دان نفسه" أى حاسب . وقيل : القضاء . روى عن ٱبن عباس أيضا ؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولةُ (٢) مَعْبَدٍ * على جُدِّها (٣) حَرْبًا لدِينِكَ من مُضَرْ

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدِّين أيضا : الطاعة ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنـا غُـرٍّ طِـوالٍ * عَصينا المَـلْكَ فيها أن نَدينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانيـة والعشرون — قال ثَعْلَب : دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عَزّ، ودان إذا ذلّ، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال :

* كدِينِكَ من أمّ الحُوَيْرِث قبلها *

وقال المُثَقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا دَرأْتُ لهـا وَضِينِي (٤) * أهـذا دِينُـه أبدًا ودِينى

(١) فى اللسان مادة (دين) : « قال خويلد بن نوفل الكلابى للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد ٱغتصبه ٱبنته :

يا حار أيقن أن ملكك زائل * ... ... » الخ

(٢) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها . (٣) الجُدّ (بالضم) : البئر الجيدة الموضع من الكلإ . والخطاب لعمرو بن هنـد وقد أغار على إبل معبـد أخى طرفة . (٤) درأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشدّه به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير .

والدِّين : سيرة الملك . قال زُهير :

لئن حللت بجوٍّ فى بنى أسد * فى دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ[1]

أراد فى موضع طاعة عمرو . والدِّين : الدّاء ؛ عن اللّحيانى . وأنشد :

* يا دِينَ قلبِك من سَلْمى وقد دِينا *

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين ؛ لأنّ من أول السورة إلى هاهنا خبرًا عن الله تعالى وثناءً عليه ، كقوله : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا»[2] . ثم قال : «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً» . وعكسه : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ»[3] على ما يأتى . و﴿نَعْبُدُ﴾ معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق مُعبَّد إذا كان مذللا للسالكين ؛ قاله الهَرَوِىّ . ونُطقُ المكلّف به إقرارٌ بالربوبية وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى ؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك . ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أى نطلب العَوْن والتأييد والتوفيق .

قال السُّلَمِىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقرّ بـ«إياك نعبد وإياك نستعين» فقد برئ من الجَبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدّم آهتماما ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوبُ عنه ؛ فقال له الساب : إياك أعْنى : فقال له الآخر : وعنك أُعرِض ؛ فقدّما الأهم . وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك ؛ فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال العجّاج :

إيّاك أدعُو فتقبّل مَلَقِى * وآغفر خطاياى وكثّر ورِقى

(١) جو (بالجيم) كما فى الأصول والديوان . قال البكرى فى معجمه : «انه موضع فى ديار بنى أسد» واستشهد ببيت زهير هذا . وفى القاموس وشرحه فى مادة الخو — بالخاء المعجمة — : «ويوم خو لبنى أسد ، قال زهير — وذكر البيت — قال أبو محمد الأسود ومن رواه بالجيم فقد أخطأه وكان هذا اليوم لهم على بنى يربوع .. » . وفدك : موضع بخيبر .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥ .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .

ويروى : وثَمِّر . وأمّا قول الشاعر[1] :

* إليكَ حتى بلَغَتْ إيّاكا *

فشاذٌ لا يقاس عليه . والوِرق بكسر الرّاء من الدراهم ، و بفتحها المال . وكرر الآسم لئلا يتوهم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من «إياك» فى الموضعين . وقرأ عمرو بن فائد : «إيَاك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها . وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإيَاةُ الشمس (بكسر الهمزة) : ضوءها، وقد تُفتح . وقال[2] :

سَقَتْهُ إيَاةُ الشّمس إلا لِثَاتِه * أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليه بإثمد

فإن أسقطت الهاء مددت . ويقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهى الدّارة حولها . وقرأ الفضل الرّقاشىّ : «أيَاك» (بفتح الهمزة) وهى لغة مشهورة . وقرأ أبو السَّوّار الغَنَوِى : «هياك» فى الموضعين، وهى لغة؛ قال :

فهِيّاكَ والأمرَ الذى إن توسّعتْ * موارده ضاقت عليك مصادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

عطف جملة على جملة . وقرأ يحيى بن وَثّاب والأعمش : «نِستعين» بكسر النون، وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة؛ ليدل على أنه من آستعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف الوصل . وأصل «نستعين» نستعْوِن، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

(٢) قائله طرفة بن العبد . والهاء فى «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر ، وكذا المضمر الذى فى «أسف» . ومعنى سقته : حسنته و بيضته وأشربته حسنا . و «أسف» : ذرّ عليه . و «فلم تكدم عليه» : أى لم تعضض عظما فيؤثر فى ثغرها . (عن شرح المعلقات) .

ٱستعانة ، والأصل ٱستعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى ، ولزمت الهاء عِوَضًا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦)

ٱهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى : دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُرْبك . قال بعض العلماء : فجعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هذه السورة ، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به ؛ وفى الحديث : "ليس شىء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السُّنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل : الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»[1] أى مِلْنا ؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين ٱثنين ، أى يتمايل . ومنه الهدية ؛ لأنها تمال من مِلك إلى مِلك . ومنه الهَدْىُ للحيوان الذى يساق إلى الحَرَم ؛ فالمعنى مِل بقلوبنا إلى الحق . وقال الفُضيل بن عِيَاض : «الصراط المستقيم» طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى . قال محمد بن الحنفية فى قوله عزّ وجل « ٱهدِنا الصراط المستقيم » : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحْوَل عن أبى العالية : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده . قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفيل :

شحنَّا أرْضَهم بالخَيْل حتى * تركناهم أَذَلّ مِن الصّراط

وقال جَرير :

أمير المؤمنين على صِراط * إذا ٱعْوَجّ الموارِدُ مُسْتَقِيم

وقال آخر :

* فَصَدّ عنْ نَهْج الصِّراطِ الواضح *

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغـة الروم ؛ قال ٱبن عطية : وهـذا ضعيف جدا .
وقُرِئ : السراط (بالسين) من الآستراط بمعنى الآبتلاع ؛ كأن الطريق يسترط مَن يسلكه .
وقرئ بين الزاى والصاد . وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل . وحكى سَلَمَة عن الفرّاء قال :
الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكَلْب وبنى القَيْن ، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] :
أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد ، ولسق به ولصق به . و « الصِّرَاطَ » نصب على المفعول
الثانى ؛ لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر ؛ قال الله تعالى : «فَٱهْدُوهُمْ[1]
إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » . وبغير حرف كما فى هـذه الآية . « المستقيم » صفة لـ « الصراط » ،
وهو الذى لا ٱعوجاج فيه ولا ٱنحراف ؛ ومنه قوله تعـالى : « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا[2]
فَٱتَّبِعُوهُ » وأصله مُستقوِم ، نقلت الحركة إلى القاف وٱنقلبت الواو ياء لآنكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .

صراط بدل من الأول بدل الشىء من الشىء ؛ كقولك : جاءنى زيد أبوك . ومعناه[3] :
أَدِم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يُهدَى إلى الطريق ثم يُقطع به . وقيـل : هو صراط آخر ،
ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن « ٱلَّذِين » فى الرفع
والنصب والجر ؛ وهُذَيل تقول : ٱللَّذُون فى الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذو[4] ، ومنهم
من يقول : الذيْ[5] ؛ وسيأتى .

وفى « عليهم » عشر لغات ؛ قرئ بعامتها : «عليهُمْ» بضم الهاء و إسكان الميم . «وعليهِم»
بكسر الهـاء وإسكان الميم . و « عليهِمِى » بكسر الهـاء والميم وإلحـاق ياء بعد الكسرة .
و « عليهِمُو » بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة . و « عليهُمُو » بضم الهـاء والميم
كلتيهما وإدخال واو بعد الميم . و «عليهُمُ» بضم الهاء والميم من غير زيادة واو . وهذه الأوجه
الستة مأثورة عن الأئمة من القرّاء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القرّاء :

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ (٣) أى قوله تعالى : « ٱهدنا » وما بعده . (٤) قال أبو حيان فى البحر : وٱستعماله بحذف النون جائز . كذا فى اللسان .
(٥) أى إفرادا أو جمعا فى الرفع والنصب والجر ؛ كما يؤخذ من لسان العرب .

« عليهمى » بضم الهاء وكسر الميم وإدخال ياء بعد الميم؛ حكاها الحسن البصرى (١) عن العرب . و « عليهمِ » بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء . و « عليهِمُ » بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو . و « عليهِمِ » بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم . وكلها صواب؛ قاله ٱبن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب وٱبن الزبير رضى الله عنهما « صراط مَن أنعمت عليهم » . وٱختلف الناس فى المُنْعَم عليهم؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النّبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وٱنتزعوا ذلك من قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٢) » . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب فى آية الحمد؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه، طاعةً كانت أو معصيةً؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر إليهم والٱختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم إليه فى دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : « صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يُضلّهم، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (٣) » الآية .

الثانية والثلاثون — غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ (٧)

ٱختلف فى « المغضوب عليهم » و « الضالين » من هم؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عَدِىّ بن حاتم وقصة إسلامه، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .
(٢) راجع ج ٥ ص ٢٧١   (٣) راجع ج ٤ ص ١٩

أيضا قوله سبحانه فى اليهود : « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » وقال : « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ »[1] وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »[2] . وقيل : «المغضوب عليهم» المشركون . و «الضالين» المنافقون . وقيل : «المغضوب عليهم» هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ؛ و «الضالين» عن بركة قراءتها . حكاه السُّلَمِىّ فى حقائقه والماوردى فى تفسيره ؛ وليس بشىء . قال الماوردى : وهذا وجه مردود ؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : «المغضوب عليهم» باتباع البدع ؛ و «الضالين» عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبىّ صلى الله عليه وسلم أَوْلَى وأعلى وأحسن . و «عليهم» فى موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم . والغضب فى اللغة الشدّة . ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقَة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض ؛ سُمِّيت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، و إرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث : "إن الصدقة لتطفئ غضب الرب" فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سَنَن القصد وطريق الحق ؛ ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا ؛ قال :

ألم تَسْأَلْ فتخبرْكَ الدِّيارُ * عن الحَىِّ المُضَلَّلِ أَيْنَ ساروا

والضُّلَضِلَة : حجر أملس يردّده الماء فى الوادى . وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفةٌ لونَه ، قال :

* أَوْ غَضْبَةٍ فى هَضْبَةٍ ما أَمْنَعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب وأُبَىّ بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فالخفض على البدل من «الذين»

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٥ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٢

أو من الهاء والميم فى «عليهم» ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أن الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه؛ أو لأن «غير» تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما، كما تقول: الحىّ غير الميت، والساكن غير المتحرك، والقائم غير القاعد، قولان : الأوّل للفارسىّ، والثانى للزمخشرىّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهاء والميم فى عليهم، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى؛ وحُكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — «لا» فى قوله «ولا الضالين» اختلف فيها، فقيل هى زائدة ؛ قاله الطبرىّ . ومنه قوله تعالى : « مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »[1] . وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكىّ والمهدوىّ . وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير، وهى قراءة عمر وأُبَىّ؛ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل فى «الضالين» : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدّة الألف واللام المدغمة. وقرأ أيوب السختيانىّ : «ولا الضألين» بهمزة غير ممدودة؛ كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهى لغة. حكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عُبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَايُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَأْنٌّ »[2] . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبّة وشأبّة . قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيّر :

* إذا ما العَوَالى بالعبيط احمأرّت[3] *

نُجز تفسير سورة الحمد ؛ ولله الحمد والمنّة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٤ (٣) كذا ورد هذا الشطر فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عطية وأبى حيان والبيت كما فى ديوانه واللسان مادة (جنن) :

وأنت ابنَ لَيْلَى خير قومك مشهدا * اذا ما احمأرّت بالعبيط العواملُ

وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان . وعوالى الرماح : أسنتها؛ واحدتها عالية . والعبيط : الدم الطرى . واحمرّ الشىء واحمأرّ بمعنى .

تفسير سورة البقرة

"بحول الله وكرمه ، لا ربّ سواه"

وأوّل مبدوء به الكلامُ فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كلّ سورة إن وجدنا لها ذلك ؛ فنقول :

ســورة البقرة مَدَنيّــة ، نزلت فى مُدَد شتّى . وقيل : هى أوّل ســورة نزلت بالمدينة ، إلا قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ »(١) فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النَّحْر فى حِجّة الوَدَاع بِمِنًى ؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهــذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم . ويقال لهـا : فسطاط القرآن ؛ قاله خالد آبن مَعْدَان . وذلك لعظمها وبهائها ، وكثرة أحكامها ومواعظها . وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى آثنتى عشرة سنة ، وآبنُه عبدُ الله فى ثمـانى سنين كما تقدّم .

قال آبن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألفُ أمْر وألف نَهْى وألف حُكْم وألف خبر . وبَعثَ رسول الله صلى الله عليه وسـلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثَهم سِـنًّا لحفظه سورة البقرة ، وقال له : "آذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أُمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "آقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركَها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة"(٢) ، قال معاوية : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيــه سورة البقرة" . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يُقرأ فيــه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سَناما و إن سَنام القرآن سورةُ البقرة ، و إن لكل شىء لُبابا و إن لُباب القرآن المفصّل . قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص . وفى صحيح البُسْتِىّ

---

(١) راجع ج ٣ ص ٣٧٥ (٢) معاوية هذا ، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء سَناما وإن سَنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها فى بيته ليلًا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتــه ثلاثة أيام " . قال أبو حاتم البُسْتِيّ : قوله صــلى الله عليه وسـلم : " لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام " أراد: مردة الشياطين . وروى الدّارِمىّ فى مسنده عن الشّعْبِيّ قال قال عبدالله : مَن قرأ عشر آيات مِن ســورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يُصبح ؛ أربعا من أولها وآية الكرسى وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أولهــا : « لِلّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ » . وعن الشعبى عنــه : لم يَقربه ولا أهلَه يومئذ شــيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقرأْن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع — وكان من أصحاب عبد الله — : لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قــد حَفِظ . قال أبو محمد الدارمى : منهم من يقول : المغيرة بن سميع .

وفى كتاب الآستيعاب لآبن عبد البر : وكان لَبِيد بن ربيعة [بن عامر][1] بن مالك بن جعفر آبن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحَسُن إسلامه وترك قولَ الشعر فى الإسلام، وسأله عمر فى خلافته عن شعره وآستنشده؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنتُ لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علّمنى الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قولُه ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل فى الإسلام إلا قوله :

الحمــد لله إذ لم يأتنى أجــلِى　*　حتى آكتسيْتُ من الإسلام سِرْبالا

قال آبن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السّلولى ، وهو أصح عندى .
وقال غيره : بل البيت الذى قاله فى الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه　*　والمرءُ يصلحه القَرِينُ الصالح

وسيأتى ما ورد فى آية الكرسى وخواتيم البقرة[2] ، و يأتى فى أول سورة آل عمران[3] زيادة بيان لفضل هذه السورة، إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (ج ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .　(٢) راجع ج ٣ ص ٢٦٨ ، ٤٣١
(٣) راجع ج ٤ ص ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

"رب يسـّـر وأعن"

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

آختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور، فقال عامر الشَّعْبى وسفيان الثَّورى وجماعةٌ من المحدّثين : هى سِرّ الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب مِن كُتُبه سِرّ . فهى من المتشابه الذى آنفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يُتكلّم فيها [(١)] ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدى عن عمر وعثمان وآبن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطّعة من المكتوم الذى لا يُفَسَّر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطّعة فى القرآن إلا فى أوائل السُّوَر ، ولا ندرى ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هـذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبى طالب حدّثنا أبو المنـذر الواسطى عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيم [(٢)] قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ماشاء ، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به [(٣)] ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر : فهذا يوضّح أن حروفا من القـرآن سُترت معانيها عن جميع العالَم ، آختبارًا من الله عزّ وجلّ وآمتحانا ، فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومن كفر وشكّ أثِم وبَعُد . حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى حدّثنا محمد بن أبى بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبـد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمانٍ بغيب ؛ ثم قرأ : «ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ» .

---

(١) فى نسخة من الأصل : « ولا يجوز أن نتكلم فيها ... وتمرّ كما » الخ . وفى نسخة : « وتقرّ كما جاءت » .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : « فى التقريب الربيع بن خثيم ، بضم المعجمة وفتح المثلثة . ولكن فى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

(٣) فى نسخة من الأصل : « تجزون به » .

قلت : هــذا القول فى المتشابه وحكمه ، وهو الصحيح على ما يأتى بيانه فى (آل عمران) إن شاء الله تعـالى (١) . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهـا ، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تخرج عليهـا ؛ وآختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن آبن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن آسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العـرب حين تحـداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنـه أبلغ فى الحجـة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قُطْرُب : كانوا ينفرون عند آستماع القرآن ، فلما سمعوا : « الۤمۤ » و « الۤمۤصۤ » آستنكروا هذا اللفظ ، فلما أَنْصتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم و يقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لمـا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : « لا تَسْمَعُوا لِهَـذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ » (٢) نزلت ليستغربوها فيفتحون لهـا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيّتها ؛ كقول آبن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح آسمه الله ، واللام مفتاح آسمـه لطيف ، والميم مفتاح آسمه مجيـد . وروى أبو الضُّحَى عن آبن عباس فى قوله : « الۤمۤ » قال : أنا الله أعلم ، « الۤر » أنا الله أرى ، « الۤمۤصۤ » أنا الله أَفْصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن آسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . وآختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنًى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لهـا ووضعًا بدل الكلمات التى الحروف منها ، كقوله :

* فقلت لهـا قِفِى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخـير خيراتٍ وإن شـرًّا فَا * ولا أريـد الشر إلا أنْ تَا

أراد : وإن شرًّا فشرٌّ . وأراد : إلا أن تشاء .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٩ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٦

وقال آخر :

نادوهـم ألَا الْجِمُـو ألَا تا * قالـوا جميعا كلهـم ألَا فَا

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فاركبوا . وفى الحـديث : "من أعان على قتـل مسلم بشـطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول فى آقتـل : أق ؛ كما قال عليه السـلام "كفى بالسيف شا" معناه : شافيًا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسُّوَر . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله تعـالى بها لشرفها وفضلها ، وهى من أسمائه ؛ عن آبن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قَسَمًا لأن القسم معقود على حروف مثل : إنّ وقـد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القَسَم قوله تعـالى : « لا رَيْبَ فِيهِ » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه ؛ لكان الكلام سديدا ، وتكون « لا » جواب القَسَم . فثبت أن قول الكلبى وما رُوى عن آبن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة فى القَسَم من الله تعـالى ، وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدّق ، ومكذّب ؛ فالمصدق يصدق بغير قَسَم ، والمكذب لا يصدق مع القَسَم ؟ . قيل له : القرآن نزل بلغـة العرب ؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعـالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنـده . وقال بعضهم : « الٓمٓ » أى أنزلت عليك هـذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : « الٓمٓ » قال آسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علىّ الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أَوْدع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أول السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو وَلِىّ ، ثم بيّن ذلك فى جميع السورة ليفقه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال ؛ فالله أعلم .

والوقف على هـذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها . وآختلف : هل لها محل من الإعراب ؟ فقيل : لا ؛ لأنها ليست أسماء متمكنة ، ولا أفعالا مضارعة ؛ وإنما هي بمنزلة حروف التهجي فهي محكية . هذا مذهب الخليل وسيبويه .

ومن قال : إنها أسماء السُّوَر فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ٱبتداء مضمر ؛ أى هــذه « الٓمٓ » ؛ كما تقول : هذه سورة البقرة . أو تكون رفعًا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ٱبن كَيْسان النحوى : « الٓمٓ » فى موضع نصب ؛ كما تقول : ٱقرأ « الٓمٓ » أو عليك « الٓمٓ » . وقيل : فى موضع خفض بالقسم ؛ لقول ٱبن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب . و« ذلك » قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر ، و إن كان موضوعا للإشارة إلى غائب ؛ كما قال تعالى فى الإخبار عن نفســه جلّ وعزّ : « ذَٰلِكَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ »[(1)] ؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرمح يأطِرُ[(2)] متْنَه　＊　تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا . فـ« ذلك » إشارة إلى القرآن ، موضوع موضع هذا ، تلخيصه : الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه . وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ »[(3)] « تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ »[(4)] أى هذه ؛ لكنها لمـا ٱنقضت صارت كأنها بَعُدَت فقيـل تلك . وفى البخارى « وقال معمر ذلك الكتاب هذا القرآن » . ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة ؛ كقوله : « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ »[(5)] هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء « هذا » بمعنى « ذلك » ؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرَام : " يركبون ثَبَجَ[(6)] هذا البحر " أى ذلك البحر ؛ والله أعلم . وقيل : هو على بابه إشارة إلى غائب .

وٱختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة ؛ فقيل : « ذلك الكتاب » أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلائق بالسعادة وٱلشقاوة والأجل والرزق لا رَيْب فيه ؛ أى لا مبدِّل له . وقيل : ذلك الكتاب ؛ أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل " أن رحمتى سبقت غضبى " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لمـا قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أنّ رحمتى تغلب غضبى " فى رواية : " سبقت " . وقيل :

---

(1) سورة السجدة آية ٦　(2) يأطر : يثنى .　(3) سورة الأنعام آية ٨٣ .
(4) سورة البقرة آية ٢٥٢　(5) سورة الممتحنة آية ١٠　(6) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه المـاء؛ فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمَار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنمـا بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليـك كتابا لا يغسله المـاء تقرؤه نائمـا و يقظانَ " الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قـد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لمـا أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »[1] لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستـنيرًا لإنجاز هـذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هـذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك بمكة . وقيل : إن « ذلك » إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل . و « الٓمٓ » اسم للقـرآن؛ والتقدير هـذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التـوراة والإنجيل؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته و يستغرق ما فيهما و يزيد عليهما ماليس فيهما . وقيل : إن « ذلك الكتاب » إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما؛ والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أومثل ذَيْنِك الكتابين؛ أى هذا القرآن جامع لمـا فى ذَيْنِك الكتابين؛ فعبّر بـ « ذلك » عن الاثنين بشاهد من القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ »[2] أى عوان بين تَيْنك : الفارض والبكر؛ وسيأتى . وقيل : إن « ذلك » إشارة إلى اللّوح المحفوظ . وقال الكسائى : « ذلك » إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرّد : المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحدّيتُكم بالنظم منها .

والكتاب مصـدر من كَتَب يَكْتُب إذا جمع؛ ومنه قيـل : كَتِيبة؛ لاجتماعها . وتكتّبت الخيل صارت كتائب . وكَتَبْتُ البغلةَ : إذا جمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمها بحلْقة أو سَيْر؛ قال :

لا تأمنَنّ فزاريًّا حلَلْتَ به ✱ على قَلُوصك واكْتُبْها بأسيار

(١) سورة المزمل آية ٥ . (٢) آية ٦٨ راجع ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

والكُتْبة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَب . والكَتْب : الخرز . قال ذو الرُّمة :

وَفْرَاءَ غَرْفِيّةٍ أَثْأَى خَوارِزُها ✱ مُشَلْشِلٌ ضَيّعَتْه بينها الكُتَبُ (١)

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أو متفرقة؛ وسُمّى كتابا وإن كان مكتوبا؛ كما قال الشاعر :

تُؤَمِّلُ رجعــةً منّى وفيهـا ✱ كتابٌ مثلَ ما لصِق الغِرَاء

والكتاب : الفَرْض والحُكم والقدَر؛ قال الجَعْدِىّ :

يا بنةَ عمّى كتابُ الله أخرجنى ✱ عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفى عام؛ ولذلك نُصب الريب به . وفى الرّيْب ثلاثة معان :

أحدها — الشك؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمَةُ ريْبٌ ✱ إنمـا الرَّيبُ مايقول الجهول

وثانيها — التُّهَمَة؛ قال جَميل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِى ✱ فقلت كلانا يا بثين مُرِيب

وثالثها — الحاجة؛ قال (٢) :

قضينا من تِهَامةَ كلَّ ريْبٍ ✱ وخَيْـبرَ ثم أَجْمَعْنا السـيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيــه ولا ارتياب؛ والمعنى : أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته ، غير مخلوق ولا مُحْدَث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى؛ أى لا ترتابوا، وتم الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقا . وتقول : رابنِى هذا الأمرُ إذا أدخل عليــك شكًّا وخوفًا . وأراب : صار ذا رِيبة؛ فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل :

(١) قوله : «وفراء» أى واسعة و«غرفية» : مدبوغة بالغرف؛ وهو نبت تدبغ به الجلود . والثَّأْى والثَّأَى (بسكون الهمزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطره وسيلانه لتتابعه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿فِيهِ﴾ الهاء فى «فيه» فى موضع خفض بنى، وفيه خمسة أوجه؛ أجودها : فِيهِ هُـدًى . و يليه فيهُ هُدًى (بضم الهاء بغير واو)[1] وهى قراءة الزُّهْرِى وسَـلَّام أبى المنذر. و يليه فِيهِى هُدًى (بإثبات الياء) وهى قراءة ابن كثير. و يجوز فيهُو هُدًى (بالواو). و يجوز فيه هدى (مدغما) وارتفع «هدى» على الابتداء والخبر «فيه». والهُدَى فى كلام العرب معناه الرّشد والبيان؛ أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادةُ بيان وهُدًى .

الثانيــة — الهُدَى هُديان : هُـدَى دلالة ، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم ؛ قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »[2] . وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[3] فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرّد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييـد والتوفيـق ، فقال لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ »[4] فالهدى على هـذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب؛ ومنه قوله تعالى : «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» وقوله : « وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . والهُدَى : الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت . قال أبو المعالى : وقد ترد الهـداية والمراد بهـا إرشاد المؤمنـين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها ؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ»[5] ومنه قوله تعالى : فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ »[6] معناه فاسلكوهم إليها .

الثالثــة — الهدى لفظ مؤنّث . قال الفرّاء : بعض بنى أسـد تؤنّث الهدى فتقول : هذه هُدًى حسـنة . وقال اللّحيانى : هو مذكّر؛ ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرّك ، و يتعدّى بحرف و بغير حرف وقد مضى فى «الفاتحة»[7] ، تقول : هَدَيْتُه الطريق و إلى الطريق ، والدارَ و إلى الدار؛ أى عرّفته . الأولى لغة أهل الحجاز، والثانية حكاها الأخفش . وفى التنزيل : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »[7] و «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا »[8] . وقيل : إن الهُدَى اسم من أسماء النهار؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

(١) أى بعد الهاء من «فيه» . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٦٠
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٩ (٥) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٠ (٦) راجع جـ ١٥ ص ٧٣
(٧) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء . (٨) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨

[حتى ٱستبنْتُ الهُدَى والبِيـدُ هاجمةٌ * يَخشعْنَ فى الآل غُلْفًا أو يُصَلِّينا] (١)

الرابعــة ــ قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خصّ الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم ؛ لأنهـم آمنوا وصدّقوا بما فيـه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : «هُدًى للمتقين» أى كرامة لهم ؛ يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامةً لهم و بيانًا لفضلهم . وأصل «للمتقين» : للموتقيين بياءين مخففتين ، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لٱلتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى ٱجتماع الواو والتاء وأدغمت التـاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامســة ــ التقوى يقال أصلها فى اللغـة قلّة الكلام ؛ حكاه ٱبن فارس . قلت : ومنه الحديث : "التّقِىُّ مُلْجَم والمتّقِى فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من ٱتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك و بينه ؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصِيفُ (٢) ولم ترد إسقاطه * فتناولتــه وٱتّقتــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعًا دونه الشمس وٱتّقت * بأحسن موصــولين كَفٍّ ومِعصَمِ

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرِّ بن حُبيش عن ٱبن مسـعود قال قال يوما لٱبن أخيـه : يآبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قال : نعـم ؛ قال : لا خير فيهـم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يآبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهـم إلا عالم أو متعـلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتّقى من إذا قال قال لله ، ومن إذا عمل عمل لِله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيـل : المتقى الذى ٱتقى الشرك و برئ من النفاق . قال ٱبن عطية : وهذا فاسد ؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى ؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول ؛ والزيادة من اللسان مادة (هدى) والبحر المحيط فى هذا الموضوع .
(٢) النصيف : ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس و بينها فحجز أبصارهم عنها .

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمَّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هـذا المعنى ابن المُعْتَزّ فنظمه :

خَلِّ الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى

وٱصنع كماشٍ فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرة * إن الجبال من الحصى

السادسة — التقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشِّعر وأنت ما حُفظ عنك شىء ؛ فقال :

يريد المرء أن يُؤْتَى مُنَاه * ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما ٱستفادا

وروى ٱبن ماجه فى سننه عن أبى أُمامة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنه كان يقول : "ما ٱستفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سَرّته وإن أقسم عليها أبَرّته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وما له".

والأصل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلَى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أى منعته ؛ ورجلٌ تقىّ أى خائف ، أصله وقى ؛ وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة ؛ كما قالوا : تُجاه وتُراث، والأصل وُجاه ووُراث .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣)

فيها ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض نعت «للمتقين»، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون . والإيمان فى اللغة : التصديق ؛ وفى التنزيل : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا »[(١)] أى بمصدق ؛ ويتعدّى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ »[(٢)] « فَمَا آمَنَ لِمُوسَى »[(٣)] . وروى حجاج بن حجاج

(١) سورة يوسف آية ١٧ (٢) سورة آل عمران آية ٧٣ (٣) سورة يونس آية ٨٣

الأحول — ويلقب بزِقّ العَسَل — قال سمعت قتادة يقول : يابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشـاط فإن نفسك مائلة إلى السّآمة والفَتْرَة والملّة ؛ ولكنّ المؤمن هو المتحامل[(١)] ، والمؤمن هو المُتقوِّى ، والمؤمن هو المتشدّد ، وإن المؤمنين هم العجّاجون[(٢)] إلى الله الليل والنهـار ؛ واللهِ ما يزال المؤمن يقول : ربّنا ربّنا فى السرّ والعلانيـة حتى آستجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيــة — قوله تعـالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منـه : غابت الشمس تَغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مُغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأَجَمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثــة — وآختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعّفه آبن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيـه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسـول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال آبن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السـلام حين قال للنبىّ صـلّى الله عليه وسـلّم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره" . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : «الَذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ »[(٣)] وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ »[(٤)] . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مَرْئِى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والآستدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء .	(٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .
(٣) سورة الأعراف آية ٧ .	(٤) سورة الأنبياء آية ٤٩ .

فهم يؤمنون أن لهم ربًّا قادرا يجازى على الأعمال، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس، لعلمهم بٱطلاعه عليهم، وعلى هـذا تتفق الآى ولا تتعارض؛ والحمد لله.
وقيل: «بالغيب» أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين؛ وهذا قول حسن. وقال الشاعر:

وبالغيب آمنّا وقـد كان قومُنا * يصلّون للأوثان قبل محمّد

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ معطوف جملة على جملة. وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها، على ما يأتى بيانه. يقال: قام الشىء أى دام وثبت؛ وليس من القيام على الرِّجْل؛ وإنما هو من قولك: قام الحق أى ظهـر وثبت؛ قال الشاعر:

* وقامت الحرب بنا على ساق *

وقال آخر:

وإذا يقال أتيتمُ لم يبرحـوا * حتى تُقيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيل: «يقيمون» يديمون، وأقامه أى أدامه؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيع.

الخامسـة — إقامة الصلاة معروفة؛ وهى سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تاركها. وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وٱبن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة؛ وبه قال أهل الظاهر، وروى عن مالك، وٱختاره ٱبن العربى قال: لأن فى حديث الأعرابى "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والٱستقبال والوضوء.

قال: فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض. قال ٱبن عبد البر قوله صلى الله عليه وسـلم: "وتحريمها التكبير" دليل على أنه لم يَدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم، فما كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للاجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك. وقال بعض علمائنا: مَن تركها عمدا أعاد الصلاة، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لٱستوى سهوها وعمدها، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن، والله أعلم.

السادســة — وآختلف العلماء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع و إن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصَلُّوا وما فاتكم فأتِمُّوا". رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا ثُوب بالصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدكم ولكن ليَمْشِ وعليه السَّكينة والوقار صَـلِّ ما أدركت وٱقض ما سبقك". وهذا نص . ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع آنبهر[1] فشوّش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم آبن عمر وآبن مسعود على آختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرّك الفرس ؛ وتأوّله بعضهم على الفرق بين الماشى والراكب ؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينبهر كما ينبهر الماشى .

قلت : وآستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل حال أولى ، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ؛ لأنه فى صلاة ومحال أن يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك الماشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه . ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرّجه الدّارمى فى مسنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَةَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تُشَبِّكَنّ بين أصابعك فإنك فى صلاة" . فمنع صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعله كالمصلّى ؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعالى : «فَٱسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللَّهِ»[2] وأنه ليس المراد به الآشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك . وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

---

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس من الإعياء .	(٢) سورة الجمعة آية ٩

السابعـة — وآختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام: "وما فاتكم فأتموا" وقوله : "وآقض ما سبقك" هل هما بمعنًى واحد أو لا ؟ فقيل : همـا بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق و يراد به التمام ؛ قال الله تعـالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ »[1] وقال : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »[2] . وقيل : معناهما مختلف وهو الصحيح ؛ و يترتب على هذا الخلاف خلاف فيما يدركه الداخل هل هو أول صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأول جماعة من أصحاب مالك — منهم آبن القاسم — ولكنه يقضى ما فاته بالحمـد وسورة ، فيكون بانيـا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال . قال آبن عبد البر : وهو المشهور من المذهب . وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد : وهو الذى عليه أصحابنا ، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود آبن على . وروى أشهب وهو الذى ذكره آبن عبد الحكم عن مالك ، ورواه عيسى عن آبن القاسم عن مالك ، أن ما أدرك فهو آخر صلاته ، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال ؛ وهو قول الكوفيين . قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : وهو مشهور مذهب مالك . قال آبن عبد البر: من جعل ما أدرك أوّل صلاته فأظنهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكون إلا فى أوّل الصلاة ، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها ؛ فمن هاهنا قالوا : إن ما أدرك فهو أوّل صلاته ، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله : "فأتموا" والتمام هو الآخر .

وآحتج الآخرون بقوله : "فآقضوا" والذى يقضيه هو الفائت ، إلا أن رواية من روى « فأتموا » أكثر، وليس يستقيم على قول من قال: إن ما أدرك أوّل صلاته و يطرد، إلا ما قاله عبـد العزيز بن أبى سَلَمة الماجِشُون والمزنى و إسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه ؛ و إذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها ؛ فهؤلاء آطرد على أصلهم قولهم وفعلهم ؛ رضى الله عنهم .

الثامنـة — الإقامة تمنع من آبتداء صلاة نافلة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرّجه مسلم وغيره ؛ فأما إذا شرع فى نافلة

---

(١) سورة الجمعة آية ١٠ . (٢) سورة البقرة آية ٢٠٠

فلا يقطعها ؛ لقوله تعـالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (١) » وخاصة إذا صـلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاسـعة — وآختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة ؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصلَّى فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد ؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه ؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولأَنْ يصـلّيهما إذا طلعت الشمس أحبّ إلىّ وأفضل من تركهما وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه ، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد ، ثم يدخل مع الإمام . وكذلك قال الأوزاعى ؛ إلا أنه يجوّز ركوعهما فى المسجد مالم يخف فوت الركعة الأخيرة . وقال الثورى : إن خشى فوت ركعـة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حَىّ ويقال آبن حَيّان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوّع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصـلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد . وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمـد بن حنبل وحكى عن مالك ؛ وهو الصحيح فى ذلك ؛ لقوله عليـه السلام : "إذا أقيمت الصلاة فلا صـلاة إلا المكتوبة" . وركعتا الفجر إمّا سـنة ، وإمّا فضيلة ، وإمّا رَغيبة ؛ والحجة عند التنازع حجة السُّنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن آبن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حُجرة حفصة ، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجـة الثَّورى والأوزاعى ما روى عن عبـد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقـد أقيمت الصلاة فصلى إلى أُسْطُوانة (٢) فى المسجد ركعتى الفجر ، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

---

(١) سورة محمد آية ٣٣		(٢) الأسطوانة : العامود .

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد ، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ابن بُحَينة[١] قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم ، فقال : "أتصلى الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ، و يمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صحّت ؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك ، والله أعلم .

العاشرة — الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء ، مأخوذة من صَلّى يصلّى إذا دعا ؛ ومنه قوله عليه السلام : "إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم و إن كان صائما فليُصَلّ" أى فليدْعُ . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصلى ركعتين و ينصرف ؛ والأوّل أشهر وعليه من العلماء الأكثر . ولما وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلّى عليه ، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »[٢] أى ادع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقد قَرُبتُ مرتحلًا * يا ربِّ جنِّب أبى الأوْصاب والوجَعَا
عليكِ مثلَ الذى صلّيتِ فاغْتمِضى * نوماً فإن لجَنْبِ المرء مُضطجَعَا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرّيحُ فى دَنِّها * وصلَّى على دَنِّها وارْتَسَمْ

ارتسم الرجل : كبّر ودعا ؛ قاله فى الصحاح . وقال قوم : هى مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق فى وسط الظهر و يفترق عند العَجْب فيكتنفه ؛ ومنه أُخِذ المُصَلِّى فى سبق الخيل ؛ لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلْوَى السابق ؛ فاشتقت الصلاة منه ، إمّا لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصَلِّى من الخيل ، و إما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه . والصَّلا : مَغْرِز الذَّنَب من الفرس ،

---

(١) « بحينة » : أمه ، وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .
(٢) سورة التوبة آية ١٠٣

والأثنان صلوان . والمُصَلِّى : تالى السابق ؛ لأن رأسه عند صَلاه . وقال علىّ رضى الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثَلَّث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم ؛ ومنه صَلِىَ بالنار إذا لزمها ؛ ومنه « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً »[(1)] . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُنَاتِها علم اللّـ * ـه وإنّى بحرّها اليومَ صالِ

أى ملازم لحرّها ؛ وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَّيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصّلاء . والصِّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممدود؛ فإن فتحت الصاد قَصَرْت ، فقلت صَلا النار، فكأنّ المصلى يقوّم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع ؛ قال الخارزنجى[(2)] :

فلا تعْجل بأمرك وٱستدمْهُ * فما صَلَّى عصاكَ[(3)] كمستديمِ

والصلاة : الدعاء . والصلاة : الرحمة ؛ ومنه : "اللّهمّ صلّ على محمد" الحديث . والصلاة : العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ »[(4)] الآية ؛ أى عبادتهم . والصلاة : النافلة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ »[(5)] . والصلاة التسبيح ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ »[(6)] أى من المصلين . ومنه سُبْحة الضحى . وقد قيل فى تأويل « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ »[(7)] : نصلّى . والصلاة : القراءة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ »[(8)] فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلّى فيه ؛ قاله ٱبن فارس . وقد قيل : إن الصلاة ٱسم عَلَم وضع لهذه العبادة ؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زمانا من شرع ، ولم يُخلّ شرع من صلاة ؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا ٱشتقاق لها ؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — ٱختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الأبتدائى ، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج ، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام ، أوهل

---

(١) سورة الغاشية آية ٤ .
(٢) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان والتاج مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » .
(٣) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان : « عصاه » .
(٤) سورة الأنفال آية ٣٥ .
(٥) سورة طه آية ١٣٢ .
(٦) سورة الصافات آية ١٤٣ .
(٧) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٨) سورة الإسراء آية ١١٠ .

تلك الزيادة من الشرع تصييرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع . هنا آختلافهم والأول أصح؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية ، والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين ؛ ولكن للعرب تحكّم فى الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدبّ، ثم خصصها العرف بالبهائم؛ فكذلك لعرف الشرع تحكّم فى الأسماء ، والله أعلم .

الثانية عشرة — وآختلف فى المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معًا ؛ وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام والمتقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية؛ على ما يأتى بيانه فى « طه »[1] إن شاء الله تعالى . وشفاء من وجع البطن وغيره؛ روى آبن ماجه عن أبى هريرة قال: هجّر[2] النبىّ صلى الله عليه وسلم فهجّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فآلتفت إلىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أشكمت دَرْدَه " قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : " قم فصلّ فإن فى الصلاة شفاء " . فى رواية : " أشكمت درد " يعنى تشتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه[3] أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض؛ فمن شروطها: الطهارة، وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء[4] والمائدة[5]. وستر العورة، يأتى فى الأعراف[6] القول فيها إن شاء الله تعالى.

وأما فروضها : فاستقبال القبلة، والنية، وتكبيرة الإحرام والقيام لهـا، وقراءة أم القرآن والقيام لهـا ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه، ورفع الرأس من السجود، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم الصلاة لمـا أخلّ بها ، فقال له : " إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم آستقبل القبلة ثم كبر ثم آقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم آركع حتى تطمئن راكعا ثم آرفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ (٢) التهجير : التبكير إلى كل شىء، والمبادرة إليه .
(٣) حزبه الأمر : نابه وآشتد عليه ؛ وقيل : ضغطه . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ فما بعد .

حتى تعتــدل قائما ثم ٱسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ٱرفع حتى تطمئن جالسا ثم ٱفعــل ذلك في صلاتك كلهــا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدّارَقُطْنِيّ وغيره . قال علماؤنا : فبيّن قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القراءة وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح في الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى، وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام. أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما [1] . وأما رفع اليــدين فليس بواجب عند جماعة العلمــاء وعامة الفقهاء ؛ لحديث أبي هريرة وحديث رفاعة بن رافع . وقال داود و بعض أصحابه بوجوب ذلك عنــد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنــد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، و إنّ من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ؛ وهو قول الحميدي، ورواية عن الأوزاعي . وٱحتجوا بقوله عليه السلام : "صلُّوا كما رأيتموني أصلّي" أخرجه البخاري . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ؛ لأنه المبلِّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور . وكان ٱبن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبــل السلام ، و إن لم يسجد بطلت صلاته ؛ و إن نسي تكبيرة واحدة أو ٱثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شيء عليــه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيهــا . وهــذا يدل على أن عُظْم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنــه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبّر في الصلاة من أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شيء عليــه ؛ ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامدا ؛ لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح ، وهو الذي عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهــل الحديث والمــالكيين غيرَ من ذهب مذهب ٱبن القاسم . وقد ترجم البخاري

(١) راجع ص ١١٧ ، ١٦٤ من هذا الجزء .

رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال : صلّيت خلف علىّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، و إذا رفع رأسه كبّر، و إذا نهض من الركعتين كبّر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمرانُ بن حصين فقال : لقد ذكرنى هـذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو قال : لقـد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم . وحديثَ عكرمة قال : رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع، و إذا قام و إذا وضع، فأخبرت آبن عباس فقال : أو ليس تلك صلاة النبى صلى الله عليه وسلم لا أمَّ لك[1] ! فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم . روى أبو إسحاق السَّبِيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : صلّى بنا علىّ يوم الجَمَل صلاة أذكرنا بهـا صلاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع، وقيـام وقعود؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها و إما تركناها عمدا .

قلت : أتراهم أعادوا الصلاة ! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته ! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشىء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ و بالله التوفيق .

الخـامسة عشرة — وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبـه إسحاق بن رَاهْوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليـه السلام : " أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فآجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم ".

السادسة عشرة — وأما الجلوس والتشهد فآختلف العلماء فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأوّل والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلمـاء الجلوس الأوّل وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا[2] من المُزَابنة[3]، والقِراض[4] من الإجارات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا. وآحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

---

(١) قوله : لا أم لك . فى نهاية آبن الأثير : « هو ذم وسب . أى أنت لقيط لا تُعْرَف لك أم . وقيـل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُعْد » . (٢) العرايا : نخل كانت توهب ثمارها للساكين فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بمـا شاءوا من التمـر . (٣) المزابنة : بيـع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا، و بيع الزبيب بالكرم . (٤) القراض (بالكسر) : إجارة على التجر فى مال بجزء من ربحه .

العامد لتركه تبطل صـلاته كما لا تبطل بترك سنن الصـلاة . آحتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصـلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به، كما لو ترك سجدة أو ركعة؛ ويراعى فيه مايراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة؛ ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله بن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائمـا فقاموا؛ فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم؛ فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو؛ لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤتم .

وآختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الغرض من ذلك . وهى : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض والتشهد فرض والسـلام فرض . وممن قال ذلك الشافعى وأحمد بن حنبل فى رواية، وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة، وبه قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأوّل والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . وآحتجوا بأن بيان النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فرض؛ لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "صلوا كما رأيتمونى أصلى" .

القول الثانى : أنّ الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة؛ هذا قول بعض البصريين، وإليه ذهب إبراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى، فخالف الجمهور وشذّ؛ إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئا من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته" وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر؛ وقد بيناه فى كتاب المقتبس[1] . وهذا اللفظ إنمـا يُسقط السلام لا الجلوس .

(١) فى بعض الأصول : « المقتين » .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض ، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . وآحتجوا بحديث آبن المبارك عن الإفريقى عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته " . قال آبن العربى : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا فى الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطَة * أين الضُّراطُ من السلامِ عليكمُ

قال آبن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك عن عبد الملك أن من سلّم من ركعتين متلاعبا ، فخرج البيان أنه إن كان على أربع أنه يجزئه ، وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفَه ، وهذا مما لا ينبغى أن يلتفت إليه فى الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس فرض والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية . وآحتجوا بأن قالوا : ليس شىء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان ، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهْوَيْه ، وآحتج إسحاق بحديث آبن مسعود حين علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدَّارَقُطْنِيّ : قوله " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير فى الحديث ، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام آبن مسعود ، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَبَابَة ثقة . وقد تابعه غسّان بن الربيع على ذلك ، جعل آخر الحديث من كلام آبن مسعود ولم يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — وآختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب، وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشــة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصــل فى إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها بآتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو آفتتح رجل صلاته بسبعين آسما من آسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، و إن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهــدى لحديث علىّ ، وهو إمام فى علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحَسْبُك به !

وقد آختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الآفتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال آبن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقــد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هــذا القول؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنهـا فرض وركن من أركان الصلاة؛ وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة .

الموفية عشرين — وآختلف العلماء فى اللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منــه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هــذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر» لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ «الله الأكبر» و «الله الكبير» . والحجة لمــالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ « الحمد لله رب العالمين » . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبّر . وفى سنن آبن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعلىّ بن محمد الطنافسى قالا : حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدّثنا محمــد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى

يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة آستقبل القبلة ورفع يديه وقال : «الله أكبر» وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنـودا

ثم إنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ فى المعنى، والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن آفتتح بلا إله إلا الله يجزيه، وإن قال : اللهم آغفر لى لم يجزه، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال آبن المنـذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلّل وكبّر ولم يقرأ أن صلاته فاسـدة، فمن كان هـذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسـية وإن كان يحسن العربية . قال آبن المنـذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين، وخلاف ما علّم النبيّ صلى الله عليه وسلم أمته، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال . والله أعلم .

الحادية والعشرون — وآتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة؛ وحقيقتها قصد التقرّب إلى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال آبن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهـا، أو قبل ذلك بشرط آستصحابها، فإن تقدّمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها . كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل، وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى آقترانها بأوله . قال آبن العربىّ : وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثَغْر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العالم والنبوات حتى ينتهى نظره إلى نية الصلاة، قال : ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة، لأن

(١) أوحى : أسرع .

تعليم الجمل يفتقر إلى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة ، ومن تمـام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها ، إلا أن ذلك لمـا كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائهـا . سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون : رأيت أبى سحنونا ربمـا يكمل الصـلاة فيعيدها ؛ فقلت له ما هـذا ؟ فقـال : عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها .

قلت : فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائرأحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعـالى؛ فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف، فى «النساء»[1] والأوقات فى «هود[2] وسبحان[3] والروم[4]» وصلاة الليل فى «المزمل[5]» وسجود التلاوة فى «الأعراف[6]» وسجود الشكر فى «ص[7]» كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثانيـة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ رزقناهم : أعطيناهم ، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما ، خلافا للمعتزلة فى قولهم : إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنمـا يرزق الحلال ، والرزق لا يكون إلا بمعنى المِلك .

قالوا : فلو نشأ صـبى مع اللصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصّص ويأكل ما تلصّصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا .

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السِّخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال .

ولمـا اجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ فما بعد . (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٩ فما بعد . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٤ ص ١٤ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٩ ص ٥١ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعد . (٧) راجع جـ ١٥ ص ١٨٣ .

وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ»(١) وقال : «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ»(٢) وقال : «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا»(٣) وهذا قاطع ؛ فالله تعالى رازق حقيقة وآبن آدم رازق تجوّزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة(٤)، مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خرّج بعض النبلاء من قوله تعالى : «كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ»(٥) فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ الرزق مصدر رزق يرزق رَزقا ورِزقا، فالرَّزق بالفتح المصدر، وبالكسر الأسم، وجمعه أرزاق؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتّان [بيض(٦)] . وآرتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة؛ هكذا قال أهل اللغة . وقال آبن السكيت : الرزق بلغة أَزْدِشَنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»(٧) أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المال من اليد؛ ومنه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشترى . ونَفَقت الدابّةُ : خرجت روحها؛ ومنه النافقاء لجُحْر اليربوع الذى يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق؛ لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه . ونَيْفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم؛ ومنه قوله تعالى : «إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ»(٨) .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ (٣) راجع جـ ٩ ص ٦ فما بعد . (٤) راجع ص ١٤٠ فما بعدها من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٤ (٦) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) . (٧) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٨ فما بعد . (٨) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥

الخامسة والعشرون — وٱختلف العلماء في المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة — روى عن ٱبن عباس — لمقارنتها الصــلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن ٱبن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله ودينار أنفقته في رَقَبة ودينار تَصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذي أنفقتــه على أهلك" . وروى عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه في سبيل الله" قال أبو قِلابة(١): وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة: وأيُّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صــدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة ٱحتملت الفرض والتطوّع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوّع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بهــا إلى الله جلّ وعزّ على قدر جِدَتهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات في «براءة»(٢) . وقيــل : إنه الحقوق الواجبة العارضــة في الأموال ما عدا الزكاة؛ لأن الله تعالى لمــا قرنه بالصــلاة كان فرضا، ولمــا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح في الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أي يؤتون ما ألزمهــم الشرع من زكاة وغيرها ممــا يعنّ في بعض الأحوال مع ما ندبهم إليــه . وقيــل : الإيمان بالغيب حظ القلب . وإقام الصــلاة حظ البــدن. ومما رزقناهم ينفقون حظ المــال، وهذا ظاهر. وقال بعض المتقدّمين في تأويل قوله تعالى: «ومِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» أي مما علّمناهم يعلّمون؛ حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشــيري .

---

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث . (٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . جـ ٨ ص ٢٤٤ فقد قال ٱبن العربي إنها ناسخة لآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» الآية ٱنظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأوّل من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بها عن عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سَلَام وفيه نزلت، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب. وقيل: الآيتان جميعا فى المؤمنين، وعليه فإعراب «الذين» خفضٌ على العطف، ويصح أن يكون رفعًا على الاستئناف أى وهم الذين . ومن جعلها فى صنفين فإعراب «الذين» رفع بالابتداء، وخبره «أولئك على هُدًى» ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى: ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ يعنى الكتب السالفة؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » الآية.[1] ويقال: لما نزلت هذه الآية: «ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » قالت اليهود والنصارى : نحن آمنّا بالغيب ، فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » قالوا : نحن نقيم الصلاة ، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ، فلما قال : « وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » نفروا من ذلك . وفى حديث أبى ذرّ قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شِيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ[2] ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان " . الحديث أخرجه الحسين الآجُرّى وأبو حاتم البُستِىّ .

وهنا مسئلة — إن قال قائل: كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله؛ وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثانى — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ؛ وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أى وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك؛ يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ (بالكسر) يَقَنًا، وأيقنتُ واستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى،

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (٢) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

وأنا على يقين منه . وإنما صارت الياء واوا فى قولك : مُوقِن ، للضمة قبلها ، وإذا صغرته رددته إلى الأصل فقلت مُيَيْقِن . والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع . وربما عبروا باليقين عن الظن ، ومنه قول علمائنا فى اليمين اللّغو : هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شىء عليه ؛ قال الشاعر(١) :

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ وأيْقَنَ أنّنِي * بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول : تشمّم الأسد ناقتى ، يظنّ أننى مُفْتَدٍ بها منه ، وأستحمى نفسى فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته . فأما الظن بمعنى اليقين فورد فى التنزيل وهو فى الشعر كثير ، وسيأتى . والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها ، كما أن الدنيا مشتقة من الدنو ، على ما يأتى .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قال النحاس أهل نجد يقولون : أُلَاكَ ، وبعضهم يقول : أَلَالِكَ ، والكاف للخطاب . قال الكسائى : من قال أولئك فواحده ذلك ، ومن قال أُلَاكَ فواحده ذاك ، وأَلَالِكَ مثل أولئك ، وأنشد ابن السِّكِّيت :

أَلَالِكَ قومى لم يكونوا أُشابةً(٢) * وهل يَعِظُ الضِّلّيلَ إلا أَلَالِكَا

وربما قالوا : أولئك فى غير العقلاء ؛ قال الشاعر :

ذُمّ المنازلَ بعد منزلة اللِّوَى * والعيشَ بعد أولئك الأيامِ

وقال تعالى : « إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا(٣) » وقال علماؤنا : إن فى قوله تعالى : « مِن رَّبِّهِمْ » ردّا على القدرية فى قولهم : يخلقون إيمانهم وهداهم ، تعالى الله عن قولهم ! ولو كان كما قالوا لقال : « من أنفسهم » ، وقد تقدّم الكلام فيه(٤) وفى الهُدى(٥) فلا معنى لإعادة ذلك .

﴿ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ « هم » يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره « المفلحون » ، والثانى وخبره خبر الأوّل ، ويجوز أن تكون « هم » زائدة ـ يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا ـ و « المفلحون » خبر « أولئك » .

---

(١) هو أبو سدرة الأسدى ، ويقال : الهجيمى .
(٢) الأشابة من الناس : الأخلاط . والأشابة فى الكسب : ما خالطه الحرام الذى لا خير فيه والسحت .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٩
(٤) راجع المسئلة الحادية والثلاثين ص ١٤٩ .
(٥) راجع المسئلة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء .

والفَلْح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحديد بالحديد يُفْلَح *

أى يشق ؛ ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقّها للحرث ، قاله أبو عبيد . ولذلك سُمّى الأَكَّارُ (١) فلاحا . ويقال للذى شُقّت شفته السفلى أفلح ، وهو بيّن الفَلَحة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة، ومنه قول الرجل لامرأته : ٱستَفْلِحِى بأمْرِك ، معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حَىٌّ مدرك الفلاح * أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكلّ هَمٍّ من الهموم سَعَهْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لافلاح مَعَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلادا كلّها حلّ قبلنا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحِمْيَرَ

أى البقاء . وقال عبيد :

أفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضَّ * ـعف وقد يُخَدَّعُ الأرِيبُ

أى أبق بما شئت من كَيْس وحُمْق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل. فمعنى «وأُولَٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ» : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال ٱبن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوْا من شر ما منه هربوا، والمعنى واحد. وقد ٱستعمل الفلاَح فى السَّحور؛ ومنه الحديث: حتى كاد يفوتنا الفلاَح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قلت: وما الفلاَح؟ قال: السَّحور. أخرجه أبو داود. فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمّاه فلاحا . والفلاح (بتشديد اللام) : المُكارِى (٢) فى قول القائل :

لها رِطْلٌ تَكِيلُ الزيت فيه * وفَلّاحٌ يسوق لها حِمارَا

ثم الفلاَح فى العُرْف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

---

(١) الذى يحرث الأرض . (٢) هو عمرو بن أحمد الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم وإليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهُم ولا فيهُم ولا جنّتيهُم؟ فالجواب أن عليهم وإليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف ، والأصل علاهم ولداهم وإلاهم فأقرت الهاء على ضمتها ؛ وليس ذلك في فيهم ولا من ربهم ولا جنّتيهم ، ووافقه الكسائي في « عليهم الذلة » و « إليهم اثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)

لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضد الإيمان وهو المراد في الآية . وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ؛ ومنه قوله عليه السلام في النساء في حديث الكسوف : "ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء" قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : "بكفرهن" ؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط" أخرجه البخاري وغيره .

وأصل الكُفْر في كلام العرب : الستر والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* في ليلة كَفَر النُّجومَ غَمامُها *

أي سترها . ومنه سُمّيَ الليل كافرا ؛ لأنه يغطي كل شيء بسواده ؛ قال الشاعر[1] :

فتذكّرا ثقلاً رثيـدًا بعدما * ألقتْ ذُكاءُ يمينَها في كافر

ذكاء (بضم الذال والمدّ) : اسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردَتْ قبل انبلاج الفجرِ * وابنُ ذُكاءٍ كامنٌ في كَفْر

أي في ليل . والكافر أيضا : البحر والنهر العظيم . والكافر : الزارع ؛ والجمع كُفّار ، قال الله تعالى : « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ »[2] . يعني الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب . ورماد

(١) هو ثعلبة بن صعيرة المازني ، يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس . والثقل (بالتحريك) هنا : بيض النعام المصون . والرثيد : المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض . وألقت يمينها في كافر : أي بدأت في المغيب . اللسان مادة (كفر) . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٥

مكفور: سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور. ويقال الكفور : القُرَى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا. وجىء بالآستفهام من أجل التسوية ؛ ومثله قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ »[1] . وقال الشاعر[2] :

وليـلٍ يقول الناسُ من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتّسع زمانه للاحتراز ، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمْرًا وهو فى مَهَـلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَناذَر بنو فلان هذا الأمر إذا خَوَّفه بعضُهم بعضا .

وآختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس مَن هذه حاله دون أن يعيّن أحدا . وقال آبن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود، منهم حُيَيّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأوّل أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنمـا مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ موضعه رفعٌ خبر « إنّ » أى إن الذين كفروا لا يؤمنون . وقيل : خبر « إنّ » « سواء » وما بعده يقوم مقام الصلة ؛ قاله آبن كَيسان . وقال محمد بن يزيد : « سواء » رفع بالآبتداء ، « أأنذرتهم أم لم تنذرهم » الخبر ، والجملة خبر « إنَّ » . قال النحاس : أى إنهم تبالَهُوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . وآختلف القراء فى قراءة « أأنذرتهم » فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

---

(١) راجع ج ١٣ ص ١٢٥ . (٢) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق : « آنذرتهم » بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، وآختارها الخليل وسيبويه ، وهى لغة قريش وسعد بن بكر ، وعليها قول الشاعر[1] :

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلَاجِلٍ * وبَيْنَ النَّقا آنْت أَمْ أُمُّ سالِمِ

هجاء « آنت » ألِفٌ واحدة . وقال آخر :

تطـالَلْتُ فاستَشْرَفْتُهُ فعرفتُهُ * فقلت له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

وروى عن آبن مُحَيْصِن أنه قرأ : « أَنْذَرْتَهم أَمْ لم تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها ، فحذف لالتقاء الهمزتين ، أو لأن أم تدل على الاستفهام ؛ كما قال الشاعر :

تَرُوح مِن الحَيّ أم تبتكِرْ * وماذا يَضـيرُك لو تنتظِـرْ

أراد : أتروح ؛ فاكتفى بأمْ من الألف . وروى عن آبن أبي إسحاق أنه قرأ : « أا أنذرتهم » فحقّق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما . قال أبو حاتم : ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفَّف الثانية ؛ وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا . وقرأ حمزة وعاصم والكسائى بتحقيق الهمزتين : « أأنذرتهم » وهو آختيار أبي عبيد ؛ وذلك بعيد عند الخليل . وقال سيبويه : يشبه فى الثقل ضَنِنُوا . قال الأخفش : ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء ؛ لأنهم إنمـا يخفّفون بعد الاستثقال ، و بعد حصول الواحدة . قال أبو حاتم : ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا . فهـذه سبعة أوجه من القراءات ، ووجه ثامن يجوز فى غير القرآن ؛ لأنه مخالف للسّواد[2] . قال الأخفش سعيد : تبدل من الهمزة هاء تقول : هأنذرتهـم ؛ كما يقال هيّاك و إياك ؛ وقال الأخفش فى قوله تعالى : « هَا أَنْتُمْ » إنمـا هو أأنتم .

قوله تعـالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧)

فيها عشر مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللهُ﴾ بيّن سبحانه فى هذه الآية المـانع لهم من الإيمـان بقوله : «ختم الله» . والختم مصدر ختمت الشىء ختما فهو مختوم ومختّم ؛ شدّد للمبالغة . ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما فى كتاب سيبويه ، والمفصل للزمخشرى . (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم .

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء؛ ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعانى : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة والانصراف والحَمِيّة والإنكار . فقال فى الإنكار : « قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ »(١) . وقال فى الحَمِيّة : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ »(٢) . وقال فى الانصراف : « ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »(٣) . وقال فى القساوة : « فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ »(٤) . وقال : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ »(٥) . وقال فى الموت : « أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ »(٦) . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ »(٧) . وقال فى الرَّيْن : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »(٨) . وقال فى المرض : « فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » . وقال فى الضيق : « وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا »(٩) . وقال فى الطبع : « فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ »(١٠) . وقال : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ »(١١) . وقال فى الختم : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانيـة — الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنًى كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوعى عن الحق — سبحانه — مفهوم مخاطباته والفكر فى آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دُعُـوا إلى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثـة — فى هذه الآية أدلّ دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمـان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمـانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جَهَدوا ؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٠
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٥) راجع جـ ١ ص ٤٦٢ (٦) راجع جـ ٧ ص ٧٨
(٧) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ (٩) راجع جـ ٧ ص ٨١
(١٠) راجع جـ ١٨ ص ١٢٤ (١١) راجع جـ ٦ ص ٧

وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فمتى يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « ومن يضلِلِ الله فما له مِن هادٍ »[١] ! وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ؛ ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم . هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها وأنهم فى ضلال لا يؤمنون ؛ ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم ؛ وإنما هو معنًى يخلقه الله فى القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ »[٢] . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ »[٢] . أى لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعــة — قوله : ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر . وهو فى الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلِبه قلبا إذا رددته على بداءته . وقلبت الإناء : رددته على وجهه . ثم نقل هذا اللفظ فسمى به هذا العضو الذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سُمِّىَ القلب إلّا مِنْ تقلُّبِــه * فاحذرْ على القلب من قَلْبٍ وتحويل

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٥٠ (٢) راجع ج ١٠ ص ٧ و ٢٧١ .

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقًا بينه و بين أصله . روى ابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَثَلُ القلب مَثَل ريشة تقلّبها الرياح بفلاة" . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللّهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك" . فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقوله مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك اقتداء به ؛ قال الله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ »(١) . وسيأتى .

الخامسة — الجوارح و إن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — و إن كان رئيسها وملِكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدُقُ فتُنْكت فى قلبه نكتة بيضاء و إن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه" . وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه" . قال : وهو الرَّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ(٢) عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع ، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا ، وقولِه عليه السلام : "إن فى الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب — " دليل على أن الختم يكون حقيقيا ؛ والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة ، وهو يَعْضُد قول مجاهد ؛ والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدّثنا "أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلِموا من القرآن وعلِموا من السُّنة" . ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النَّومةَ فتُقْبَض الأمانةُ من قلبه فيظَل أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْلِ كجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبِح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٠ (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٥٧ .

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجْلَدَه ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت لئن كان مسلما ليردّنه علىّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه علىّ ساعيه[1] وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله: "الوَكْت" وهو الأثر اليسير. ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب: قد وكّت، فهو مُوَكِّت. وقوله: "المَجْل"، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء، وقد فسّره النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله: "كجمرٍ دحرجته" أى دوّرته على رجلك فنفط. "فتراه مُنْتَبِرًا" أى مرتفعا ـ ما يدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه؛ وكذلك الختم والطبع؛ والله أعلم.

وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىُّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكْتةٌ سوداء وأىّ قلب أَنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضره فتنةٌ مادامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبَادًّا[2] كالكُوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنْكِر منكرا إلّا ما أُشْرِب من هواه ..." وذكر الحديث. "مُجَخِّيًا": يعنى مائلا.

السادســـة ـ القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»[3]. وقال: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ»[4] يعنى فى الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل؛ قال الله تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ»[5] أى عقل؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين. والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد؛ والله أعلم.

السابعـــة ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ آستدل بها مَن فضّـل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ»[6]. وقال: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ»[7]. قال: والسمع يُدرَك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة؛ ولا يُدرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع. وقال أكثر المتكلمين

---

(١) ساعيه: هو رئيسهم الذى يصدرون عن رأيه ولا يمضون أمرا دونه. (النهاية). (٢) ويروى: «مربد» أى اختلط سواده بكدرة.
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨ (٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٠٤
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٣ (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ (٧) راجع جـ ١٠ ص ١٥١

بتفضيل البصر على السمع؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضـل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنـــة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير؛ يقال : سمعت الشيء أسمعه سَمْعًا وسماعا، فالسّمع مصدر سمعت؛ والسمع أيضا ٱسم للجارحة المسموع بهـا سُمِّيت بالمصدر . وقيل : إنه لمـا أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة؛ كما قال الشاعر[(١)] :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها * فبيـــضٌ وأما جلدها فصَليبُ

إنما يريد جلودها فوحّد؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر[(٢)] فى مثله :

لا تُنكِرِ القتلَ وقـد سُبِينَا * فى حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد فى حلوقكم؛ ومثله قول الآخر :

كأنّه وجهُ تُرْكِـيَّيْن قد غضبا * مستهدف لطعـان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين، فقال وجه تركيين؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : « وعلى أسماعهم » ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ؛ يقال : سَمْعُك حديثى — أى ٱستماعك إلى حديثى — يعجبنى؛ ومنه قول ذى الرُّمة يصف ثورا تَسمّع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد توَجَّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ * بِنَبْأَةِ الصوتِ ما فى سَمعه كَذِبُ

---

(١) هو علقمة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهى المعيبة من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أى أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت و بدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أى محرم يابس لأنه ملق بالفلاة لم يدبغ ، و يقال : الصليب هنا الودك ؛ أى قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٢) هو المسيب بن زيد مناة الغنوى ؛ كما فى كتاب سيبويه .

أى ما فى آستماعه كذب؛ أى هو صادق الآستماع. والنَّدُس: الحاذق. والنَّبْأة: الصوت الخفى، وكذلك الركز. والسِّمع (بكسر السين و إسكان الميم): ذِكر الإنسان بالجميل؛ يقال: ذهب سِمْعه فى النــاس أى ذكره. والسِّمْع أيضا: ولد الذئب من الضبع. والوقف هنا: «وعلى سمعهم». و «غِشَاوَةٌ» رفع على الآبتداء وما قبله خبر. والضمائر فى «قلوبهم» وما عُطِف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش، وقيل من المنافقين، وقيل من اليهود، وقيل من الجميع، وهو أصوب؛ لأنه يعم. فالختم على القلوب والأسماع. والغشاوة على الأبصار. والغشاء: الغطاء. وهى:

التاســعة — ومنه غاشية السَّرْج؛ وغشيت الشيء أغشيه. قال النابغة:

هلّا سألت بنى ذُبْيان ما حسبِى * إذا الدُّخَانُ تَغَشَّى الأَشْمطَ(١) البَرَمَا

وقال آخر(٢):

صحبتُــكَ إذ عينى عليهــا غشاوةٌ * فلما آنجلَتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال آبن كَيسان: فإن جمعت غشاوة قلت: غشاء بحذف الهاء. وحكى الفرّاء: غشاوى مثل أداوى. وقرئ: «غشاوةً» بالنصب على معنى وجعل، فيكون من باب قوله:

* علفتُها تبْنًــا وماء باردا *

وقول الآخر(٣):

يا ليت زوجَك قــد غدا * متقــلّدا ســيفًا ورُمْحَــا

المعنى وأسقيتها ماء، وحاملا رمحا؛ لأن الرمح لا يتقلد. قال الفارسى: ولا تكاد تجد هذا الآستعمال فى حال سَعة وآختيار؛ فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة. قال: ولم أسمع من الغشاوة فعلًا متصرفا بالواو. وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار، والوقف على «قلوبهم». وقال آخرون: الختم فى الجميع، والغشاوة هى الختم؛ فالوقف على هذا على «غشاوة». وقرأ الحسن «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَةَ بفتحها؛ وروى عن

(١) الأشمط: الذى خالطه الشيب. والبرم: الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر و يأكل معهم من لحمه.
(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى؛ كما فى اللسان مادة (غشا). (٣) هو عبد الله بن الزبعرى؛ كما فى الكامل للبرد ص ١٨٩ طبع أوربا.

أبى عمرو: غشوة ؛ ردّه إلى أصل المصدر . قال ٱبن كيسان : و يجوز غَشْوة وغُشْوة وأجودها غِشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب فى كل ما كان مشتملا على الشىء، نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة وعِصابة وغير ذلك .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أى للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعتـه . والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد ؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفى التـنزيل : «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ»(١) وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال فى اللغة : أَعْذِبه عن كذا أى ٱحبسه وٱمنعه ؛ ومنـه سمى عذوبة المـاء ؛ لأنها قـد أعذبت . وٱستعذب بالحبس فى الوعاء ليصفو و يفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج ؛ أى ٱحبسوهن . وعنه رضى الله عنه وقد شيّع سَرِيَّةً فقال : أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو ؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته ؛ وفى المثل : « لألجمنّك لجاما معذِبا » أى مانعا عن ركوب الناس . ويقال : أَعْذَبَ أى ٱمتنع . وأَعْذَب غيره ، . فهو لازم ومتعدٍّ ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس و يمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعـالى : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ٱبن جُريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين، وٱثنتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين . وروى أسباط عن السدّى فى قوله : «وَمِنَ النَّاسِ» قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس ٱسم جنس ، وٱسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانيـة — وٱختلف النحاة فى لفظ الناس ؛ فقيل : هو ٱسم من أسماء الجموع ، جمع إنسان و إنسانة ؛ على غير اللفظ ، وتصغيره نُوَيس . فالناس من النَّوْس وهو الحركة ؛ يقال : ناس ينوس أى تحرك ؛ ومنه حديث أم زَرْع : « أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ » . وقيل : أصله من نسى ؛ فأصل

(١) راجع ج ١٢ ص ١٦٦

ناس نسى قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ماقبلها فآنقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال آبن عباس : نسى آدم عهـد الله فسُمِّىَ إنسانا . وقال عليـه السلام : "نسى آدم فنسِيَتْ ذريّتُه". وفى التنزيل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ(١) مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ» وسيأتى . وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنّما * سُمِّيتَ إنسـانًا لأنّـك نـاسِى

وقال آخــر :

فإنْ نَسِيتَ عهودا منك سالفةً * فآغفرْ فأوّلُ ناسٍ أوّلُ الناس

وقيل : سمى إنسانا لِأُنْسه بحواء . وقيل : لِأُنْسه بربه، فالهمزة أصلية؛ قال الشاعر :

وما سُمِّىَ الْإنسانُ إلّا لِأُنْسِهِ * ولا الْقلبُ إلّا أنّه يَتَقَلَّبُ

الثالثــة — لمـا ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين فى مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم؛ لنفى الإيمان عنهم بقوله الحق : « وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ». ففى هذا ردّ على الكَرّامية حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب؛ وآحتجوا بقوله تعالى : « فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ(٢) بِمَا قَالُوا » . ولم يقل: بما قالوا وأضمروا؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منّى دماءهم وأموالهم". وهذا منهم قصور وجمود، وتَرْكُ نظرٍ لمـا نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والآعتقاد؛ وقـد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان". أخرجه آبن ماجه فى سُنَنه. فما ذهب إليه محمد بن كَرّام السّجستانى وأصحابه هو النفاق وعَيْن الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الآعتقاد .

الرابعــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليه، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه؛ فكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالإيمان، فالله محب له، موالٍ له، راضٍ عنه . وكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالكفر، فالله مبغض له، ساخط

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١		(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠

عليـه، معادٍ له ، لا لأجل إيمانه، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لامحالة، وكافر لا يُعاقَب . فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِى بالكفر، فالله ساخط عليه معادٍ له . والذى لا يعاقب هو الموافى بالإيمان ، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له ، بل محبّ له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامســة — بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة . ولأجل هذا قلنا : إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته ؛ لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَريّةُ فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد ؛ لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر . ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه ؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدَكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقَة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَةً مثلَ ذلك ثم يُرسِل الله المَلَك فيَنْفُخ فيه الرُّوح ويُؤْمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشَقِيٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" . فإن قيل وهى : —

السادســة ــ فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن ٱبن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لأشر بن أنا وأنت يا أبا رزِين من لبن لم يتغيّر طعمه" قال قلت : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : "أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة" قلت : بلى . قال : "كذلك النشور" قال قلت : كيف لى أن أعلم أنى مؤمن ؟ قال : "ليس أحد من هذه الأمة ــ قال ٱبن أبى قيس : أو قال من أمتى ــ عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن" .

قلت : وهــذا الحديث و إن كان ســنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ٱبن مسعود؛ فإن ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام : "و إنما الأعمال بالخواتيم" . وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال؛ والله أعلم .

السابعــة ــ قال علماء اللغة : إنما سُمِّىَ المنافق منافقًا لإظهاره غير ما يضمر؛ تشبيها باليربوع، له جحر يقال له : النافقاء، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرَقّ التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جُحره تراب، و باطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، و باطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٩)

قال علماؤنا : معنى « يخادعون الله » أى يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيــل : فى الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسـوله خداعا له؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان

خلاف ما أبطنوه من الكفر، لِيَحْقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهـم قد نجَوْا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغـة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ؛ حكاه ثعلب عن ٱبن الأعرابى . وأنشد :

أَبْيَضُ اللَّونِ لذيذٌ طعْمُه * طيِّبُ الرِّيق إذا الرِّيقُ خَدَعْ (١)

قلت : فـ « يخادعون الله » على هذا ، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسَّرًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما يأتى . وفى التنزيل : « يُرَاءُونَ النَّاسَ » (٢) . وقيل : أصله الإخفاء ؛ ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشىء ؛ حكاه ٱبن فارس وغيره . وتقول العرب : ٱنخدع الضب فى جُحره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ نفى و إيجاب ؛ أى ماتحلّ عاقبة الخدع إلا بهم . ومن كلامهم : مَن خَدَع من لا يُخْدع فإنما يَخْدع نفسه . وهذا صحيح ؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معه فى الخداع فإنما يخدع نفسه . ودلّ هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ؛ وقد تقدّم من قوله عليه السلام أنه قال : " لا تخادع الله فإنه مَن يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر " قالوا : يارسول الله ، وكيف يُخادَع اللهُ ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره " . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » .

وقرأ نافع وٱبن كثير وأبو عمرو : «يخادعون» فى الموضعين ؛ ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وٱبن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع (بكسر الخاء) وخديعة ؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُوَرِّق العجلىّ : «يُخَدِّعون الله» (بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال) على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخاء وفتح الدال ، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم ، فحذف حرف الجر ؛ كما قال تعالى : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » أى من قومه .

---

(١) قاله سويد بن أبى كاهل . يصف ثغر امرأة . (٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون أن وبال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا ؛ وإنما ذلك فى الدنيا ، وفى الآخرة يقال لهم : « ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً » على ما يأتى(١). قال أهل اللغة : شَعَرْتُ بالشيء أى فطنت له ؛ ومنه الشاعر لفطنته ؛ لأنه يفطن لما لا يَفْطُن له غيره من غريب المعانى. ومنه قولهم : لَيْتَ شِعْرِى ؛ أى ليتنى علمت.

قوله تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠﴾

قوله تعالى : ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ابتداء وخبر. والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم. وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا، وإما جَحْداً وتكذيباً. والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد. قال ٱبن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو نفاق أو تقصير فى أمر. والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكّن الراء.

قوله تعالى : ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً﴾ قيل : هو دعاء عليهم. ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكًّا ونفاقاً جزاء على كفرهم وضعفا عن الآنتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مُرْسِلَ الرِّيحِ جَنوباً وصَبَا * إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غضبَا

أى لا تهدها على الآنتصار فيما غضبت منه. وعلى هذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شَرّ خلق الله. وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم ؛ أى فزادهم الله مرضا إلى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ »(٢). وقال أرباب المعانى : « فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » أى بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها. وقوله : « فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً » أى وكَلَهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى ٱهتمامٍ بالدين. « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بما يفنى عما يبقى. وقال الجُنَيْد : عِللُ القلوب من ٱتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن.

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦		(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٩

قوله تعـالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « أليم » فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجِع، مثل السميع بمعنى المُسْمِع؛ قال ذو الرُّمّة يصف إبلا :

ونرفعُ من صُدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُكُّ وجوهَها وَهَجٌ أليمُ [١]

وآلم إذا أوْجع . والإيلام : الإيجاع . والألم : الوجع ، وقـد ألِم يألَم ألَمًا . والتألُّم : التوجّع . ويجمع أليم على أُلَمَاء مثل كَرِيم وكُرَماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ما مصدرية ؛ أى بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته ؛ قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ؛ ومعناه بكَذِبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — وٱختلف العلمـاء فى إمساك النبيّ صلى الله عليه وسـلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأول — قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد ٱتفق العلمـاء على بَكْرة أبيهم [٢] على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإنمـا ٱختلفوا فى سائر الأحكام . قال ٱبن العربى : وهذا منتقض ، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصّامت ؛ لأن المُجَذَّر قتـل أباه سُويدا يوم بُعاث [٣] ؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتـله ؛ فأخبر به جبريلُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به ؛ لأن قتله كان غِيلة [٤] ، وقَتْل الغِيلة حَدٌّ من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم وٱنقطاع الوحى ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضيّةٌ فى عَيْنٍ بوَحْيٍ ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

---

(١) شمردلات : إبل طوال . ونرفع : نستحثها فى السير . والوهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ؛ وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .

(٤) راجع هذه القصة فى سيرة ٱبن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبع أوربا .

القول الثانى — قال أصحاب الشافعى : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذى يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمـان يُستتاب ولا يُقتل . قال ٱبن العربى : وهذا وَهَمٌ، فإن النبيّ صلى الله عليـه وسلم لم يستتبهم ولا نَقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن ٱستتابة الزنديق واجبة (١) وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم معرضًا عنهم مع علمه بهم . فهـذا المتأخر من أصحاب الشافعى الذى قال : إن ٱستتابة الزنديق جائزة (٢) قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحةً لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى" أخرجه البخارى ومسلم . وقد كان يُعطى للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء ٱعتقادهم تألُّفًا؛ وهـذا هو قول علمائنـا وغيرهم . قال ٱبن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك رحمـه الله فى كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نصّ على هذا محمد بن الجَهْم والقاضى إسماعيل والأبهرى وٱبن المـاجشون، وٱحتج بقوله تعالى : «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» إلى قوله . «وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً» (٣) . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزّندقة فينا اليوم؛ فيُقتل الزنديق إذا شُهِد عليـه بها دون ٱستتابة ؛ وهو أحد قولى الشـافعى . قال مالك : وإنمـا كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ؛ إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضى إسمـاعيل : لم يشهد على عبد الله بن أُبَيّ (٤) إلا زيد بن أَرْقَم وحده ، ولا على الجُلَاس (٥) بن سويد إلا عُمَير بن سعد ربيبه؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعىّ رحمه الله محتجًّا للقول الآخر : السُّنّة فيمن شُهد عليه بالزندقة فجحد

---

(١) الذى فى كتاب الأحكام لابن العربى : « ... أن ٱستتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا فى الأصول وكتاب الأحكام لٱبن العربى . ولعل صواب العبارة : « إن ٱستتابة الزنديق واجبة » .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٥

(٤) سيذكر الإمام القرطبي قصته عند تفسير سورة « المنافقون » .

(٥) كان متهما بالنفاق، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : «يحلفون بالله ما قالوا» الآية . وستأتى قصته عند تفسير هذه الآية فى سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وقد أوردها ٱبن هشام فى سيرته ص ٣٥٥ طبع أوربا . وٱبن عبد البر فى الاستيعاب جـ ١ ص ٩٧ طبع الهند.

وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإســلام مع العــلم بنفاقهم ؛ لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ماقبــله . وقال الطبرى : جعل الله تعــالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولّى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر؛ لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رســول الله صلى الله عليه وســلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَل سرائرهم إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله : «وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» . قال ٱبن عطية : ينفصل المــالكيون عما لزموه من هــذه الآية بأنهــا لم تُعَيَّن أشخاصهم فيها وإنمــا جاء فيها توبيخ لكل مغموص[(١)] عليــه بالنفاق ؛ وبقى لكل واحد منهــم أن يقول : لم أُرَد بهــا وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيّن أحد لمــا جَبّ كذبه شيئا .

قلت : هذا الٱنفصال فيه نظر، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه؛ وكان حُذيفة يعلم ذلك بإخبار النبىّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعــالى كان قد حفظ أصحاب نبيّه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسِدهم المنافقون أو يفســدوا دينهم فلم يكن فى تَبْقيَتهم ضرر، وليس كذلك اليوم؛ لأنّا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعــالى : وَإِذَا قِيــلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَــا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها « قالوا » ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : «إذا» ٱسم يدلّ على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى

---

(١) قوله : لكل مغموص . أى مطعون فى دينه ، متهم بالنفاق .

جمـلة ؛ تقول : أجيئك إذا ٱحمرّ الْبُسْر ، و إذا قَدِم فلان . والذى يدل على أنها ٱسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقدَم فلان ؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . وجزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا ؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك . والفاء : إن تأتنى فأنا أحسِن إليك . و إذا كقوله تعالى : « و إن تُصِبْهم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »[1] . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخَطِيم :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا إلى أعدائنـا فنضارِبِ[2]

فعطف « فنضارب » بالجـزم على « كان » لأنه مجـزوم ، ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضاربَ ؛ بالنصب . وقد تزاد على « إذا » « ما » تأكيدًا ، فيُجزم بها أيضا ؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

فقام أبو لَيْلَى إليه ٱبنُ ظالمٍ * وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه : والجيّد ما قال كعب بن زُهَير :

و إذا ما تشـاءُ تبعثُ منهـا * مغربَ الشمسِ ناشِطًا مَذْعُورا[3]

يعنى أن الجيّد ألا يجزم بإذا ؛ كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرّد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظرف مكان ؛ لأنها تضمنت جُثّة . وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ؛ فإنما تضمّنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان ؛ ومنه قولهم : « اليومَ خَمْرٌ وغدًا أمرٌ » فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القَول وأصله قَوِل ؛ نُقِلت كسرة الواو إلى القاف فٱنقلبت الواو ياء . ويجوز : « قيل لهم » بإدغام اللام فى اللام . وجاز الجمع بين ساكنين ؛ لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش : و يجوز « قُيل » بضم القاف والياء . وقال الكسائى : و يجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لمـا لم يسم فاعله ، وهى لغـة قيس . وكذلك جِىءَ وغِيضَ وحِيل وسِيق وسِىء

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٤ (٢) يقول : إذا قصرت أسيافنا فى اللقاء عن الوصول إلى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى تنالهم . (٣) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ؛ فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ؛ فذلك أوحش له وأذعر .

وسِيئت . وكذلك روى هشام عن ٱبن عباس، ورُوَيْس[١] عن يعقوب[٢] . وأَشَمّ منها نافع سىء وسيئت خاصــة . وزاد ٱبن ذكوان : حِيل وسِيق ؛ وكسر الباقون فى الجميع . فأما هُـذيل وبنو دُبَير من أسد و بنى فَقْعَس فيقولون : « قوْل » بواو ساكنة .

قوله : ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ «لا» نهى . والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الٱستقامة إلى ضدّها . فَسَد الشيء يَفْسُد فَسادا وفُسودًا وهو فاسد وفسِيد . والمعنى فى الآية : لا تفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيــل : كانت الأرض قبــل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وسـلم فيها الفساد، و يفعــل فيها بالمعاصى؛ فلمــا بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱرتفع الفساد وصلحت الأرض . فإذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال فى آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»[٣] .

قوله : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة، وهى ٱسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أَرْضة، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أَرَضات؛ لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات . ثم قالوا أَرَضون فجمعوا بالواو والنون؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضًا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سُكّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أَرْض وآراض، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس؛ كأنهم جمعوا آرُضًــا . وكل ما ســفل فهــو أرض . وأَرْض أرِيضة ؛ أى زكــيّة بيّنة الأراضة . وقد أَرِضت بالضم ، أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة ؛ أى معجبة للعين ؛ و يقال : لا أرض لك ، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض : أسفل قوائم الدابة ؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقَلِّب أرضَهــا البَيْطارُ ✽ ولا لَحبْلَيْــهِ بهــا حَبَــارُ

---

(١) فى نسخة : « ابن عامر» .
(٢) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارئ ، راوى يعقوب ابن إسحاق .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٦

أى أثر . والأرض : النَّفْضَة والرِّعْدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبـد الله بن الحارث قال : زُلْزِلَت الأرض بالبصرة ؛ فقال آبن عباس : والله ما أدرى ! أزُلزلت الأرض أم بى أرْض ؟ أى أم بى رِعدة ؛ وقال ذو الرُّمّة يصف صائدا :

إذا تَوَجّس رِكْزًا من سَنابكها * أو كان صاحبَ أرضٍ أو به المُومُ[1]

والأرض : الزّكام . وقد آرضه الله إيراضا ؛ أى أزكمه فهو مأروض . وفسِيل مستأرِض ، وَوَدِيّة مستأرِضة (بكسر الراء) وهو أن يكون له عِرق فى الأرض ؛ فأما إذا نبت على جـذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض ؛ أى متواضع خليق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك ؛ أى أخلقهم . وشىء عريض أريض إتباع له ؛ و بعضهم يفرده و يقول : جَدْىٌ أرِيض ؛ أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل « نحن » نَحُنْ ، قُلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ؛ قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : « نحن » لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ؛ فلما آضطروا إلى حركة « نحن » لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : لهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ آشْتَرُوا الضَّلَالَةَ » . وقال محمد ابن يزيد : « نحن » مثل قَبْلُ و بعدُ ؛ لأنها متعلقة بالإخبار عن آثنين وأكثر ، ف« أنا » للواحد و« نحن » للتثنية والجمع ، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن قمنا ؛ قال الله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ »[2] . والمؤنّث فى هـذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر ؛ تقول المـرأة : قمت وذهبت ، وقمنا وذهبنا ، وأنا فعلت ذاك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فآعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ آسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد . وصَلَحَ الشىء (بضم اللام وفتحها) لغتان ؛ قاله آبن السِّكِّيت . والصُّـلوح (بضم الصاد) مصـدر صَلُحَ (بضم اللام) ؛ قال الشاعر :

---

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . الموم : البرسام وهو الخبل . وقيل : الموم الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه : أن الصياد يُذهِبُ نَفَسَه إلى السماء و يَفْغر إليها أبدا لئلا يجد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مفغر والزكام مفغر . (عن اللسان) . (٢) راجع ج ١٦ ص ٨٣

فكيف بإطراقى إذا ما شَتَمْتَنِى * وما بعـدَ شَتْمِ الوالدين صُـلُوحُ

وصلاح من أسماء مكة . والصِّلْح (بكسر الصاد) : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح ؛ أى أن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله آبن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردّا عليهـم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » وهذا صحيح. و كُسرت «إنّ» لأنها مبتدأة؛ قاله النحاس. وقال على بن سليمان. يجوز فتحها؛ كما[(١)] أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق، بمعنى ألا . و « هُمْ » يجوز أن يكون مبتدأ و « الْمُفْسِدُونَ » خبره والمبتدأ وخبره خبر «إنّ» . ويجوز أن تكون «هم» توكيدا للهاء والميم فى «إنهم» . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — و «المفسدون» خبر « إنّ» ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون، كما تقدّم فى قوله : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال آبن كَيْسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم ، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبىّ صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لايشعرون أن ذلك فساد،وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبيين الحق وآتباعه . «وَلَكِنْ» حرف تأكيدوآستدراك ولا بدّ فيه من نفى وإثبات؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب، و إن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الآقتصار بعده على آسم واحد إذا تقدّم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة

(١) فى العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فإذا فتحت إن بعـدهما كانتا بمعـنى حقا أنك ... و إذا كسرت كانتا أداتى آستفتاح . راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

مضادة لما قبلها كما فى هذه الآية ، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ ؛ ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت ؛ لأنهم قد آستغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن ، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين فى قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشَرْعه ، كما صدّق المهاجرون والمحققون[(١)] من أهل يَثْرِب . وألف « آمنوا » ألف قطع ؛ لأنك تقول : يؤمن ، والكاف فى موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن آبن عباس . وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء وآستهزاء فأطلع الله نبيّــه والمؤمنين على ذلك ، وقرّر أن السَّفه ورِقّة الحُـلُوم وفساد البصائر إنمـا هى فى حيِّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذى على قلوبهم . وروى الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود ؛ أى وإذا قيل لهم — يعنى اليهود — آمنوا كما آمن الناس : عبـد الله بن سَلَام وأصحابُه ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ! يعنى الجهال والخرقاء . وأصل السَّفَه فى كلام العرب : الخفّة والرقة ؛ يقال : ثوب سـفيه إذا كان ردىء النسج خفيفه ، أو كان بالياً رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به ؛ قال ذو الرُّمة :

مَشَين كما آهتزّتْ رماحٌ تسفَّهتْ ✽ أعاليَهـا مَرُّ الرياح النَّواسِـمِ[(٢)]

---

(١) المحققون هنا هم الذين يكون إيمانهم مقرونا بالإخلاص خالصا عن شوائب النفاق كما قال الألوسى وغيره .

(٢) وصف نساء فيقول : إذا مشين آهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الخفيفة الهبوب .

وتسفهت الشيء : ٱستحقرته . والسّفه : ضـد الحلم . ويقال : إنّ السّـفه أنْ يكثر الرجل شرب المـاء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء أربعـة أوجه[1] ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبى عمرو . وإن شئت خفّفتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خفّفت الأولى وحقّقت الثانية . وإن شئت حقّقتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ مثل «وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ» ؛ وقد تقدّم . والعلم معرفة المعـلوم على ما هو به ؛ تقول : عَلِمت الشيء أعلمـه عِلْمًا عرفته ، وعالمتُ الرجل فعلَمْتُـه أعْلُمُه (بالضم فى المستقبل) : غلبته بالعلم .

قوله تعـالى : وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لَقُوا : لَقِيُوا، نُقلت الضمة إلى القاف وحُذفت الياء لٱلتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليمانى : «لاقوا الذين آمنوا» . والأصل لاقيوا، تحرّكت الياء وقبلها فتحة ٱنقلبت ألفا، ٱجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لٱلتقاء الساكنين ثم حُرّكت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضُمّت الواو فى لاقُوا فى الإدراج وحُذفت من لَقُوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لَقُوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها، وحُركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إن قيل: لم وُصلت «خَلَوْا» بـ«إلى» وعُرْفها أن توصل بالباء؟ قيل له : «خلوْا» هنا بمعنى ذهبوا وٱنصرفوا؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

كيف تَرانى قالبا مِجَــنِّى * [أَضْرِبُ أمْرِى ظهرَه لبَطْنِ[2]]

* قد قتـل الله زِيادًا عَنِّى *

---

(١) أى مع كلمة ألا التى بعدها . (٢) الزيادة عن كتاب النقائض . وزياد، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

لما أنزله منزلة صَرَفَ. وقال قوم: «إلى» بمعنى مع؛ وفيه ضعف. وقال قوم: «إلى» بمعنى الباء؛ وهذا يأباه الخليـل وسيبويه. وقيل: المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم؛ فـ«إلى» على بابها. والشياطين جمع شيطان على التكسير؛ وقد تقدم القول فى آشتقاقه ومعناه فى الآستعاذة[1]. وآختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا؛ فقال آبن عباس والسُّدِّى: هم رؤساء الكفر. وقال الكلبي: هم شياطين الجن. وقال جمع من المفسرين: هم الكهان. ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع مَن ذكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه. وقيل: ساخرون. والهزء: السخرية واللعب؛ يقال: هَزِئَ به وآستهزأ؛ قال الراجز[2]:

قـد هَزِئت منّى أمُّ طَيْسَلَهْ　*　قالت أراه مُعدِما لا مال لَهْ

وقيل: أصل الآستهزاء: الآنتقام؛ كما قال الآخر:

قد آستهزءوا منهم بألفَىْ مُدَجَّجٍ　*　سَرَاتُهُم وسْطَ الصَّحَاصِحِ جُثَّمُ[3]

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على آستهزائهم؛ فسمى العقوبة بآسم الذنب. هذا قول الجمهور من العلماء؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم:

ألَا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا　*　فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى آنتصاره جهلا، والجهل لا يفتخر به ذو عقل؛ وإنما قاله ليَزْدَوِج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما. وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة. وقال

---

(١) راجع ص ٩٠　(٢) هو صخر الغى الهلالى. والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية:　تهزأ منى أخت آل طيسله　*　قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٣) الصحاصح (جمع صحصح): الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء. والجاثم: اللازم مكانه لا يبرح.

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لا يكون سيئة . والقصاص لا يكون آعتداء؛ لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مَكْرٌ ولا هزء ولا كَيْد ، إنما هو جزاء لمكرهم وآستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك « يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا " . قيل : حتى بمعنى الواو أى وتملوا . وقيل المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هى فى تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجمد كما تجمد الإهالة (١) فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا آمَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر آستهزاءهم ، وأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم « إنما نحن مستهزئون » بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . « الله يستهزئ بهم » فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يَسْبَحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهى السرر — فى الحِجال ينظرون إليهم ، فإذا آنتهوا إلى الباب سُدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : « ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلّقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » (٢) إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والآستهزاء هو آستدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

---

(١) الإهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد . (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٦٦

قد حتّم عذابهم . فهذا على تأمل البشر كأنه آستهزاء ومكر وخداع ؛ ودلّ على هذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحبّ وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه آستدراج " . ثم نزع بهذه الآية : «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(١) . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »(٢) : كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ ﴾ أى يطيل لهم المدّة و يمهلهم ويُمْلِي لهم ؛ كما قال : « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا »(٣) وأصله الزيادة . قال يونس بن حبيب : يقال مدّ لهم فى الشر ، وأمدّ فى الخير ؛ قال الله تعالى : «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ»(٤) . وقال : « وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ »(٥) . وحكى عن الأخفش : مددت له إذا تركته ، وأمددته إذا أعطيته . وعن الفرّاء واللّحيانى : مددت ، فيما كانت زيادته من مثله ، يقال : مدّ النَّهْرُ [النهر](٦) ، وفى التنزيل : « وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ »(٧) . وأمددت ، فيما كانت زيادته من غيره ؛ كقولك : أمددت الجيش بمَدَد ؛ ومنه : « يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ »(٨) . وأمدّ الجُرْحُ ؛ لأن المِدّة من غيره ، أى صارت فيه مِدّة .

قوله تعالى : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ كفرهم وضلالهم . وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ »(٩) أى آرتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخُزّان . وقوله فى فرعون : « إِنَّهُ طَغَى »(١٠) أى أسرف فى الدعوى حيث قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . والمعنى فى الآية : يمدّهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون . وقال مجاهد : أى يتردّدون متحيّرين فى الكفر . وحكى أهل اللغة : عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار ، و يقال رجل عامه

(١) راجع ج ٦ ص ٤٢٦ وقد ذكر القرطبي هنالك الحديث برواية تختلف فى بعض اللفظ ، وفيه : ثم تلا « فلما نسوا » الآية بدل نزع . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٢٩ (٣) راجع ج ٤ ص ٢٨٧ (٤) راجع ج ١٠ ص ٢١٧ (٥) راجع ج ١٧ ص ٦٨ (٦) الزيادة عن اللسان مادّة (مد) . (٧) راجع ج ١٤ ص ٧٦ (٨) راجع ج ٤ ص ١٩٠ (٩) راجع ج ١٨ ص ٢٦٣ (١٠) راجع ج ١٩ ص ١٩٩

وعمه : حائر متردّد ، وجمعه عُمْـه . وذهبت إبله العُمَّهى إذا لم يدر أين ذهبت . والعمى في العين ، والعَمَه في القلب ؛ وفي التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »[1] .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو في «اشتروا» فرقًا بينها وبين الواو الأصلية، نحو: «وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ». وقال ابن كَيْسان : الضمة في الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حُرّكت بالضم كما فعل في «نحن» . وقرأ ابن أبي إسحاق ويحيى بن يعمر[2] بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصاري عن قَعْنَب أبي السَّمّال العدوي أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وإن كان[3] ما قبلها مفتوحا . وأجاز الكسائي همز الواو وضمها كأدؤر . واشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبُّوا الكفر على الإيمان ، كما قال : « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » فعبّر عنه بالشراء ؛ لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسُّعًا ؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئا بشيء . قال أبو ذُؤيب :

فإن تَزْعُميني كنتُ أجهلُ فيكم * فإني شَرَيتُ[4] الحلمَ بعدكِ بالجهل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٧ (٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «في التقريب بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة . وفي المغني بفتح الميم وضمها» . (٣) في بعض الأصول : « وإن ما قبلها مفتوحا » ، وفي البعض الآخر : « وإن كان قبلها مفتوحا » . (٤) ويروى : « اشتريت » كما في ديوان أبي ذؤيب . يقول : إن كنت تزعمين أني كنت أجهل في هواى لكم وصبوتي إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد) .

وأصل الضلالة : الحيرة . ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة؛ قال جلّ وعزّ: « فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ »[١] أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ »[٢] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بَيْعُك ، وخَسِرتْ صفقتك ؛ وقولهم : ليلٌ قائم ، ونهارٌ صائم ؛ والمعنى : رَبِحتَ وخَسِرْتَ فى بيعك ، وقمت فى ليلك وصُمت فى نهارك ؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم . وقال الشاعر :

نهـارُك هائمٌ وليـلُكَ نائمٌ * كذلك فى الدنيا تَعيشُ البهائمُ

ٱبن كَيسان : ويجوز تجارة وتجائر ، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى ٱشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والٱهتداء ضد الضلال ؛ وقد تقدّم[٣] .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف ، فهى ٱسم ؛ كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن يَنْهَى ذوِى شَـطَطٍ * كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ[٤]

وقول ٱمرئ القيس :

ورُحْنَا بِكَابْنِ الماءِ يُجنَبُ وسطَنا * تَصَوَّبُ فيـه العينُ طَـوْرًا وتَرْتَقِي[٥]

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٩٥   (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١   (٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

(٤) المعنى : لاينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ؛ أى نافذ إلى الجوف ، يغيب فيه الزيت والفتل . (عن خزانة الأدب) .   (٥) يقول رجعنا بفرس كأنه ٱبن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب : أى يقاد فلا يركب .

أراد مثل الطعن، و بمثل ٱبن المـاء. و يجوز أن يكون الخبر محذوفا؛ تقديره مثلهم مستقر كمثل؛ فالكاف على هـذا حرف . والمَثَل والمِثْل والمثِيل واحد ومعناه الشبيه . والمتماثلان : المتشابهان ؛ هكذا قال أهل اللغة .

قوله ﴿ ٱلَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع . قال ٱبن الشَّجَرِى هبةُ الله بن علىّ : ومن العـرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد ؛ كما قال :

وإن الذى حانَتْ بفَلْج دماؤهم * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ [(١)]

وقيل فى قول الله تعالى «وَٱلَّذِى جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» [(٢)] : إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى » قيل : المعنى كمثل الذين ٱستوقدوا، ولذلك قال : « ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ » ؛ فحمل أول الكلام على الواحد، وآخره على الجمع . فأما قوله تعالى : «وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوا» [(٣)] فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا. وقيل : إنما وحّد «الذى» و«ٱستوقد» لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال «بنورهم» . وٱستوقد بمعنى أوقد؛ مثل ٱستجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء زائدتان ، قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر [(٤)] :

وداعٍ دَعَا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فـلم يَستجِبْه عنـــد ذاك مُجِيبُ

أى يجبه . وٱختلف النحاة فى جواب لمـّا، وفى عود الضمير من «نورهم» ؛ فقيل : جواب لمـّا محذوف وهو طَفِئت ، والضمير فى «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة ؛ كما قال تعالى : «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ» [(٥)] . وقيل : جوابه «ذهب» ، والضمير فى «نورهم» عائد على «الذى» ؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردُّده . والمعنى المرادُ بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

---

(١) فلج (بفتح أوّله وسكون ثانيه) : موضع بين البصرة وضَرِيّة . وقيـل هو واد بطريق البصرة إلى مكة ، ببطنه منازل للحاج . قائله الأشهب بن رميلة يرثى قوما قتلوا فى هذا الموضع (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠١

(٤) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمـان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليـلة مظلمة فاستضاء بهـا ورأى ما ينبغى ان يتقيه وأمن منه؛ فإذا طَفِئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى و بقى متحيرا؛ فكذلك المنافقون لمـا آمنوا ٱغْتَرُّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »(١) — و يذهب نورهم؛ ولهـذا يقولون : « ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »(٢) . وقيـل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وٱنصرافهم عن مودتهم وٱرتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النـار مؤنثة وهى من النـور وهو أيضا الإشراق. وهى من الواو؛ لأنك تقول فى التصغير : نو يرة، وفى الجمـع نور وأنوار ونيران، ٱنقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتـان ؛ يقال : ضاء القمـرُ يَضُوء ضَـوْءًا وأضاء يُضىء ؛ يكون لازما ومتعدّيًا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف ، والعامة بالألف ؛ قال الشاعر:

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجَى الليل حتى نَظَّم الجَزْعَ(٣) ثاقِبه

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ «ما» زائدة مؤكدة. وقيل: مفعولة بأضاءت. و«حَوْله» ظرف مكان، والهاء فى موضع خفض بإضافته إليها. و ﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشىء. ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أى أبقاهم . ﴿فِى ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمة . وقرأ الأعمش : «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الآسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلى : «ظُلَمات» بفتح اللام . قال البصريون: أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف. وقال الكسائى: «ظلمات» جمع الجمع، جمع ظُلَم. ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال: غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على « ظلمات » .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ (٣) الجزع (بفتح الجيم وكسرها): ضرب من الخرز. وقيل : هو الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد ، فشبه به الأعين .

قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ «صمٌّ» أى هم صمٌّ ، فهو خبر ابتداء مضمر . وفى قراءة عبدالله ابن مسعود وحفصة : صُمًّا بكمًا عميًا ، فيجوز النصب على الذّم ؛ كما قال تعالى : «مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا»[1] ، وكما قال : «وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»[2] ، وكما قال الشاعر[3] :

سَـقَوْنِى الخمرَ ثم تكنَّفُونِى * عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب «عُداةَ الله» على الذم . فالوقف على «يبصرون» على هذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمًّا بـ«تَرَكَهُمْ» ؛ كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا ؛ فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يبصرون» . والصمم فى كلام العرب : الانسداد ؛ يقال : قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال : رجل أبكم وبَكِيم ؛ أى أخرس بيّن الخرس والبكم ؛ قال :

فليْتَ لِسانِى كان نِصْفَينِ منهما * بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكبِ

والعمى : ذهاب البصر ؛ وقد عَمِىَ فهو أَعْمَى ، وقوم عُمْىٌ ، وأعماه الله . وتعامى الرجل : أرى ذلك من نفسه . وعَمِىَ عليه الأمر إذا التبس ؛ ومنـه قوله تعالى : «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ»[4] . وليس الغرض ممـا ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنمـا الغرض نفيها من جهة مّا ؛ تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أَصَمُّ عمّا ساءَهُ سَمِيعُ *

وقال آخـــر :

وعوراءِ الكلامِ صَمَمتُ عنها * ولو أنى أشاء بهـا سميعُ

وقال الدارمىّ :

أَعْمَى إذا ما جارتى خرجت * حتى يوارِى جارتِى الجُـدْرُ

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ (٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢٣٩ (٣) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعـل قوم امرأته حين احتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم إلى مفاداتها وكانت سبية عنده (عن شرح الشواهد) . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٤

وقال بعضهم فى وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُـلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وٱخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : «صمٌّ» عن ٱستماع الحق، «بكمٌ» عن التكلم به، «عمىٌ» عن الإبصار له .

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخر الزمان فى حديث جبريل "و إذا رأيت الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوكَ الأرض فذاك من أشراطها". والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم . يقال: رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعه غيره؛ وهُذيل تقول: أرجعه غيره . وقوله تعالى : « يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ » أى يتلاومون فيما بينهم؛ حسب ما بيّنه التنزيل فى سـورة « سبأ »[1] .

قوله تعـالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال الطبرى : « أو » بمعنى الواو، وقاله الفرّاء . وأنشــد :

وقد زَعَمتْ ليـلَى بأنّىَ فاجرٌ * لنفسى تُقَاها أو عليها فُجُورها[2]

وقال آخــر[3] :

نَال الخلافةَ أو[4] كانت له قَدَرًا * كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيـل : « أو » للتخيير أى مثّلوهم بهذا أو بهذا ، لا على الاقتصار على أحد الأمرين ، والمعنى أو كأصحاب صَيِّب . والصَّيِّبُ : المطر . وٱشـتقاقه من صَابَ يَصُوبُ إذا نزل؛ قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَيْنِى وبين مُغَمَّرٍ * سَقَتكِ رَوَايا المُـزْنِ حيث تَصُوبُ[5]

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٢ . (٢) البيت من قصيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية .

(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز . (٤) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل « أو » .

(٥) المغمـر والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور؛ كأن الجهل غمـره وٱستولى عليه . وروايا المزن : التى تروى بكثرة مائها .

وأصـله : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ؛ كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعِيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لما جاز إدغامه، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب . والتقدير فى العربية : مَثَلهم كَمَثل الذى آستوقد نارا أو كمثل صيب »[1] .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكّر وتؤنث، وتجمع على أسميـة وسموات وسُمِىّ ، على فُعُول؛ قال العجاج :

* تَلُفُّـــه الرياحُ والسُّـــمِىُّ[2] *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر، سُمّى به لنزوله من السماء . قال حسان بن ثابت :

ديارٌ من بنى الحَسْحاسِ قَفْرٌ * تُعفّيهـا الروامِسُ والسماء

وقال آخـــر[3] :

إذا سَقَط السماءُ بأرض قومٍ * رَعَيناه و إن كانوا غِضـابَا

و يسمّى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : مازِلْنا نطأ السماء حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . و يقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه؛ قال[4] :

وأحمرُ كالدّيباج أمّا سماؤه * فَرَيّا وأمّا أرضُـــه فُمحُولُ

والسماء : ما علا . والأرض : ما سفل ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ آبتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمة الدَّجْن، وهو الغيم؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى ما فيه من اللغات[5] فلا معنى للإعادة، وكذا كل ماتقدّم إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما) (٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

وآختلف العلمـاء فى الرعد؛ ففى الترمذى عن آبن عباس قال : سألت اليهود النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو ؟ قال : "مَلَك من الملائكة [موكل بالسحاب](١) معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله". فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : "زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهى إلى حيث أمر الله" قالوا : صدقت . الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : آسم الصوت المسموع، وقاله علىّ رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

فَجّعَـنِى الرعدُ والصـواعقُ بالـ * ـفارِسِ يومَ الكريهـةِ النَّجِـدِ

وروى عن آبن عباس أنه قال : الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت . وآختلفوا فى البرق؛ فروى عن علىّ وآبن مسعود وآبن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى . وعن آبن عباس أيضا هو سوط من نور بيد المَلَك يزجر به السحاب . وعنه أيضا : البرق مَلَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صـوت آصطكاك أجرام السـحاب . والبرق ماينقـدح من آصطكاكها . وهذا مردود لايصح به نقل؛ والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وآرتعد : آضطرب؛ ومنـه الحديث : "فجِىءَ بهما تُرْعَدُ فَرَائصهما" الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصـله من البرِيق والضوء؛ ومنـه البُرَاق : دابّة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرِىَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من الـبرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق : تهدّد وأوعد؛ قال آبن أحمر :

ياجُلّ ما بَعُدَتْ عليـك بِلادُنا * وطِلابُنا فآبْرُقْ بأرضِك وآرعُدِ

---

(١) زيادة عن الترمذى .

وأَرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد و برق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد؛ وأنكره الأصمعى . وآحتج عليه بقول الكُمَيْت :

أبرِق وأرعِـد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال : ليس الكُمَيت بحجة .

فائدة — روى آبن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينـة والشام ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد و برد ، وفَرِق الناس . قال فقال لى كعب : إنه من قال حين يسمع الرعد : سبحان مَن يسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، عُوفى مما يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا وآجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذاك ؟ قال : فحدّثته حديث كعب . قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم ! فى رواية فإذا بَرَدة(١) قد أصابت أنف عمر فأثّرت به . وستأتى هذه الرواية فى سورة « الرعد »(٢) إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن آبن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللّهُمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهْلكنا بعذابك وعافِنا قبل ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا القرآن فيؤمنوا به و بمحمد عليه السلام؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إِصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء، وأُصْبِع بفتح الهمزة وكسر الباء، و يقال بفتحهما جميعا، وضمهما جميعا، و بكسرهما جميعا؛ وهى مؤنثة. وكذلك الأذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر، فيقال : أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت : أُذَيْن؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم : أذينة فى الآسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغّرا ، والجمع آذان . وتقول : أَذَنتـه إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ : إذا كان يسمع كلام كل أحد، يستوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩٥

والجمع . وأذانِيّ : عظيم الأذنين . ونعجة أَذْناء ، وكَبْش آذَن . وأذّنت النعل وغيرَها تأذينا : إذا جعلت لها أُذُناً . وأذّنت الصبيّ : عَرَكت أذنه .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أى من أجل الصواعق . والصّواعق جمع صاعقة . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا اشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فِيهِ وهى الصواعق . وكذا قال الخليل ، قال : هى الواقعــة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة (بالسين) . وقال أبو بكر النقاش : يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنًى واحد . وقرأ الحسن : من «الصواقع» (بتقديم القاف)؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

يَحْكُون بالمَصْقُولة القواطِعِ * تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصّواقِعِ

قال النحاس : وهى لغة تميم و بعض بنى ربيعــة . و يقال : صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب ؛ قال الله عز وجل : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ »[(١)] . و يقال : صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً ؛ أى غُشِىَ عليه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا »[(٢)] فأصعقه غيره . قال ابن مُقْبِل :

ترى النُّعَرات الزُّرْقَ تحت لَبانِه * أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَـواهِلُهُ[(٣)]

وقوله تعــالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »[(٤)] أى مات . وشــبّه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق . فالظلمات مَثَلٌ لمــا يعتقدونه من الكفر ، والرعد والبرق مَثَلٌ لمــا يُخَوِّفون به . وقيل : مثّل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لمــا فيه من الإشكال عليهم ، والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تَبْهَرهم هو البرق . والصواعق

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٩ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٩ (٣) النعرة (مثال الهمزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر ، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة . واللبان : الصدر ، وقيــل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويكون للانسان وغيره . وأصعقتها صواهله : أى قتلها صهيله . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

مَثَلٌ لما فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيد فى الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ حَذَر وحِذار بمعنًى ؛ وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب ؛ لأنه موقوع له أى مفعول من أجله ؛ وحقيقته أنه مصدر ؛ وأنشد سيبويه :

وأغْفِرُ عَوْراءَ الكريم ٱدّخارَه * وأعْرِض عن شَتْمِ اللئيم تَكَرُّما (١)

وقال الفراء: هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت ؛ ويَمات أيضا ؛ قال الراجز :

بُنَيَّتِي سَيِّدَةَ البَناتِ * عِيشِى ولا يُؤْمَن أن تَماتِى

فهو ميّت وميْت ، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون. والمُوَات (بالضم) : الموت . والمَوَات (بالفتح) : ما لا رُوح فيه . والمَوات أيضا : الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد. والمَوَتان (بالتحريك) : خلاف الحيوان ؛ يقال : ٱشْترِ المَوَتانَ ، ولا تشترِ الحيوان ؛ أى ٱشتر الأرضين والدور ، ولا تشتر الرقيق والدواب . والمُوْتان (بالضم) : مَوْتٌ يقع فى الماشية ؛ يقال : وقع فى المال مُوتان . وأماته الله وموّته ؛ شُدّد للمبالغة . وقال :

فعُرْوةُ مات مَوتًا مستريحًا * فهأنذا أُمَوَّتُ كلَّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها ، فهى مُميت ومُميتة . قال أبو عبيد : وكذلك المرأة ، وجمعها مَماويت . قال ٱبن السِّكيت : أمات فلان إذا مات له ٱبنٌ أو بَنُونَ . والمُتَماوِت من صفة الناسك المرائى . وموت مائتٌ ، كقولك : ليلٌ لائلٌ ؛ يؤخذ من لفظه ما يؤكّد به . والمُسْتَميت للأمر : المُسْتَرسِل له ؛ قال رُؤْبة :

---

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : إذا جهل علىّ الكريم ٱحتملت جهله إبقاء عليه وٱدّخارا له ، و إن سبنى اللئيم أعرضت عن شتمه .

وزَبَدُ البحــرِ له كَتِيت * واللّيــل فـوق المـاءِ مُسْتَمِيت[1]

المستميت أيضـا : المستقتل الذى لا يبـالى فى الحرب من الموت؛ وفى الحـديث : "أرى القـوم مُسْتَمِيتِين" وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة (بالضم) : جنس من الجنون والصرع يعـترى الإنسان ؛ فإذا أفاق عاد إليه كمال عقـله كالنائم والسكران . ومُؤْتة (بضم الميم وهمز الواو) : آسم أرض قُتل[2] بها جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ آبتداء وخبر؛ أى لا يفوتونه . يقال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة؛ قال الشاعر :

أحطنا بهـم حتى إذا ما تَيَقّنوا * بما قد رأَوْا مالوا جميعًا إلى السِّلْمْ

ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ[3] » . وأصله مُحْيِط ، نُقلت حركة الياء إلى الحاء فسكّنت . فالله سبحانه محيـط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[4] » . وقيل : «مُحِيطٌ بِالكافرين» أى عالم بهم . دليله : «وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا[5]» . وقيل : مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى : «إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ[6]» أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥١٦ أدب .

وزبـد البحـر له كتيت * تراه والحـوت له نئيت
كلاهما مغتمس مغتـوت * وكلكل الماء له مبيت
والليـل فوق الماء مستميت * يدفع عنـه جوفـه المسحوت

الكتيت : الهدير . والنئيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدّة) . المغتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لايشبع .   (٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام وعلى آثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة «مأت» .   (٣) راجع ج ١٠ ص ٤٠٩
(٤) راجع ج ١٥ ص ٢٧٧   (٥) راجع ج ١٨ ص ١٧٦   (٦) راجع ج ٩ ص ٢٢٥

قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يقارب؛ يقال : كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . و يجوز فى غير القرآن : يكاد أن يفعل؛ كما قال رُؤْبة :

* قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحا[1] *

مشتق من المصح وهو الدرس . والأجود أن تكون بغير «أن»؛ لأنها لمقاربة الحال، و«أن» تَصرف الكلام إلى الاستقبال، وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ[2] يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير، وكاد العروس يكون أميرا؛ لقربهما من تلك الحـال . وكاد فعلُ متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل، قال : « وَمَا كِدْتُ آئِبا[3] » . و يجرى مجرى كاد كَرِب وجَعَل وقارب وطَفِق، فى كون خبرها بغير « أن »؛ قال الله عز وجل : « وَطَفِقَا[4] يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة؛ والحال لا يكون معها « أن »، فٱعلم .

قوله تعـالى : ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمِّيَ الطير خُطَّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مَثَلًا للتخويف فالمعنى أنّ خَوْفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم . ومن جعله مَثَـلًا للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم . ويَخْطَف و يَخْطِف لغتان قرئ بهما . وقد خطِفه (بالكسر) يَخْطَفُه خَطْفًا، وهى اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف . الجوهرى : وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف . وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارهم » . وقال النحاس : فى «يخطف» سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة : يَخْطَف . وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وَثّاب : يَخْطِف بكسر الطاء؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِىّ وأبو رجاء العُطارِدى بفتح الياء وكسر الخاء والطاء . ورُوِى عن الحسن أيضا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينـة بإسكان الخاء وتشديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفراء : يجوز «يِخِطِّف» بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط.

(١) يمصح : يذهب و يدرس.   (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٠   (٣) قائله تأبط شرا . والبيت بتمامه :

فأُبْت إلى فَهْم وما كدت آئبا * وكم مثلها فارقتها وهى تصـفر

(٤) راجع جـ ٧ ص ١٨٠

والسابعـة حكاها عبد الوارث قال : رأيت في مصحف ابيّ بن كعب « يتخطف »، وزعم سيبويه والكسائي أن من قرأ « يخِطف » بكسر الخاء والطاء فالأصـل عنده يختطِف ، ثم أدغم التاء في الطاء فآلتقى ساكنان فكسرت الخاء لآلتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخـاء ألقى حركة التاء عليهـا . وقال الكسائي : ومن كسر الياء فـلأن الألف في آختطف مكسورة . فأما ماحكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولايجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبي رجاء « يَخِطِّف » . قال آبن مجـاهد : وأظنـه غلطا ؛ وآستدل على ذلك بأن « خَطِفَ الخَطْفَةَ »(1) لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ جمع بَصَر، وهي حاسة الرؤية . والمعنى : تكاد حجج القرآن وبراهينه الساطعة تَبْهَرهم . ومن جعل « البَرْق » مثَلًا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم .

قوله تعـالى : ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ « كلما » منصوب لأنه ظرف . وإذا كان « كلما » بمعنى « إذا » فهي موصولة والعامل فيه « مَشَـوْا » وهو جوابه ، ولا يعمل فيـه « أضاء » ؛ لأنه في صلة ما . والمفعول في قول المبرد محذوف ، التقـدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريقَ . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأَفْعَـل بمعنًى ، كَسَكَت وأَسْكَت ؛ فيكون أضاء وضاء سـواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول . قال الفـراء : يقال ضاء وأضاء ، وقد تقـدّم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القـرآن وظهرت لهم الحجج أنِسُوا ومشَـوْا معه ، فإذا نزل من القرآن مايَعْمَوْنَ فيه ويَضِلون به أو يكلَّفونه « قاموا » ، أي ثبتوا على نفاقهم ؛ عن آبن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت النِّعم قالوا : دِين محمد دينٌ مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سَخِطوا وثبتوا في نفاقهم ؛ عن آبن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهـذا قول حسن ، ويدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ آللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ آطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ آنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ »(2) . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءا ، فارتقى من

(1) راجع جـ ١٥ ص ٦٧ .　　(2) راجع جـ ١٢ ص ١٧ .

تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر، كأن تضيء عليه أحوال الإرادة لو صححها بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى فى ظلمات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها. ورُوِى عن ابن عباس أن المراد اليهود، لمّا نُصِر النبيّ صلى الله عليه وسلم ببَدْر طمِعوا وقالوا: هذا والله النبيّ الذى بشّرنا به موسى لا تردّ له راية؛ فلما نُكِب بأُحُد ارتدّوا وشكّوا؛ وهذا ضعيف. والآية فى المنافقين، وهذا أصح عن ابن عباس، والمعنى يتناول الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ «لو» حرف تمنٍّ وفيه معنى الجزاء، وجوابه اللام. والمعنى: ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عِزّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم. وخصّ السمع والبصر لتقدّم ذكرهما فى الآية أوّلا، أو لأنهما أشرف ما فى الإنسان. وقرئ «بأسماعهم» على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام فى هذا[(١)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه. وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر. والقدير أبلغ فى الوصف من القادر، قاله الزجاجيّ. وقال الهروىّ: والقدير والقادر بمعنًى واحد؛ يقال: قَدَرت على الشيء أقدُر قَدْرا وقَدَرا ومَقْدِرة ومَقْدُرة وقُدْرانا؛ أى قُدْرة. والاقتدار على الشيء: القدرة عليه. فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم. فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فعَل ويفعَل ما يشاء على وَفْق علمه واختياره. ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غير مستبدّ بقدرته. وإنما خص هنا تعالى صفته التى هى القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فِعْلٍ مُضَمَّنُه الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسبا لذلك. والله أعلم.

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات فى وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان فى ذكر الكافرين، وبقيتها فى المنافقين. وقد تقدّمت الرواية فيها عن ابن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضا.

(١) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أوّلها « يأَيها الناس » فإنما نزلت بمكة ، وكل آية أوّلها « يأَيها الذين آمنوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهـذا يردّه أن هذه السورة والنساء مدنيّتان وفيهما يأيها النـاس . وأما قولها فى « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عُرْوة بن الزبير : ما كان من حدّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة ، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » فى قوله : « يأَيهـا » حرف نداء . « أىُّ » منادَى مفرد مبنىّ على الضم ؛ لأنه منادى فى اللفظ ، و « ها » للتنبيه . « النّاسُ » مرفوع صفة لأى عنـد جماعة النحويين ؛ ما عدا المـازنى فإنه أجاز النصب قياسًا على جوازه فى : يا هـذا الرجل . وقيـل : ضُمّت « أى » كما ضُمّ المقصود المفرد ، وجاءوا بـ « ها » عِوَضًا عن ياء أخرى ، و إنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين وصار الأسم بينهما ؛ كما قالوا : هاهو ذا . وقيل : لمـا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوْا فى الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف ، وأجروْا عليه المعترف باللام المقصود بالنداء ، وٱلتزموا رفعـه ؛ لأنه المقصود بالنـداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التى كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى ؛ فٱعلمه .

وٱخْتُلِف مَن المراد بالناس هنا على قولين : أحدهما — الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليـه قوله : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ » . الثانى — أنه عام فى جميع النـاس ؛ فيكون خطابه للؤمنين بٱستدامة العبادة ، وللكافرين بٱبتدائها . وهذا حَسَن .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْبُدُوا ﴾ أمْرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل ؛ يقال : طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام .

قال طرفـــة :

* وظِيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ (١) *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التَّنَسُّك . وعبَّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ خصّ تعـالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مُقِرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجةً عليهم وتقريعًا لهم . وقيـل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفى أصل الخلق وجهان : أحدهما — التقدير؛ يقال : خَلَقتُ الأديم للسقاء إذا قدّرته قبل القطع؛ قال الشاعر (٢) :

ولأنتَ تَفْـرِى ما خَلقتَ وبعـ * ـضُ القـوم يَخْلُق ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلَقْتُ إلّا فَرَيْتُ ، ولا وَعَدْتُ إلّا وَفَيْتُ . الثانى : الإنشاء والاختراع والإبداع؛ قال الله تعالى : « وتَخْلُقُونَ إفْكًا (٣) » .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عنـدهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ فى العظة؛ فذكّرهم مَن قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خَلَقهم يميتهـم ؛ وليفكّروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أىّ الأمور مضوْا من إهلاك من أهلك؛ وليعلموا أنهم يُبتلون كما ابتلُوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » متصلة باعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذَرَأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهـذا وما كان مثـله فيما ورد فى كلام الله تعـالى من قوله : « لعلّكم تَعْقِلون ، لعلّكم تَشْكُرون ، لعلّكم تَذَكَّرُون ، لعلّكم تَهْتَدُون » فيه ثلاث تأويلات :

(١) صدر البيت : * تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *

تبارى : تعارض ، يقال : هما يتباريان فى السير ، إذا فعل هـذا شيئا فعل هذا مثله . والعتاق : الكرام من الإبل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : أتبعت وظيفا وظيفا ؛ أى اتبعت هـذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من النـاقة أن تجعـل رجلها فى موضع يدها إذا سارت . والمـور : الطريق (عن شرح المعلقات) . (٢) هو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت إذا قدّرت أمرا قطعته وأمضيته . وغيرك يقدّر ما لا يقطعه ؛ لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٥

الأوّل — أن « لعَـلّ » على بابها من الترجّى والتوقّع ، والترجّى والتوقّع إنما هو فى حيّز البشر ؛ فكأنه قيـل لهم : ٱفعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقـلوا وأن تذكروا وأن تتقوا . هـذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه فى قوله عزّ وجل : « ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » [١] قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى . وٱختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى — أن العرب ٱستعملت « لعَـلّ » مجرّدة من الشك بمعـنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا ؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفُّوا الحروبَ لعلّنا * نَكُفُّ ووثّقتم لنا كلّ مَوْثِقِ
فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كَلَمْعِ سَـرابٍ فى المَـلا مُتألِّقِ

المعنى : كفُّوا الحروب لنكُفّ، ولو كانت «لعل» هنا شكًّا لم يوثقوا لهم كل موثق؛ وهذا القول عن قُطْرُب والطبرى .

الثالث — أن تكون « لعل » بمعنى التعرّض للشىء ؛ كأنه قيل : ٱفعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » : أى لعلكم أن تجعـلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار . وهـذا من قول العرب : ٱتقاه بحقه إذا ٱستقبله به ؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا ٱحمرّ البأس ٱتقينا بالنبىّ صلى الله عليه وسـلم؛ أى جعلناه وقاية لنا من العدوّ . وقال عنترة :

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه * حتى ٱتّقتنى الخيلُ بٱبنى حِذْيَمِ

قوله تعـالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

(١) راجع ج ١١ ص ١٩٩ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعدّيه إلى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ »(1) وقوله : « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » . ويأتى بمعنى سمّى ؛ ومنه قوله تعالى : « حمٓ . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »(2) . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا »(2) . « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا »(2) أى سمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ ؛ كما قال الشاعر(3) :

وقد جعلتْ نفسى تطيبُ لِضَغْمةٍ * لضَغْمِهِما ها يَقرعُ العظمَ نابُها

وقد تأتى زائدة ؛ كما قال الآخر :

وقد جعلتُ أرى الاثنين أربعةً * والواحد اثنين لمّا هدّنى الكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعـالى « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » : إنهـا زائدة . وجعل واجتعل بمعنًى واحد ؛ قال الشاعر(4) :

ناط أمْرَ الضِّعافِ واجتعل الليـ * ـلَ كحَبْـلِ العـادِيَّةِ الممـدُودِ

﴿ فِراشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرّون عليهـا . وما ليس بفراشٍ كالجبال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها ؛ لأن الجبال كالأوتاد ؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا »(5) . والبحار تركب إلى سائر منافعها ؛ كما قال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ »(6) .

الثانيـــة — قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبـات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث ؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عُرْفًا .

(1) راجع ج ٦ ص ٣٣٥ و ٣٨٦ . (2) راجع ج ١٦ ص ٦١ و ٦٩ و ٧١ .

(3) هو مغلس بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ؛ فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لإصابتهما بمثل الشدّة التى أصابانى بهـا . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابهـا . فجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيهـا إلى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(4) هو أبو زبيـد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقـول : جعل يسير الليـل كله مستقيا كاستقامة حبل البئر إلى المـاء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) . (5) راجع ج ١٩ ص ١٦٩ .

(6) راجع ج ٢ ص ١٩٤ .

وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ السماء للارض كالسّقف للبيت؛ ولهذا قال وقــوله الحق : « وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا »[1] . وكل ما علا فأظلّ قيل له سمـاء ؛ وقـد تقدّم القول فيه[2] . والوقف على «بِناء» أحسن منه على «تَتَّقُونَ»؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرب . ويقال : بَنَى فلان بيتًا ، و بنى على أهله — بِناء فيهما — أى زَفّها . والعامة تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛ وكأنّ الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّةً ليلة دخوله بها؛فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ. و بُنَى(مقصورا) شدّد للكثرة، وٱبتنى دارا وبَنَى بمعنًى ؛ ومنه بنيان الحائط ؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ ، قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ ، فٱلتقى حرفان خفيّان فأبدلت من الهاء همزة؛لأنها أجلد،وهى بالألف أشبه؛ فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، و بعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، و بعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، و إن شئت بثلاث ؛ فإذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل فقالوا : مُوَيْه وأَمْوَاه ومِيَاهٌ ؛ مثل جِمَال وأجْمَال .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ الثمرات جمـع ثمرة . ويقال : ثَمَر مثل شَجَر . و يقال ثُمُر مثل خُشُب . و يقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمَار مثل إكام جمع ثمر . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأنعام»[3] إن شاء الله . وثمار السّياط : عُقَدُ أطرافها.

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات.﴿رِزْقًا﴾ طعاماً لكم، وعَلَفًا لدوابّكم ؛ وقد بيّن هذا قوله تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَآئِقَ غُلْبًا . وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا . مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »[4] . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفًى[5] والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩

(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢١٨ (٥) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

فإن قيل : كيف أطلق ٱسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملّك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك ويصح بها الٱنتفاع ؛ فهى رزق .

الخامســـة ــ قلت : ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق ؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرًا إلى هــذا المعنى : " والله لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فيَحْتَطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه ". أخرجه مسلم . ويدخل فى معنى الٱحتطاب جميـع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زُخرف الدنيا فقــد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء، والمــاء طيبا والكلأ طعاما، ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح[(١)] لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّةٍ فيــه لأحد عليك . وقال نَوْف البِكَالِيّ : رأيت عليّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقِد أنت أم رامق؟ قلت : بل رامق يا أمير المؤمنين ، قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ؛ أولئك قوم ٱتخذوا الأرض بساطًا، وتُرابها فِراشا، وماءها طِيبا، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام ... وذكر باقى الخبر، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى : « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ »[(٢)] إن شاء الله تعالى .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَـلُوا ﴾ نَهْىٌ . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ، واحدها نِدّ ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « نِدًّا » ؛ قال الشاعر :

نَحْمَـــدُ الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعلْ

وقال حَسّان :

أتهجوه ولست له بِنِدٍّ * فشرُّكما لخيركما الفِـداء

---

(١) فى الأصول : « أباح » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة ؛ قال لَبِيد :

لكيلَا يكون السَّنْدَرِىّ نَدِيدتِي * وأجعلَ أقواما عُمومًا عَماعِمَا [1]

وقال أبو عبيـدة : « أندادا » أضدادا . النحاس : « أندادا » مفعـول أول ، و « لله » فى موضع الثانى . الجوهرى : والنِّـدّ (بفتح النون) : التَّلّ المرتفع فى السماء . والنَّـدّ من الطيب ليس بعربىّ . ونَدّ البعير يَنِدّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه ؛ ومنه قرأ بعضهم « يَوْمَ التَّنَادِّ [2] » . ونَدّد به أى شهّره وسمّع به .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة فى موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين ؛ عن ٱبن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى . فالجواب من وجهين : أحدهما — « وأنتم تعلمون » يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل المـاء وأنبت الرزق ؛ فيعلمون أنه المنعِم عليهـم دون الأنداد . الثـانى — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هذا دليل على الأمر بٱستعمال حجج العقول وإبطال التقليد . وقال ٱبن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين؛ فالمعنى لا ترتدّوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادًا بعد علمكم الذى هو نَفْىُ الجهل بأن الله واحد .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (٢٣)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أى فى شـك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القـرآن ، والمراد المشركون الذين تُحُدُّوا ، فإنهم لمـا سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هـذا كلام الله ،

---

(١) السندرى : ٱبن يزيد الكلابى ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيـل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعماعم : الجماعات المتفرقون . ومعـنى الشطر الثانى : وأجعل أقـواما مجتمعين فرقا . (عن شرح القاموس واللسان) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١١ .

و إنا لفى شك منه ؛ فنزلت الآية . ووجه آتصالها بمـا قبلها أن الله سبحانه لمـا ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوّة نبيّـه ، وأن ما جاء به ليس مُفْتَرًى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعـنى محمدا صلى الله عليه وسـلم . والعبد مأخوذ من التعبُّـد وهو التذلّل ؛ فسُمِّىَ المملوكُ ـــ من جنس ما يفعله ـــ عبدًا لتذلّله لمولاه ؛ قال طَرَفة :

إلى أن تحامتنِى العشيرة كلها * وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعير المُعَبَّدِ

أي المذلّل . قال بعضهـم : لمـا كانت العبادة أشرف الخصال والتسمى بهـا أشرف الخطط ؛ سُمِّى نبيّه عبدًا ، وأنشدوا :

ياقومِ قلـبى عند زهراءَ * يعـرفه السامعُ والرائى
لاتَدْعُـنِي إلا بِيَا عبدَها * فإنه أشــرف أسمائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، اِئتوا مقصور لأنه من باب المجىء ؛ قاله آبن كَيْسان . وهو أمرٌ معناه التعجيز ؛ لأنه تعالى عَلِم عجزهم عنه . والسورة واحدة السُّوَر . وقد تقدّم الكلام فيها (١) وفى إعجاز القرآن (٢) ، فلا معنى للإعادة . و«مِن» ـــ فى قوله ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ ـــ زائدة ؛ كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى « مثله » عائد على القرآن عند الجمهـور من العلماء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيـل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعـنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه . وقيـل : يعود على النبيّ صلى الله عليه وسـلم . المعنى : من بَشَرٍ أُمِّيّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمِن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على « مثله » ليس بتامّ ؛ لأن « وآدعوا » نَسَقٌ عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفـرّاء : آلهتكم . وقال آبن كَيْسان : فإن قيـل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، و إنما يكون الشهداء ليشهـدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهـدوه ، و إنما قيـل لهم : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » ؟ فالجواب : أن

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٦٩ ـــ ٧٨ من هذا الجزء .

المعــنى ٱستعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهــدوا ما تأتون به ؛ فيكون الردّ على الجميع أوكدَ فى الحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد : معنى «وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ» أى ٱدعوا ناسا يشهدون لكم ؛ أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : « شهداءكم » نصب بالفعل جمع شهيد ؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ ٱللهِ ﴾ أى من غيره ، ودُون نقيض فوق ؛ وهو تقصير عن الغاية ، و يكون ظرفًا . والدُّون : الحقير الخسيس ؛ قال :

إذا ما علا المــرء رام العــلاء * ويقنــع بالدُّون من كان دُونا

ولا يُشتق منــه فعل ؛ و بعضهم يقول منــه : دان يَدُون دَوْنًا . و يقال : هــذا دُون ذاك ؛ أى أقرب منه . و يقال فى الإغراء بالشىء : دُونَكَهُ . قالت تَمِيم للحجاج : أَقْبِرنا[1] صالحًا — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمُوه .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ؛ لقولهم فى آية أخرى : «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا»[2] . والصدق : خلاف الكذب ، وقد صَدَق فى الحديث . والصَّدْق : الصُّلب من الرماح . و يقال : صَدَقُوهم القتال . والصِّدِّيق : الملازم للصدق . و يقال : رجل صِدْقٍ ؛ كما يقال : نِعْمَ الرجل . والصداقة مشتقة من الصدق فى النصح والودّ .

قوله تعــالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى فيما مضى ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أى تُطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تامّ . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وٱدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا ، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على « صادقين » .

---

(١) أقبرنا ، أى ائذن لنا فى أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، و يرى رأى الخوارج .   (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧

فإن قيل : كيف دخلت «إن» على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن «إن» ها هنا غير عاملة فى اللفظ، فدخلت على « لم » كما تدخل على الماضى؛ لأنها لا تعمل فى «لم» كما لا تعمل فى الماضى؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن، ومن العرب من يجزم بها، ذكره أبو عبيدة؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ[1] أَبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ *

وفى حديث ٱبن عمر حين ذُهب به إلى النار فى منامه : فقيل لى «لن تُرَعْ» . هذا على تلك اللغة . وفى قوله : «وَلَنْ تَفْعَلُوا» إثارة لهممهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ٱبن كَيْسان : «ولن تفعلوا» توقيفًا لهم على أنه الحق، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعر، وأنه أساطير الأوّلين؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا» ؛ أى ٱتقوا النار بتصديق النبىّ صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى[2] فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد «فَتَقُوا النار» . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِى، مثل قَضَى يقضى . «النارَ» مفعولة . «التى» من نعتها . وفيها ثلاث لغات : التى واللّتِ (بكسر التاء) واللّتْ (بإسكانها) . وهى ٱسم مُبْهَم للمؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا : اللّتانِ واللّتا (بحذف النون) واللّتانّ (بتشديد النون) . وفى جمعها خمس لغات :

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضت » . وصدر البيت :

* هـذا الثناء فإن تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحيـة كانوا يحيون بهـا الملوك . والصفد : العطاء؛ معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول : هـذا الثناء الصحيح الصادق فمن الحق أن تقبله منى، فلم أمدحك متعرضا لعطائك، لكن امتدحتك إقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

اللَّاتِي ، وهي لغة القرآن . واللّاتِ (بكسر التاء بلا ياء) . واللّواتِي . واللّواتِ (بلا ياء) ؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللّواتِي والّتي واللّاتِي * زعمن أن قد كَبِرَتْ لِداتِي

واللّوا (بإسقاط التاء) ؛ هـذا ما حكاه الجوهري . وزاد ٱبن الشّجري : اللّائي (بالهمز وإثبات الياء) . واللّاءِ (بكسر الهمزة وحذف الياء) . واللّا (بحذف الهمزة) . فإن جمعت الجمع قلت في اللّاتي : اللّواتي . وفي اللّائي : اللوائي . قال الجوهري : وتصغير التي اللُّتَيّا (بالفتح والتشديد) ؛ قال الراجز (١) :

بعد اللُّتَيّا واللَّتَيّا والّتِي * إذا عَلَتْهَا أنفسٌ تَرَدَّتِ

وبعض الشعراء أدخل على « التي » حرف النـداء ، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله ، وحده . فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ؛ وقال :

من ٱجلكِ يا الّتي تَيَّمْتِ قلبي * وأنت بخيــلةٌ بالـوُدّ عنّي

ويقال : وقع فلان في اللّتَيَا والّتِي ؛ وهما ٱسمان من أسماء الدّاهية . والوقود (بالفتح) : الحطب . وبالضم : التوقد . و «الناس» عموم، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطباً لها ؛ أجارنا الله منها . «والحجارة» هي حجارة الكبريت الأسود — عن ٱبن مسعود والفرّاء — وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الاتقاد، نتن الرائحة ، كثرة الدخان، شدّة الالتصاق بالأبدان ، قوة حَرِّها إذا حَمِيَت . وليس في قوله تعالى : «وَقُودُهَا النّاسُ وَالحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة؛ بدليل ما ذكره في غير موضع من كَوْن الجنّ والشياطين فيها . وقيل: المراد بالحجارة الأصنام؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (٢) » أي حطب جهنم . وعليه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار؛ وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس.

---

(١) هو العجاج . وصف دواهي شنيعة . يقول : بعـد الجهد والمشرف الذي أشرفت عليه . ومعني تردت : سقطت هاوية وهلكت . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣

وعلى التأويل الأوّل يكونون معذّبين بالنار والحجارة . وقد جاء الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلُّ مُؤْذٍ فى النار " . وفى تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس فى الدنيا عذّبه الله فى الآخرة بالنار . الثانى — أن كل ما يؤذى الناس فى الدنيا من السباع والهوام وغيرها فى النار مُعَدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصّةً . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح[1] — فى رواية — ولولا أنا لكان فى الدَّرْكِ الأسفل من النار " . «وَقُودُهَا» مبتدأ. « النَّاسُ » خبره . « والحجارةُ » عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف : «وُقُودها» (بضم الواو) . وقرأ عُبيد بن عُمير : «وَقِيدُها النَّاسُ» . قال الكسائى والأخفش : الوقود (بفتح الواو) : الحطب ، و (بالضم) : الفعل ؛ يقال : وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُودًا (بالضم) ووَقَدًا وقِدَةً [ووَقِيدا ووَقْدًا][2] ووَقَدَانًا ، أى توقّدت . وأوقدتها أنا واستوقدتها أيضا . والاتّقاد مثل التَّوَقُّد ، والموضع مَوْقِد ؛ مثل مجلِس ، والنار مُوقَدة . والوَقْدة : شدّة الحرّ ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يُقرأ إلا «وَقُودها» [بفتح الواو][3] لأن المعنى حطبها ؛ إلا أن الأخفش قال : وحُكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر. قال النحاس : وذهب إلى أن الأول أكثر ، قال : كما أن الوَضوء الماءُ ، والوُضوء المصدر.

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة ؛ على ما يأتى. وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطى الأندلسى. روى مسلم عن عبد الله بن مسعود[4] قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وَجْبَة[5] ؛

(١) الضحضاح فى الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، واستعير للنار .
(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .
(٤) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : « عن أبى هريرة » . (٥) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له ، كالهدّة .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " تدرون ما هذا " قال قلنا : الله ورسـوله أعلم ؛ قال : " هذا حَجَر رُمِىَ به فى النار منذ سبعين خَرِيفًا فهو يَهْوِى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها " .

وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " احتجّت النار والجنة فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هـذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهـذه أنتِ عذابى أعذِّب بِكِ من أشاء وقال لهـذه أنتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها ". وأخرجه مسلم بمعناه (١) . يقال : احتجّت بمعنى تحتج ؛ للحديث المتقـدم حديث ابن مسعود (٢) ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قد أرِيهما فى صـلاة الكسوف ، ورآهمـا أيضا فى إسرائه ودخل الجنـة ؛ فلا معنى لمـا خالف ذلك . وبالله التوفيق . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجـوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَـدّة ، وأضمرت معه قد ؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ (٣) » فمعناه قد حصرت صدورهم ؛ فمع « حَصِرت » قد مضمرة لأن المـاضى لا يكون حالا إلا مع قد؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على « الحجارة » .

ويجوز أن يكون كلامًا منقطعًا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ (٤) » .

وقال السِّجِسْتَانى : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » من صـلة « الّتِى » ؛ كما قال فى آل عمـران : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٥) » . ابن الأنبارِىّ : وهذا غَلَط ؛ لأن التى فى سورة البقرة قد وُصلت بقوله : « وَقُودُهَا النَّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفى آل عمران ليس لها صلة غير « أُعِدّتْ » .

قوله تعـالى : وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) بمراجعة صحيحى البخارى ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخارى بمعناه .

(٢) يلاحظ أن راوى الحديث المتقدم فى صحيحى مسلم والبخارى أبو هريرة .

(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٠٩ . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٣ . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٠٢ .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشير الإخبار بما يَظهر أثره على البَشرة — وهى ظاهر الجلد — لتغيّرها بأوّل خبر يَرِد عليك ؛ ثم الغالب أن يُستعمل فى السرور مقيَّدًا بالخير المُبَشَّر به ، وغير مقيَّدٍ أيضا . ولا يُستعمل فى الغمّ والشّر إلّا مُقَيَّدًا منصوصًا على الشر المبشَّر به ؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بَشَرته و بَشّرته — مخفّف ومشدّد — بِشارة (بكسر الباء) فأبشر وٱستبشر . و بَشِر يَبْشَر إذا فَرِح . ووجه بشير إذا كان حَسَنًا بيّن البَشارة (بفتح الباء) . والبُشْرَى : ما يُعطاه المُبَشِّر . وتباشير الشىء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلَّف إذا قال : مَن بَشّرنى مِن عبيدى بكذا فهو حُرٌّ ، فبَشّره واحد من عبيـده فأكثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دون الثانى . وٱختلفـوا إذا قال : مَن أخبرنى من عبيدى بكذا فهو حُرٌّ فهل يكون الثانى مثل الأوّل ؛ فقال أصحاب الشافعى : نعم ؛ لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ؛ لأن المكلَّف إنما قصـد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأوّل ، وهذا معلوم عُرْفًا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمـد ٱبن الحسن بين قـوله : أخبرنى ، أو حَدّثنى ؛ فقـال : إذا قال الرجل أىّ غلام لى أخبرنى بكذا ، أو أعلمنى بكذا وكذا فهو حُرٌّ — ولا نيّةَ له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتق ؛ لأن هذا خبر . و إن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق ؛ لأنه قال : أىّ غلام أخبرنى فهـو حُرٌّ . ولو أخبروه كلّهـم عَتَقوا ؛ و إن كان عَنَى — حين حلف — بالخبر كلام مشافهة لم يَعْتِق واحدٌ منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : و إذا قال أىّ غلام لى حَدّثنى ؛ فهذا على المشافهة ، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ رَدّ على من يقول : إن الإيمان بمجرّده يقتضى الطاعات ؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها ؛ فالجنـة تُنال بالإيمان والعمل الصالح . وقيل : الجنة تُنال بالإيمان ؛ والدّرجات تُستحقّ بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « بَشِّر » ، والمعنى و بشّر الذين آمنوا بأن لهم ، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل . وقال الكسائى و جماعة من البصريين : « أنّ » فى موضع خفض بإضمار الباء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب اسم « أنّ » ، « وأنّ » وما عملت فيه فى موضع المفعول الثانى . والجنّات : البساتين؛ و إنما سُمِّيت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنه : المِجَنّ والجَنِين والجنة .

﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع النعت لجنات، وهو مرفوع ؛ لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها، ولم يجر لها ذكر، لأن الجنّات دالة عليها .

﴿ ٱلأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار؛ فنُسب الجرى إلى الأنهار توسُّعًا، و إنما يجرى الماء وحده فحذف اختصارا؛ كما قال تعالى : «وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ»[1] أى أهلها . وقال الشاعر[2] :

نُبِّئتُ أن النار بعدك أُوقِدت * وٱستبّ بعدك يا كليبُ المجلِسُ

أراد : أهل المجلس؛ فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت، أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس ابن الخَطِيم :

مَلَكْتُ[3] بها كَفّى فأنهرت فَتْقَها * يرى قائم من دونها ما وراءَها

أى وسّعتها؛ يصف طَعْنة . ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما أنهر الدّم وذُكر ٱسم الله عليه فكُلُوه" . معناه : ما وسّع الذبح حتى يجرى الدّمُ كالنهر . و جمع النَّهَر : نُهُر وأنهار . ونَهْر نَهِر : كثير الماء؛ قال أبو ذُؤيب :

أقامت به فٱبتنت خَيْمَةً * على قَصَبٍ وفُرَاتٍ نَهِرْ[4]

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦ (٢) هو مهلهل أخو كليب . (٣) ملكت : أى شددت وقويت .
(٤) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى إلى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب؛ وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على «الأنهار» حَسَن وليس بتام؛ لأن قوله : «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ» من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدره؛ وقد تقدّم القول فى الرزق[١] . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا؛ وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزِقنا فى الدنيا؛ لأن لَوْنها يشبه لون ثمار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل : « مِن قبلُ » يعنى فى الجنة لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمار فى أول النهار فأكلوا منها ، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رُزقنا مِن قبل؛ يعنى أُطْعِمْنا فى أول النهار؛ لأن لونه يُشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وَجَدُوا لها طعمًا غير طعم الأوّل .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلوا من أتيت . وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء . وقرأ هارون الأعْوَر «وأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة؛ وفى الثانية للخدام .

﴿ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ حال من الضمير فى « به » ؛ أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ٱبن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عِكْرِمة : يُشبه ثمَرَ الدنيا ويباينه فى جُلّ الصفات . ٱبن عباس : هذا على وجه التعجُّب؛ وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء؛ فكأنهم تعجّبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خياراً لا رَذْل فيه؛ كقوله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ ٱبتداء وخبر . وأزواج : جمع زَوْج . والمرأة : زَوْج الرجل . والرجل زَوْج المرأة . قال الأصمعىّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفَرّاء أنه يقال : زوجة؛ وأنشد الفَرَزْدَق :

وإن الذى يَسْعَى لِيُفْسِد زَوْجتى * كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُها[٢]

---

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها : أى يأخذ بولها فى يده .

وقال عمّار بن ياسر فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ٱبتلاكم . ذكره البخارى ، وٱختاره الكسائى .

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج. ومُطَهَّرةٌ فى اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات . ذكر عبد الرازق قال أخبرنى الثَّوْرِىّ عن ٱبن أبى نَجِيح عن مجاهد : « مطهرة » قال : لا يَبُلْنَ ولا يَتَغَوَّطْنَ ولا يَلِدْن ولا يَحِضْنَ ولا يَمنين ولا يَبْصُقْنَ . وقد أتينا على هـذا كلّه فى وصف أهل الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ « هم » مبتدأ . « خالدون » خبره ، والظرف مُلْغًى . ويجـوز فى غير القرآن نصب خالدين على الحـال . والخلود : البقاء؛ ومنه جَنّة الخُلْد . وقد تستعمل مجازًا فيما يطول ؛ ومنه قولهم فى الدعاء : خَلّد الله مُلْكه ، أى طوّله . قال زُهَيْر :

ألا لا أرى على الحوادث باقيا * ولا خالدًا إلا الجبالَ الرواسيا

وأمّا الذى فى الآية فهو أبدىّ حقيقةً .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ قال ٱبن عبـاس فى رواية أبى صالح : لمّـا ضرب الله سبحانه هـذين المثلين للمنافقين : يعنى « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » قالوا : الله أجلّ وأعلى من أن يضرب الأمثال ؛ فأنزل الله هذه الآية . وفى رواية عطاء عن ٱبن عباس قال : لمـا ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ »[1] وذكر كَيْدَ الآلهة

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٧

فجعله كبَيْت العنكبوت ، قالوا : أرأيتَ حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القـرآن على محمد ، أىّ شىء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لمـا ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضربَ للمشركين به المَثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية .

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِيُ ، عينه ولامه حَرْفَا علة ؛ أُعِلّت اللام منه بأن ٱستثقلت الضمة على الياء فسكنت . وٱسم الفاعل على هـذا : مستحيٍ ، والجمع مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن «يستحِى» بكسر الحاء و ياء واحدة ساكنة ؛ ورُوِى عن ٱبن كَثِير ، وهى لغة تميم و بكر ٱبن وائل ؛ نُقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم ٱستثقلت الضمة على الثانيـة فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ وٱسم الفاعل مُسْتَحٍ ، والجمـع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . وٱختلف المتأولون فى معنى «يستحيي» فى هذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى ؛ ورجّحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : « وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ »(١) بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الٱستحياء الٱنقباض عن الشىء والٱمتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح ؛ وهذا مُحال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أمّ سَلَمة رضى الله عنها قالت : جاءت أمّ سُلَيم إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ «يضرب» معناه يبيّن ، و «أن» مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف مِن . «مَثَلًا» منصوب بيضرب . «بَعُوضَةً» فى نصبها أربعة أوجه :

الأوّل — تكون « ما » زائدة ، و « بعوضةً » بدلا من « مَثَلًا » .

الثـانى — تكون «ما» نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مَثَلًا» . و «بعوضةً» نعت لمـا ؛ فوصفت « ما » بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليـل ؛ قاله الفَرّاء والزّجاج وثَعْلَب .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٠

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجار، المعنى أن يضرب مثلًا مّا بين بعوضـة؛ فحذفت « بين » وأعربت بعوضة بإعرابها؛ والفاء بمعنى إلى، أى إلى ما فوقها. وهـذا قول الكسائى والفرّاء أيضا؛ وأنشد أبو العباس:

يا أَحْسَنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَـدَمٍ * ولا حِبـالَ مُحِبٍّ واصـلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن، فلما أسقط « بين » نصب.

الرابـع — أن يكون « يضرب » بمعنى يجعل، فتكون « بعوضةً » المفعول الثـانى. وقرأ الضحاك وإبراهيم بن أبى عَبْلَة ورُؤبة بن العَجّاج « بعوضةٌ » بالرفع، وهى لغـة تميم. قال أبو الفتـح: ووجه ذلك أن « ما » آسم بمنزلة الذى، و « بعوضـةٌ » رفع على إضمـار المبتدأ، التقدير: لا يستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ. ومثله قراءة بعضهـم: « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن. وحكى سيبويه: ما أنا بالذى قائل لك شيئا؛ أى هو قائل. قال النحاس: والحذف فى « ما » أقبح منـه فى « الذى »؛ لأن « الذى » إنما له وجه واحد والآسم معه أطول. ويقال: إن معنى ضربت له مثـلا، مَثّلت له مَثَلًا. وهذه الأبنيـة على ضربٍ واحد، وعلى مثـال واحد ونوع واحد؛ والضَّرْبُ النَّوْع. والبَعُوضة: فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم؛ يقال: بَضَع وبَعَض بمعنًى، وقد بعّضته تبعيضًا، أى جزّأته فتبعّض. والبَعُوض: البَـقّ[1]، الواحدة بعوضة؛ سُمّيت بذلك لصغرها. قاله الجوهرى وغيره.

قوله تعالى: ﴿ فَمَـا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى، ومن جعل «ما» الأولى صلة زائدة فـ «ما» الثانية عطف عليها. وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما: معنى « فما فوقها » — والله أعلم — ما دونها؛ أى إنهـا فوقها فى الصغر. قال الكسائى: وهـذا كقولك فى الكلام: أتراه قصـيرا؟ فيقول القائل: أو فوق ذلك؛ أى هو أقصر ممـا ترى. وقال قتادة وآبن جُريج: المعنى فى الكِبَر. والضمير فى «أنّه» عائد على المَثَل؛ أى إن المَثَل حق.

(١) قال الدميرى: « هو وهم ». وذكر البعوض بأوصافها. ويدل على أن البعوض غير البق ما ورد عنـه صلى الله عليه وسلم: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة..." الحديث.

والحق خلاف الباطل . والحـق : واحد الحقوق . والحَقّة (بفتح الحاء) أخص منـه ؛ يقال : هذه حَقّتي ، أي حَقّ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم و بنى عامر فى « أمّا » أَيْمَا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا يُنْشد بيتُ عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أيْمَا إذا الشمس عارضتْ * فيَضْحَى وأيْمَا بالعشىّ فيَخْصَرُ[1]

قوله تعـالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ آختلف النحويون فى « ماذا » ، فقيل : هى بمنزلة آسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بـ«ـأراد» . قال آبن كَيْسان : وهو الجيّد . وقيل : « ما » آسم تام فى موضع رفع بالآبتداء؛ و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الآبتـداء ، و يكون التقـدير : ما الذى أراده الله بهـذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الإنكار بلفظ الآستفهام . و « مَثَلًا » منصوب على القطع ؛ التقدير : أراد مثلا؛ قاله ثَعْلَب . وقال آبن كَيْسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعـالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ؛ أى ما مراد الله بهذا المَثَل الذى يفرّق به الناس إلى ضلالة و إلى هُدًى . وقيـل : بل هو خبر من الله عز وجل ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهُـدَى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا؛ أى يوفّق ويَخْذل؛ وعليه فيكون فيه ردّ على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعـنى « يُضِلّ بِهِ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سَمّيته فاسقا ؛ لأن الله تعالى لا يُضل أحدًا . هذا طريقهم فى الإضلال، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغـة ؛ لأنه يقال : ضَلّله إذا سمّاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضـله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

(١) الخصر (بالتحريك) : البرد .

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ أنه من قول الله تعالى . و«الفاسقين» نصب بوقوع الفعل عليهم ، والتقـدير : وما يُضـل به أحدا إلا الفاسقين الذين سبق فى علمه أنه لا يهديهـم . ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمامِ الكلام . وقال نَوْف البِكالِيّ : قال عزير فيما ينـاجى ربّه عزّ وجلّ : إلهى تخلق خلقًا فتُضِل من تشاء وتهـدى من تشاء . قال فقيل : يا عزير أعرض عن هذا ! لتُعْرِضُنّ[1] عن هذا أو لأمْحُوَنّك من النبوّة، إنى لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون . والضلال أصله الهلاك؛ يقال منـه : ضلّ الماءُ فى اللبن إذا آستهلك؛ ومنه قوله تعالى : « أئذا ضَلَلْنَا فى ٱلْأَرْضِ[2] » وقـد تقدّم فى الفاتحة[3] .

والفِسْق أصـله فى كلام العرب الخروج عن الشىء؛ يقال : فَسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها؛ والفأرة من جُحْرها . والفُوَيْسِقة : الفأرة؛ وفى الحديث : " خمسٌ فواسـقُ يُقْتَلْنَ فى الحِلّ والحَرَم الحيّة والغراب الأبقعُ والفأرة والكلب العَقُور والحُدَيّا " . روته عائشة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، أخرجه مسلم . وفى رواية "العقرب" مكان "الحية" . فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها آسم الفسق لأذيّتها؛ على ما يأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا ـ عن الأخفش ـ فِسْقًا وفُسوقًا، أى فجَر . فأمّا قوله تعالى : «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج . وزعم آبن الأعرابىّ أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهليـة ولا فى شـعرهم فاسق[4] . قال : وهـذا عجب ، وهو كلام عربىّ حكاه عنـه آبن فارس والجوهرى .

قلت : قـد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له لمـا تكلم على معنى الفسـق قول الشاعر :

يَذْهَبْنَ فى نَجْـدٍ وغَوْرًا[5] غائرا * فواسـقًا عن قَصْـدها جَوائرا

(١) فى نسخة من الأصل : أعرض عن هذا و إلا محوتك من النبوّة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١

(٣) راجع ص ١٥٠ (٤) أى بمعنى الخارج من طاعة الله ، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية .

(٥) غورا ، منصوب بفعل محذوف ؛ أى ويسلكن . (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٩ طبع بولاق) .

والفِسِّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ و ياخُبَثُ، يريد : يأيها الفاسق، و يأيها الخبيث . والفِسْق فى عُرْف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِين ﴾ « الَّذين » فى موضع نصب على النّعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ٱبتداء محذوف؛ أى هم الذين . وقد تقدّم (١) .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ يَنْقُضُونَ ﴾ النَّقْض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عَهد . والنُّقَاضة . ما نُقِض من حبل الشَّعر . والمُناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقِيضة فى الشِّعر: ما يُنْقَض به . والنِّقْض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هـذا العهد؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين ٱستخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمْرُه إيّاهم بما أمرهم به من طاعته، ونَهْيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسنة رسله؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيـل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيّته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيـل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج: عهده جل وعز ما أخذه على النبيّين ومن ٱتبعهم ألا يكفروا بالنبىّ صـلى الله عليـه وسلم . ودليـل ذلك : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ (٢) » إلى قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى » أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبلُ وما بعـدُ يدلّ على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثانى يجمعها .

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق : العهد المؤكّد باليمين ؛ مِفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقــد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل ؛ لأن أصل مِيثاق مِوْثاق ، صارت الواو ياء لآنكسار ما قبلها — والميائق والمياثيق أيضا ؛ وأنشد آبن الأعرابى :

حِمىً لا يُحَـلّ الدهرَ إلا بإذننا * ولا نسأل الأقوامَ عَهْدَ المياثِقِ[1]

والمَوْثق : المِيثاق . والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ ﴾ القطع معروف ، والمصدر — فى الرَّحِم — القطيعة ؛ يقال : قَطَع رَحِمه قَطِيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة ؛ مثال هُمَزة . وقَطَعت الحبــل قطعًا . وقَطَعت النهر قُطُوعا . وقَطَعتِ الطيرُ قُطوعا وقُطَاعًا وقِطَاعًا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعَةٌ : إذا قلّت مياههم . ورجل به قُطْعٌ : أى آنبهار[2] .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَـلَ ﴾ « ما » فى موضع نصب بـ « يَقْطَعُون » . و « أَنْ » إن شئت كانت بدلا من « ما » وإن شئت من الهاء فى « به » وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئـلا يوصل ؛ أى كراهة أن يوصـل . وآختلف ما الشىء الذى أَمَر بوصله ؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ؛ فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهى عامة فى كل ما أمر الله تعـالى به أن يوصل . هـذا قول الجمهور ؛ والرَّحِم جزء من هذا .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى يعبـدون غير الله تعـالى ويجورون فى الأفعال ، إذ هى بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

---

(١) فى اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : « عقد الميثاق » والبيت لعياض بن درة الطائى .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء . وقيل آنقطاعه .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ابتداء وخبر . و«هم» زائدة؛ ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ ، « الخاسرون » خبره ، والثانى وخبره خبر الأوّل كما تقــدّم[1] . والخاسر : الذى نقص نفسه حَظّها من الفلاح والفَوْز . والخُسْران : النقصان ، كان فى ميزان أو غيره ؛ قال جَرير :

إن سَلِيطًا فى الخَسَار إنّهْ * أولادُ قومٍ خُلِقوا أقِنّــهْ[2]

يعنى بالخَسَار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسِرت الشيء (بالفتح) وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرَى : الضلال والهلاك . فقيل للهالك : خاسر ؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعــة — فى هــذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهــدٍ جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحل له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره ؛ لذمّ الله تعالى مَن نقض عهده . وقــد قال : « أَوْفُــوا بِالْعُقُودِ[3] » وقد قال لنبيّه عليه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » فنهاه عن الغَدْر ، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد ؛ على ما يأتى بيانه فى موضعه[4] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

« كيف » سؤال عن الحال ، وهى ٱسم فى موضع نصب بـ « تَكْفُرُونَ » ، وهى مبنيّة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ؛ لأن فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، وٱختير لهـا الفتح لخفته ؛ أى هــؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيــل : كيف يجوز أن يكون هــذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لمـا لم يثبتوا أمر محمد عليــه السلام ولم يصدّقوه فيما جاء به فقــد

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى ملك هو وأبواه .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٢ (٤) راجع جـ ٨ ص ٣١

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : « كيف » لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ؛ أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطىّ : وبّخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن المَوَات والجماد لا ينازع صانعه فى شىء، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية.

قوله تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقد مضمرة . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذفت قد . وقال الفرّاء : « أمواتا » خبر « كنتم » .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام، كذا قال أبو حاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من مَوْتة وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم — أى خلقكم — ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذى لا مَحِيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنتْ نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين، ثم للإحياء فى الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذرّ ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا — أى نُطَفًا — فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة ، ثم يميتكم فى القبر، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم، وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا تجىء أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء ثم أماتهم ؛ فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات . وموتة سادسة

للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار؛ لحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحيَوْن ولكنْ ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فَحْماً أُذِن فى الشفاعة فجىء بهم ضَبائِرَ ضَبائِرَ فبُثُّوا على أنهار الجنة ثم قيل يأهل الجنة أفيضوا عليهم فيَنْبُتُون نباتَ الحِبّة تكون فى حَمِيل السَّيْل". فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية (١). أخرجه مسلم.

قلت: فقوله "فأماتهم الله" حقيقة فى الموت؛ لأنه أكّده بالمصدر، وذلك تكريماً لهم. وقيل: يجوز أنْ يكون "أماتهم" عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة؛ والأول أصح. وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكّدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا، وإنما هو على الحقيقة؛ ومثله: «وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا» (٢) على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى. وقيل: المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبيّ الذى جاءكم، ثم يميتكم فيموت ذِكْرُكم، ثم يحييكم للبعث.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى إلى عذابه مرجعكم لكفركم. وقيل: إلى الحياة وإلى المسألة؛ كما قال تعالى: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (٣) فإعادتهم كابتدائهم؛ فهو رجوع. و«تُرْجَعُونَ» قراءة الجماعة. ويحيى بن يَعْمَر وابن أبى إسحاق ومجاهد وابن مُحَيْصِن وسلام ابن يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت.

قوله تعالى: هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

---

(١) الذى فى صحيح مسلم: «... قد كان بالبادية». والضبائر: هم الجماعات فى تفرقة، وواحدتها ضبارة، مثل عمارة وعمائر، وكل مجتمع ضبارة. والحبة (بالكسر): بذور البقل. وقيل هو نبت صغير ينبت فى الحشيش؛ فأما الحبة (بالفتح) فهى الحنطة والشعير ونحوهما. وحميل السيل: هو ما يجىء به السيل من الغُثاء.

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٨ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٨

قوله تعالى : ﴿ هو ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ﴿ خَلَقَ ﴾ معناه آخترع وأوْجد بعد العَدَم . وقد يقال فى الإنسان : «خَلَق» عند إنشائه شيئا ؛ ومنه قول الشاعر :

مَن كان يَخْلُق ما يقو * ل فحِيلَتِي فيـــه قليلَهْ

وقد تقدّم هذا المعنى (١) . وقال آبن كَيْسان : «خَلَقَ لَكُمْ» أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والآعتبار .

قلت : وهـذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيـــة ـــ آستدل من قال إن أصل الأشياء التى يُنتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها ـــ كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ» (٢) الآية ـــ حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدُوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشهية خُلِقت مع إمكان ألا تُخلَق فلم تُخلق عبثًا ؛ فلا بُدّ لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لآستغنائه بذاته ، فهى راجعـة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نَيل لذّتهـا ، أو فى آجتنابهـا لنُختبَر بذلك ، أو فى آعتبارنا بهـا . ولا يحصل شيء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة . وهذا فاسد ؛ لأنا لا نسلّم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلّم حصر المنفعة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق ، بل قد يُستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر كما هو معروف عند الطبائعيين . ثم هو معارَض بمـا يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضـون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما مِن فِعل لا ندرك منه حُسْنًا ولا قُبْحًا إلا ويمكن أن يكون حَسَنًا فى نفسه ، ولا مُعَيِّن قبل ورود الشرع ، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهـذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابُه وأكثرُ المـالكية والصَّيرفىّ فى هـذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء .   (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عندهم أن لا حكم فيها فى تلك الحال ، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره، و إنما حَظُّه تَعَرُّف الأمور على ما هى عليـه . قال ٱبن عطية : وحكى ٱبن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يَخْلُ العقل قطُّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سَمْع ، أوْ لها تعلّق به ، أو لهـا حالٌ تُستصحَب . قال : فينبغى أن يُعتمد على هذا ، ويغنى عن النظر فى حظر و إباحة ووقف .

الثالثـــة — الصحيح فى معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ الآعتبار. يدلّ عليه ما قبـله وما بعده من نصب العِبَر : الإحياء والإماتة والخلق والآسـتواء إلى السماء وتسويتها؛ أى الذى قَدَر على إحيائكم وخَلْقِكم وخلقِ السّموات والأرض،لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى « لكم » الآنتفاع؛ أى لتنتفعوا بجميع ذلك؛ قلنا : المراد بالآنتفاع الآعتبار لمـا ذكرنا . فإن قيل : وأى آعتبار فى العقارب والحيّات ؛ قلنا : قد يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النـار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصى؛ وذلك أعظم الآعتبار . قال ٱبن العربىّ : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرًا ولا إباحةً ولا وقفًا؛ و إنما جاء ذكر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتتقوّوْا به على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وَهَبَ لك الكلَّ وسخّره لك لتستدلّ به على سَعة جُوده ، وتَسْكُن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد ، ولا تستكثر كثير بِرّه على قليل عملك ؛ فقد آبتدأك بعظيم النّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـــة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسأله أن يُعطِيَه ؛ فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "ما عندى شىء ولكن آبتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا" فقال له عمر : هذا أعطيت إذا كان

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلّم قول عمر ؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ،

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعُرف السرور فى وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بذلك أمرت". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : نخوف الإقلال من سوء الظن بالله ؛ لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم ؛ وقال فى تنزيله : «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» ، «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنه» . فهذه الأشياء كلها مسخَّرة للآدمى قطْعًا لعذره وحجة عليه ، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»[1] . وقال : «فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»[2] ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "سَبقتْ رحمتى غضبى يا ٱبن آدم أَنفِق أُنْفِق عليك يَمينُ الله ملأى سَحًّا[3] لا يَغيضها شىءٌ الليلَ والنهارَ". وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهُمَّ أَعطِ مُنفقا خَلَفًا و يقول الآخر اللّهُمَّ أَعط مُمْسكًا تَلَفًا". وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن ٱستنار صدره ، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا وٱجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته ، وٱنقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يعطى من يُسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء ؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيّق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ٱنْفَحِى أو ٱنْضَحِى[4] أو أنفق ولا تُحصِى فيُحصِىَ الله عليكِ ولا تُوعِى فيُوعِىَ[5] عليكِ" . وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ

---

(١) راجع ج ١٤ ص ٣٠٧ (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٠٦ (٣) أى دائمة الصب والهطل بالعطاء .

(٤) قال النووى : «والنفح والنضح العطاء ، ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح» .

(٥) الايعاء : جعل الشئ فى الوعاء ؛ أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك .

سائل مرّة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،فأمرت له بشيء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمَا تريدين ألا يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم ؛ قال : "مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصى فيُحصى الله عزّ وجلّ عليكِ".

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والاستواء فى اللغة : الارتفاع والعلو على الشيء ؛ قال الله تعالى : «فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ» ، وقال «لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ» ، وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بفَيْفاء قَفــرة * وقد حلّق النجم اليمانىّ فاستوى

أى ارتفع وعلا ، واستوت الشمس على رأسى واستوت الطير على قِمّة رأسى ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات ، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه ، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها ؛ وذهب إليه كثير من الأئمة ، وهـذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعـالى : «الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ(١) ٱسْتَوَى» قال مالك : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأولها ونُحيل حَمْلَها على ظاهرها . وقال الفرّاء فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ قال : الاستواء فى كلام العرب على وجهين ، أحدهما : ان يَسْتوِىَ الرجل وينتهى شبابه وقوته ، أو يستوى عن اعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان(٢) فلان مقبلا على فلان ثم استوى علىّ وإلىّ يشاتمنى . على معنى أقبل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى إلى السماء صعِد . وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائما ، وكان قائما فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك فى كلام العـرب جائز . وقال البيهقى أبو بكر أحمـد بن علىّ بن الحسين : قوله :

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٩ (٢) عبارة الأصول : « ... كان مقبلا علىّ يشاتمنى و إلىّ سـواء ، على معنى ... الخ » وبها لايستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبرى .

«آستوى» بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء، والقصد هو الإرادة، وذلك جائز فى صفات الله تعالى . ولفظة «ثم» تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن آبن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبيّ، والكلبيّ ضعيف . وقال سفيان بن عُيينة وآبن كَيسان فى قوله «ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ» : قصد إليها، أى بخلقه وآختراعه؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد؛ وآختاره الطبرى . ويُذكر عن أبى العالية الرياحىّ فى هذه الآية أنه يقال : آستوى بمعنى أنه آرتفع . قال البيهقى : ومراده من ذلك — والله أعلم — آرتفاع أمره، وهو بخار الماء الذى وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال آبن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى آستولى؛ كما قال الشاعر[(١)] :

قد آستوَى بِشْرٌ على العِراق * مِن غيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهْرَاق

قال آبن عطية : وهذا إنما يجىء فى قوله تعالى : «ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ» .

قلت : قد تقدم فى قول الفرّاء علىّ و إلىّ بمعنًى . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى سورة «الأعراف[(٢)]» إن شاء الله تعالى . والقاعدة فى هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادســة — يظهر من هــذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبـل السماء؛ وكذلك فى «حم السجدة[(٣)]» . وقال فى النازعات : «أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا[(٤)]» فوصف خلقها؛ ثم قال : «وَٱلْأَرْضَ بَعْــدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا» . فكأن السماء على هــذا خلقت قبل الأرض؛ وقال تعـالى : «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ[(٥)]» وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أولا؛ حكاه عنه الطبرىّ . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذى كان عرشه عليه، فجعله أرضا وثار منه دخان فآرتفع؛ فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء، ثم قصد أمره إلى السماء فسوّاهن سبع سموات، ثم دحا[(٦)] الأرض بعد ذلك، وكانت إذ خلقها غير مَدْحُوّة .

---

(١) هو الأخطل كما فى شرح القاموس .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٣ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ .
(٦) دحا الشىء : بسطه .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أوّلا دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم آستوى إلى السماء وهى دخان فسوّاها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ومما يدل على أن الدخان خلق أوّلا قبل الأرض ما رواه السُّدّى[1] عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن آبن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانىّ عن آبن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى قوله عزّ وجلّ: «هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ» قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فآرتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والآثنين. فجعل الأرض على حُوت — والحُوت هو النُّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله: «نٓ وَٱلْقَلَمِ»[2] — والحوت فى الماء و[الماء][3] على صِفاة[4]، والصفاة على ظهر ملَك، والملَك على الصخرة، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان: ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرّك الحوت فآضطرب؛ فتزلزلت الأرض؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى: «وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ»[5] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: «قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ»[6] يقول: من سأل فهكذا الأمر، «ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ» وكان ذلك الدخان من تنفّس الماء حين تنفّس؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الإسلامى؛ فجل من له العصمة.

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٣.

(٣) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه.

(٤) الصفاة: العريض من الحجارة الأملس.

(٥) راجع جـ ١٠ ص ٩٠.

(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢.

فيه خلق السموات والأرض، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زيّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زِينة وحِفْظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب آستوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا[1] » وذكر القصة فى خلق آدم عليه السلام ؛ على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبى ظَبْيان عن آبن عباس قال : إن أول ما خلق الله عز وجل من شىء «القلم» فقال له آكتب . فقال : يا ربّ وما أكتب؟ قال : آكتب القَدَر . فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها ، فآرتفع بخار الماء ففتق منه السموات ؛ وآضطرب النُّونُ فمادت الأرض فأُثبتت بالجبال ؛ فإن الجبال تَفْخَر على الأرض إلى يوم القيامة . ففى هذه الرواية خلق الأرض قبل آرتفاع بخار الماء الذى هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أوْلَى ؛ لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا[2] » والله أعلم بما فعل؛ فقد آختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغاغل إلى الحُوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك؛ فبعث الله دابة فدخلت فى منخره ؛ فعجّ إلى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن همّ بشىء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعــة — أصل خلق الأشياء كلّها من الماء لما رواه آبن ماجه فى سننه، وأبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيح مسنده عن أبى هريرة قال قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتــك طابت نفسى وقرت عينى ، أنبئنى عن كل شىء . قال : "كل شىء خُلق من الماء" فقلت : أخبرنى عن

(١) راجع ج ١١ ص ٢٨٢   (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٠٢

شيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة . قال : " أطعِم الطعام وأفشِ السّـلام وصِلِ الأرحام وقُم
الليل والناسُ نيام تدخل الجنة بسلام" . قال أبو حاتم قولُ أبي هريرة : « أنبئْني عن كل شيء »
أراد به عن كل شيء خُلق من المـاء . والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام
إياه حيث قال : " كل شيء خلق من المـاء " وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جُبير
عن ٱبن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أوّل شيء خلقه
الله القَلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون " ويروى ذلك أيضا عن عُبَادة بن الصّامت مرفوعا.
قال البيهقي : وإنمـا أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعـد خلق المـاء والريح والعرش
« القـلم » . وذلك بيّن في حديث عِمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر
عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكي عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال: جاء رجل
إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمـة
والريح والتراب . قال الرجل : فِمّ خُلق هـؤلاء ؟ قال : لا أدرى . قال : ثم أتى الرجل
عبـدَ الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو . قال : فأتى الرجلُ عبدَ الله بن
عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمة والريح والتراب .
قال الرجل : فِمّ خُلق هؤلاء ؟ فتلا عبـد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْه »(1) فقال الرجل : ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهـل بيت النبيّ صلى
الله عليه وسلم . قال البيهقي : أراد أن مصدر الجميع منه ؛ أي من خلقه وإبداعه وٱختراعه .
خلق المـاء أوّلا ، أو المـاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله
أصلا لمـا خلق بعدُ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه، سبحانه جلّ وعزّ.

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع .
ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ ٱلْأَرْضِ
مِثْلَهُنَّ »(2) وقد ٱختلف فيه؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أي في العدد ؛ لأن الكيفية والصفة
مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيل : « ومن الأرض مثلهنّ » أي في غلظهن

(1) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ (2) راجع جـ ١٨ ص ١٧٤

وما بينهنّ . وقيل : هى سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله الداوُدِىّ . والصحيح الأول ؛ وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أخذ شبرا من الأرض ظُلْماً طُوِّقه إلى سبع أرضين ". وعن عائشة رضى الله عنها مثله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبى هريرة : " لا يأخذ أحدٌ شبرا من الأرض بغير حقّه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة][1] " . وروى النّسائى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال موسى عليه السلام يا ربّ علّمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إلٰه إلا الله قال موسى يا ربّ كل عبادك يقول هذا قال قل لا إلٰه إلا الله قال لا إلٰه إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّنى به قال يا موسى لو أن السموات السّبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كِفّة ولا إلٰه إلا الله فى كِفّة مالت بهنّ لا إلٰه إلا الله " . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : بينما نبىّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما هذا " فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هـذا العَنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدْعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الرَّقيع[2] سقفٌ محفوظ ومَوْج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم و بينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم و بينها [مسيرة[3]] خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " [فإن فوق[3] ذلك] سماءين بُعْدُ ما بينهما [مسيرة[3]] خمسمائة سنة " ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : " هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش و بينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذى تحتكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الأرض — ثم قال : — هل تدرون ما تحت ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

(١) الزيادة من صحيح مسلم . (٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا . (٣) زيادة عن صحيح الترمذى .

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة ســنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دُليتم بحبل إلى الأرض السُّفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد : لهبط على عِلم الله وقدرته وسلطانه ، [علم الله وقدرته وسلطانه](1) فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه . قال : هذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضُّحَى — وآسمه مسلم — عن آبن عباس أنه قال : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيّكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن آبن عباس صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبى الضُّحَا(2) عليه دليلا ؛ والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ آبتداء وخبر . « ما » فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ أهل نجد يُميلون ليدلّوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخّمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البدل من الهاء والنون ؛ أى فسوّى سبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوّى بينهنّ سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : آنتصب على الحال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ آبتداء وخبر . والأصل فى « هو » تحريك الهاء ، والإسكان آستخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنّثة ؛ مثل عَنان ، وتذكيرها شاذّ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش ، وسماءة فى قول الزجاج ، وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء «سوّاهنّ» إما على أن السماء جمع وإمّا على أنها مفرد آسم جنس . ومعنى سوّاهنّ سوّى سطوحهنّ بالإملاس . وقيل : جعلهنّ سواء .

---

(1) زيادة عن صحيح الترمذى . (2) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

العــاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق، وهو خالق كل شىء، فوجب أن يكون عالمـا بكل شىء ؛ وقد قال: « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »[1] فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ؛ ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية . وقالت الجَهْمِيّة : عالم بعـلم قائم لا فى محل ، تعالى الله عن قول أهل الزَّيْغ والضلالات؛ والرّد على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال: « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ »[2] ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَـا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ »[3] الآية . وسندلّ على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »[4] إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالُون عن نافـع بإسكان الهاء مِن : هو وهى ، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثُمّ ؛ وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثُمّ . وزاد أبو عَوْن عن الحُلْوانى عن قالُون إسكان الهاء من «أَنْ يُمِلَّ هُوَ» ، والباقون بالتحريك .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَـا مَن يُفْسِدُ فِيهَـا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْـدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مســألة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ و إذا حرفا توقيت ؛ فإذ للمـاضى ، و إذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المُبَرّد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذْ مكروا، و إذ قلت . و إذا جاء « إذا » مع المـاضى كان معناه مستقبلا ؛ كقوله تعـالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّـاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢١٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٩ (٣) راجع جـ ٧ ص ١ (٤) راجع جـ ٢ ص ٣٠١

أى يجىء . وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عبيـدة : « إذ » زائدة ؛ والتقـدير : وقال ربك ؛ وآستشهد بقول الأَسْوَد بن يَعْفُر :

فإذ وذلك لا مَهاةَ لذِكرِه (١) * والدهر يُعْقِب صالحاً بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاجُ والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ؛ لأن «إذ» آسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا آجترام من أبى عبيدة ؛ ذكر الله عن وجل خلق النـاس وغيرهم ؛ فالتقدير وآبتدأ خلقكم إذ قال ؛ فكان هـذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّـــة مَن يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره وآذكر إذ قال . وقيـل : هو مردود إلى قوله تعالى: « ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعـالى وخطابه للملائكة متقرّر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . وهـذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى آرتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المـالك والسيّد والمصلح والجابر ؛ وقد تقدّم بيانه (٢) .

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها مَلَك . قال آبن كَيْسان وغيره: وزن مَلَك فَعَـل من الملك . وقال أبو عبيدة ؛ هو مفعل من لأَكَ إذا أرسـل . والأَلُوكة والمـأْلَكة والمـأْلُكة : الرسالة ؛ قال لَبِيد :

وغلامٍ أرســلَتْهُ أمُّه * بأَلُوكٍ فبذلْنا ما سأَلْ

وقال آخر (٣) :

أبلِــغ النُّعمانَ عنّى مَأْلُــكًا * إننى قدطال حبسى وآنتظارى

---

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فإذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء . (٣) هو عدي بن زيد؛ كما فى اللسان مادّة (ألك) . ويروى «إنه» بدل : «إننى»

ويقال : أَلِكْنِي أى أرسلنى ؛ فأصله على هـذا مَأْلَك ، الهمزة فاء الفعل فإنهـم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلْأَك ، ثم سهّلوه فقالوا مَلَك . وقيل أصـله مَلْأَك من مَلَك يملِك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن ٱبن كَيْسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشـعر على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنْسِيٍّ ولكن لِمَـلْأَك * تنزّل من جوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل : لا ٱشتقاق للملك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ؛ ومثله الصَّلادمة . والصَّلادم : الخيل الشّداد ، واحدها صِلْدِم . وقيل : هى للمبالغة ، كعلّامة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لٱستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبـادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهـم ؛ فقال عز وجل : « ٱسْجُدُوا لآدَمَ » .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعل» هنا بمعنى خالق ؛ ذكره الطبرى عن أبى رَوْق ، ويقضى بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد ، وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى ٱبن سابط عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " دُحِيَت الأرض من مكة " ولذلك سُمِّيت أمّ القرى ، قال : وقبر نوح وهود وصـالح وشعيب بين زمزم والرّكن والمقام . و « خليفة » يكون بمعنى فاعل ؛ أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما رُوِيَ . ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أى مخلف ، كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف (بالتحريك) من الصالحين ، و بتسكينها من الطالحين ؛ هذا هو المعروف ، وسيأتى له مزيد بيان فى «الأعراف»[1] إن شاء الله . و«خليفة» بالفاء قراءة الجماعة ؛ إلا ما رُوِيَ عن زيد بن علىّ فإنه قرأ «خليقة» بالقاف . والمعنىّ بالخليفة هنا — فى قول ٱبن مسعود وٱبن عباس و جميع أهل التأويل — آدم عليه السلام ، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ؛ لأنه أول رسول إلى الأرض ؛ كما فى حديث أبى ذرّ ، قال قلت : يارسول الله أنبيًّا كان مرسَلًا ؟ قال : " نعم " الحديث . و يقال : لمن كان رسولا ولم يكن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٠

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا، كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً(١) » . وأنزل عليهم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير. وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة . ورُوى عن وهب بن مُنَبّه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم .

الرابعـة — هذه الآية أصلٌ فى نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما رُوى عن الأصمّ(٢) حيث كان عن الشريعة أصمّ ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفَىء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على مَن وجبت عليه، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إمامًا يتولى ذلك . ودليلُنا قولُ الله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً »، وقوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ »، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سَقيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصـار : منا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهـم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ، ورووا لهم الخبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لما ساغت هـذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنها ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصدّيق رضى الله عنه لما حضرته الوفاة عهـد إلى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هـذا أمر غير

(١) راجع جـ ٤ ص ٢

(٢) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

واجب علينا ولا عليك ؛ فدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدِّين الذى به قوام المسلمين ، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، و إن السمع إنمـا ورد على جهة التأكيد لقضـية العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرَك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد ؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يُقبِّح ولا يُحسِّن ؛ و إذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســـة ــ إذا سُلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، نخبّرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة ٱختيار أهل الحَلّ والعَقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : ٱختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يُعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للٱختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، و إجماع أهل الٱجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بَنَوْه على أصلهم أن القياس والرأى والٱجتهاد باطل لا يُعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم ٱختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النص على أبى بكر ، وفرقة تدّعى النص على العباس ، وفرقة تدّعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعةَ إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك ؛ لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معيّن ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ و إذا وجب العلم به لم يَخْلُ ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلّة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معيّن ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورةً أو ٱستدلالا ، أو يكون من أخبـار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالة، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن وأن ذلك من دين الله عليه ، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات ، وصوم رمضان ، وحج البيت ونحوها؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة ، فبطلت هـذه الدعوى ، و بطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به . وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأى وجه كان ، وجب إثبات إمامة أبى بكر والعباس ؛ لأن لكل واحد منهما قوماً ينقلون النّص صريحا فى إمامته ؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص فى وقت واحد — على ما يأتى بيانه — كذلك الواحد، إذ ليس أحد الفِرق أَوْلى بالنص من الآخر . و إذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد . فإن تعسّف متعسِّف وادّعى التواتر والعلم الضرورى بالنّص فينبغى أن يقابَلوا على الفَور بنقيض دعواهم فى النّص على أبى بكر و بأخبـار فى ذلك كثيرة تقوم أيضا فى جملتها مقام النص؛ ثم لا شك فى تصميم مَن عدا الإماميّة على نفى النّص؛ وهم الخلق الكثير والجمّ الغفير. والعلم الضرورى لا يجتمع على نفيه من ينحطّ عن معشار أعداد مخالفى الإماميـة ؛ ولو جاز ردّ الضرورى فى ذلك لجاز أن ينكر طائفة بَغـداد والصين الأقصى وغيرهما .

السادســة — فى ردّ الأحاديث التى احتجّ بها الإمامية فى النّص على علىّ رضى الله عنه ، وأن الأمة كفَرت بهذا النّص وارتدّت ، وخالفت أمر الرسول عنادا؛ منها قوله عليه السلام : "مَن كنتُ مولاه فعلىّ مولاه اللّهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه" . قالوا : والمَوْلى فى اللغة بمعنى أَوْلَى ؛ فلما قال : "فعلىّ مولاه" بفاء التعقيب عُلِم أن المراد بقوله « مولى» أنه أحق وأَوْلى . فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة؛ وقوله عليه السلام لعلىّ : "أنت مِنّى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى" . قالوا : ومنزلة هارون معروفة ، وهو أنه كان مشاركا له فى النبوّة ولم يكن ذلك لعلىّ ، وكان أخاً له ولم يكن ذلك لعلى ، وكان خليفة؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة ، إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتى ذكره فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

والجواب عن الحديث الأوّل : أنه ليس بمتواتر، وقد ٱختلِف فى صحته ، وقد طعن فيه أبو داود السِّجستانى وأبو حاتم الرازىّ، وٱستدلا على بطلانه بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "مُزَيْنَةُ وجُهَيْنةُ وغِفَارُ وأَسْلَمُ موالىّ دون الناس كلهم ليس لهم مَوْلًى دون الله ورسوله". قالوا : فلو كان قد قال : " مَن كنتُ مولاه فعلىّ مولاه " لكان أحد الخبرين كذباً .

جواب ثان — وهو أن الخبر و إن كان صحيحًا رواه ثِقةٌ عن ثِقَة فليس فيــه ما يدل على إمامته ، و إنما يدل على فضيلته، وذلك أن المولى بمعنى الولىّ ، فيكون معنى الخبر : مَن كنت وَلِيّه فعلىّ وَلِيه؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » أى وَلِيّه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر علىّ كباطنه، وذلك فضيلة عظيمة لعلىّ .

جواب ثالث — وهو أن هــذا الخبر ورَد على سبب، وذلك أن أسامة وعليًّا ٱختصما ، فقال علىّ لأسامة : أنت مولاى . فقال : لستُ مولاك، بل أنا مَوْلَى رســولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ فذكر للنبىّ صلى الله عليه وسلم، فقال : " مَن كنتُ مولاه فعلىّ مولاه " .

جواب رابع — وهو أن عليًّا عليه السلام لمـا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى قصة الإفْك فى عائشة رضى الله عنها : النساء سواها كثير . شقّ ذلك عليها، فوجد أهــل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه ؛ فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردًّا لقولهم ، وتكذيباً لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه؛ ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وســلم إلا ببغضهم لعلىّ عليه السلام . وأما الحديث الثانى فلا خلاف أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتى من بيان وفاتيهما فى سورة « المـائدة »[1] — وما كان خليفةً بعده و إنما كان الخليفة يوشع بن نون ؛ فلو أراد بقوله : " أنت مِنّى بمنزلة هارون من موسى " الخلافة لقال : أنت منى بمنزلة يوشع من موسى ، فلما لم يقل هــذا دلّ على أنه لم يُرِد هذا، و إنمـا أراد أنى ٱستخلفتك على أهلى فى حياتى وغيبوبتى عن أهلى، كما كان هارون خليفةَ موسى على قومه لمـّا خرج إلى مناجاة

(١) راجع ج ٦ ص ١٣١

ربه . وقد قيل : إن هـذا الحديث خرج على سبب ، وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غَزْوة تَبُوك آستخلف عليًّا عليه السلام فى المدينة على أهله وقومه ؛ فأرجف به أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغْضًا وقِلًى له ، فخرج علىّ فلحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا ! فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال : "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى" . وإذا ثبت أنه أراد الاستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا فى هذه الفضيلة غيره ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم آستخلف فى كل غَزاةٍ غزاها رجلًا من أصحابه ، منهم : آبن أم مَكْتُوم ، ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهما من أصحابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وَقّاص وهو خبرُ واحدٍ . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال : "إنهما لا غنى بى عنهما إن منزلتهما منى بمنزلة السمع والبصر من الرأس" . وقال : "هما وزيراى فى أهل الأرض" . ورُوى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى" . وهذا الخبر ورد آبتداء ، وخبر علىّ ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أَوْلى منه بالإمامة ، والله أعلم .

السابعـة — وآختلف فيما يكون به الإمام إمامًا وذلك ثلاث طرق ، أحدها : النص ، وقد تقدّم الخلاف فيه ، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى و بكر آبن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج . وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على أبى بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق ، أو على جماعة كما فعل عمر ، وهو الطريق الثانى ؛ و يكون التخيير إليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم [فى تعيين[1] عثمان بن عفان رضى الله عنه] . الطريق الثالث : إجماع أهل الحَلّ والعَقْد ؛ وذلك أن الجماعة فى مصرٍ من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا آستخلف فأقام أهل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم آجتمعوا عليـه و رَضُوه فإن كل مَن خلفَهم وأمامَهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام ، إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد ؛ لأنها دعوة

(١) الزيادة فى تفسير العلامى نقلا عن القرطبي .

محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لما فى إقامة إمامين من آختلاف الكلمة وفساد ذات البَيْن ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يغِل[(١)] عليهنّ قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاةِ الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة " .

الثامنــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحَلّ والعَقْـد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله ، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضى الله عنه عقد البَيعة لأبى بكر ولم يُنكر أحد من الصحابة ذلك ؛ ولأنه عَقْد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالى : من آنعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر ؛ قال : وهذا مُجْمَعٌ عليه .

التاســعة — فإن تغلب مَن له أهليّة الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا ؛ وقد سُئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى : ما يجب علينا لمن غاب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدّى إليه ما يطالبك من حقه ، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منه ، و إذا ائتمنك على سِرّ من أمر الدِّين لم تُفْشه . وقال آبنُ خُوَيْزِمَنْداد : ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البَيْعة ، والله أعلم .

العاشرة — وآختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود ؛ لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع ، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود ؛ فمن قال بهذا آحتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى إلى أن يدّعى كل مدّع[(٢)] أنه عُقد له سرًّا ، و يؤدّى إلى الهَرْج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان ، خلافا للجُبّائى حيث قال بآعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شُورَى[(٣)] فى ستة دلّ على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

---

(١) روى « لا يغل » بضم الياء وكسر الغين ؛ أى لا يكون معها فى قلبه غش ودغل ونفاق . وروى « لا يغل » بفتح الياء ؛ أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق .

(٢) فى تفسير العلامى : « مبتدع » .

(٣) الستة : هم الذين نصح عمر — رضى الله عنه — للسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدا . وهم : علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله . راجع قصة الشورى فى تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوروبا .

و بينه أن شهادة الآثنين معتبرة ، وما زاد مختلَف فيه ولم يدل عليه الدليل فيجب ألا يعتبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام ؛ وهى أحد عشر :

الأول — أن يكون من صميم قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "الأئمة من قريش" . وقد آختلف فى هذا .

الثانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الآستفتاء فى الحوادث ؛ وهذا مُتّفَق عليه .

الثالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصِيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثُّغور وحماية البيضة[(١)] وردْع الأمة والآنتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

الرابع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل عل هذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه ؛ ولأنه هو الذى يولى القضاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالما بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حُرًّا ؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام و إسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا ، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما و إن آختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا ؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لايجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم ؛ لقوله عليه السلام : "أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

(١) بيضة الاسلام : جماعتهم .

بمن تستشفعون ". وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ »(١) فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدلّ على القوة وسلامة الأعضاء. وقوله : «ٱصطفاه» معناه ٱختاره؛ وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ، ولا عالما بالغيب، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش؛ فإن الإجماع قد ٱنعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسدّ الخلل وٱستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خِيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشُّورَى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدّى المصلحة إلى ذلك وٱجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام إذا نُصب ثم فَسَق بعـد ٱنبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعـلوم؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحـدود وٱستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره؛ وما فيه من الفسق يُقعده عن القيام بهـذه الأمور والنهوض بها . فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الٱبتداء إنما لم يجز أن يُعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى إلى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا يخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شيء من الشريعة؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبادة : " وألا نُنازِع الأمر أهـله [قال(٢)] إلا أن تروْا كُفْرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهانٌ " .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٦ (٢) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة . و«بواحا» أى جهارا؛ من باح بالشيء يبوح به إذا أعلنه .

وفى حديث عَوف بن مالك : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سَلَمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " إنه يُستعمَل عليكم أمراءُ فتَعرِفون وتُنكِرون فمن كَرِه فقد بَرِئ ومَن أنكر فقد سَلِم ولكن من رَضِىَ وتابع — قالوا : يا رسول الله ألَا نقاتلهم؟ قال : — لا ما صَلَّوْا " . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصًا يؤثّر فى الإمامة . فأما إذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ آختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تنخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك. والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه آنعزل قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك ! رضِيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلما أقرته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك؛ ولأن الإمام ناظر للغيب(١) فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه . فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولما آتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا آنعقدت الإمامة بآتفاق أهل الحَلّ والعَقْد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّةً مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البَيعة لعُذْر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبِر وقُهِر ؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقُتِل الآخر؛وآختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتلَه ومَوْته . والأول أظهر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما " . رواه أبو سعيد الخُدْرِىّ أخرجه مسلم .

(١) فى بعض الأصول : « للغير » .

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقةَ يدِه وثمرة قلبه فلْيُطِعه إن ٱستطاع فإن جاء آخر ينازعه فٱضربوا عنق الآخر". رواه مسلم أيضا، ومن حديث عَرْفَجة : "فٱضربوه بالسيف كائنا من كان" . وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدّى إلى النفاق والمخالفة والشقاق وحدوث الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجىّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده ؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجىّ مظهر للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجىّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهر من العدل ، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأوّل ، وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لما ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرفى العالَم؛ ثم قالوا : لو ٱتفق عقد الإمامة لشخصين نُزِّل ذلك منزلة تزويجِ وَلِيَّيْن ٱمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُقع واحد متضايق الخطط والمخاليف(1) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شُسوع النّوَى فللاحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكَرّامية إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل ؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا ٱثنين فى بلدَين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه ؛ ولأنه

(1) المخاليف : الأطراف والنواحى .

لما جاز بعثة نبيّين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولَى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة. والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه؛ لقوله: "فاقتلوا الآخر منهما" ولأن الأُمّة عليه. وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه وإنما آدّعى ولاية الشام بتولية مَن قبله من الأئمة. ومما يدلّ على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما؛ ولا قال أحدهما إنى إمام ومخالفى إمام. فإن قالوا: العقل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه. قلنا: أقوى السمْع الإجماعُ، وقد وُجد على المنع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أُعْلِمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة؛ لأن قوله: «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا»؟ فقيل: المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية؛ فبيّن الربّ تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم: «إِنِّي أَعْلَمُ» وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه. وقيل: إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء. وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال، فمن حينئذ دخلته العِزّة. فجاء قولهم: «أَتَجْعَلُ فِيهَا» على جهة الآستفهام المحض: هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب. وقال آبن زيد وغيره: إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء؛ فقالوا لذلك هذه المقالة، إمّا على طريق التعجب من آستخلاف الله من يعصيه أو من عِصيان الله من يستخلفه فى أرضه ويُنعم عليه بذلك، وإمّا على طريق الآستعظام والإكبار للفصلين جميعا: الآستخلاف والعصيان. وقال قتادة: كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» أهو الذى أعلمهم أم غيره.

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة فى قوله « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا : « أتجعل فيها مَن يفسد فيها » . وفى الكلام حذف على مذهبه؛ والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا و يفعل كذا، فقالوا : أتجعل فيها الذى أعلمتناه أم غيره ؟ والقول الأول أيضا حسن جدا؛ لأن فيه آستخراج العلم وآستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء؛ وما بين القولين حسن، فتأمّله . وقد قيل : إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله: "كيف تركتم عبادى" — على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره — إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال : أتجعل فيها ، و إظهار لما سبق فى معلومه إذ قال لهم : « إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ» .

قوله : ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيها ﴾ «مَن» فى موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثانى يقوم مقامه «فيها» . «يُفسد» على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى . وفى التنزيل: « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى . ﴿ وَيَسْفِكُ ﴾ عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان . وروى أُسيد عن الأعرج أنه قرأ : « وَيَسْفِكَ الدِّمَاءَ» بالنصب ، يجعله جواب الآستفهام بالواو ، كما قال (1) :

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بينى * وبينكمُ المــودّةُ والإخاءُ

والسَّفْكُ : الصّب . سفكت الدم أَسْفِكه سَفْكًا : صببته ، وكذلك الدمع ؛ حكاه آبن فارس والجوهرى . والسفّاك : السفاح ، وهو القادر على الكلام . قال المهدوىّ : ولا يستعمل السفك إلا فى الدم ، وقد يستعمل فى نثر الكلام ؛ يقال سفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دَمٌ ، محذوف اللام . وقيل : أصله دَمْىٌ . وقيل : دَمَىٌ ، ولا يكون آسم على حرفين إلا وقد حُذف منه ، والمحذوف منه ياء وقد نُطق به على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلو أنّا على حجر ذُبحنا * جرَى الدَّميان بالخبر اليقين

---

(1) القائل هو الحطيئة .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزهك عمّـا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعْشَى بنى ثَعْلبة :

أقـول لمّـا جاءنى فَخْـرُه * سبحانَ من عَلْقَمـةَ الفاخرِ

أى براءة من عَلْقَمـة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : " هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سـوء " . وهو مشتق من السَّبح وهو الجَرْى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا »[1] فالمسـبِّح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء . وقد تقدّم الكلام فى «نحن»[2]، ولا يجوز إدغام النون فى النون لئلا يلتقى سا كنان .

مســئلة : وآختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة، فقال آبن مسعود وآبن عباس : تسبيحهم صلاتهم؛ ومنه قول الله تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ»[3] أى المُصَلّين. وقيل: تسبيحهم رفع الصوت بالذكر، قاله المفضّل؛ وآستشهد بقول جرير :

قَبَحَ الإلٰهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّمـا * سَبِحَ[4] الحجيجُ وكَبّرُوا إهلالَا

وقال قتادة : تسبيحهم : سبحان الله؛ على عُرفه فى اللغة، وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذَرّ أنـ رسول الله صلى الله عليه وسـلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : " ما آصطفى الله لملائكته [أو لعباده][5] سبحان الله وبحمده " . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ليـلة أُسْرِىَ به سمع تسبيحًا فى السموات العلا : سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهقى .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٤١ (٢) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٢٣ (٤) فى ديوان جرير : «شبح» . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش .

(٥) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) .

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء، وقد تقدّم[١] . ويحتمل أن يكون قولهم : «بحمدك» اعتراضا بين الكلامين؛ كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس، ثم اعترضوا على جهة التسليم؛ أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظّمك ونُمجّدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهـد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفسـنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهـم قتادة : « نقدّس لك » معناه نصـلّى . والتقديس : الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح؛ فإن الصـلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : " سُبُّوح قُدّوس ربُّ الملائكة والرُّوح " . روته عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرّف فإن معناه التطهير؛ ومنه قوله تعالى : « ٱدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[٢] » أى المطهّرة . وقال : «الْمَلِكُ الْقُدُّوس[٣]» يعنى الطاهر؛ ومثله : « بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ[٤] طُوًى » وبيت المَقْدِس سُمِّى به لأنه المكان الذى يُتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهّر؛ ومنه قيل للسَّطْل : قَدَس؛ لأنه يُتوضأ فيه ويُتطهّر؛ ومنه القادوس . وفى الحديث : " لا قُدِّسَتْ أمّةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قويّهـا " . يريد لا طهّرها الله ؛ أخرجه ابن ماجه فى سُنَنه . فالقُدْس : الطُّهْر من غير خلاف؛ وقال الشاعر[٥] :

فأدركْنه يأخُذْنَ بالسّاق والنَّسَـا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثَوْبَ المُقَـدّس

أى المطهّر . فالصـلاة طُهرةٌ للعبد من الذُّنوب، والمُصَلِّى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسألة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء .	(٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٥

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٥	(٤) راجع جـ ١١ ص ١٧٥	(٥) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير الثور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشـبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقـدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتـح : المبارك . يقول : أدركت الكلاب الثور يأخذن بساقه ونخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسبح لله عز وجل إذا نزل من صومعته فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «أعلم» فيه تأويلان ؛ قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه آسم بمعنى فاعل ؛ كما يقال : الله أكبر، بمعنى كبير ؛ وكما قال (١) :

لَعَمْرُكَ ما أدرى و إنّى لَأَوْجَلُ * على أيّنا تعـدُو المنيّـة أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون « ما » فى موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم فى الميم . و إن جعلته آسما بمعنى عالم تكون « ما » فى موضع خفض بالإضافة . قال آبن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة ، و إنمـا الخلاف فى « أفعل » إذا سُمِّىَ به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يَصْرِفانه ، والأخفش يَصْرِفه . قال المهدَوىّ : يجوز أن تقدّر التنوين فى «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم، وتنصب «ما» به؛ فيكون مثل حَواجٌّ بيتَ الله . قال الجوهرى : ونِسوةٌ حواجُّ بيتِ الله ، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَجْن ، و إن لم يكنّ حججن قلت : حواجٌّ بيتَ الله ، فتنصب البيت؛ لأنك تريد التنوين فى حواجّ .

قوله تعـالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ آختلف علمـاء التأويل فى المـراد بقوله تعـالى : « مَا لَا تَعْلَمُونَ » . فقال آبن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لمـا جعله خازن السماء وشرفه ، فآعتقد أن ذلك لمزِيّة له ؛ فآستخف الكفر والمعصية فى جانب آدم عليه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهى لا تعـلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك ؛ فقال الله تعالى لهم : « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال قتادة : لمـا قالت الملائكة « أَتَجْعَلُ فِيهَا » وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون ممـا كان وممـا يكون وممـا هو كائن ؛ فهو عام .

---

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوّجا بأخته ، فآتفق أنه طلقها وتزوّج غيرها ، فآلى صديقه ألا يكلمه أبدا ؛ فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترقه له . (عن أشعار الحماسة) .

قوله تعالى : وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٣١)

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «علّم» معناه عرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورةً . ويحتمل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام؛ على ما يأتى . وقرئ : «وعُلِّم» غير مسمّى الفاعل . والأوّل أظهر؛ على ما يأتى . قال علماء الصوفية : علمها بتعليم الحق إيّاه وحَفِظها بحفظه عليـه ونسى ما عهد إليـه؛ لأن وكَلَه فيه إلى نفسـه فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً »[(١)] . وقال ٱبن عطاء : لو لم يُكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها ، وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يُكْنَى أبا البشر . وقيل : أبا محمد؛ كنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم؛ قاله السُّهَيْلِيّ . وقيل : كُنيته فى الجنة أبو محمـد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصـله بهمزتين؛ لأنه أفعـل إلا أنهم ليّنُوا الثانية ، فإذا ٱحتجت إلى تحريكها جعلتهـا واوا فقلت : أوادِم فى الجمع؛ لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو؛ عن الأخفش .

وٱختلف فى ٱشتقاقه؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمّى بمـا خلق منـه ؛ قاله ٱبن عباس . وقيل . إنه مشتق من الأُدْمَة وهى السُّمْرة . وٱختلفوا فى الأُدْمَة ، فزعم الضحاك أنها السُّمْرة؛ وزعم النَّضْر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ؛ مأخوذ من قولهم : ناقة أدْماءُ ، إذا كانت بيضـاء . وعلى هذا الٱشتقاق جمعه أُدْمٌ وأوادم؛ كحُمْر وأحامر ، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون؛ ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير: إنمـا سُمّىَ آدم لأنه خلق من أدِيم الأرض ، وإنمـا سُمِّىَ إنسانا لأنه نَسِي؛ ذكره ٱبن سعد فى الطبقات . وروى

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١

السُّدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن آبن عباس وعن مُرّة الهَمْدانِىّ عن آبن مسعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تَشِينَنى (١) ؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها . فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء و بيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين — ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض — فصعِد به ، فقال الله تعالى له : " أمَا رَحِمت الأرض حين تضرّعت إليك " فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا ؛ اللّازب : هوالذى يلتصق بعضه ببعض ، ثم تُرك حتى أنتن ؛ فذلك حيث يقول : « مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » قال : مُنتِن . ثم قال للملائكة : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢) » . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبّر إبليس عنه . يقول : أتتكبّر عمّا خلقتُ بيدى ولم أتكبّر أنا عنه ! فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزِعوا منه لما رأوْه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوت الفَخّار تكون له صَلْصلة ؛ فذلك حين يقول : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (٣) » . و يقول لأمرٍ مّا خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره ؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلّطت عليه لأهلكنّه . و يقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذى لم تروْا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربّنا ؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فُضّل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فُضّلتُ عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

---

(١) فى نسخة . « أن تقبض منى أو تسيئنى » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ قسم أوّل طبع أوربا) : « أن تنقص مني شيئا وتشينني » . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٧ (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦٠

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عَطَس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ؛ فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه ٱشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »[(١)] « فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ »[(٢)] وذكر القصة .

و روى الترمذىّ عن أبى موسى الأشْعَرِىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود و بين ذلك والسَّهْل والحَزْن والخبيث والطيّب" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أَدِيم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

الناسُ أخيافٌ[(٣)] وشَتّى فى الشِّيَمْ * وكلُّهم يجمعهم وَجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ؛ والله أعلم . ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام »[(٤)] وغيرها إن شاء الله تعالى .

و « آدم » لا ينصرف . قال أبو جعفر النحاس : « آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين ؛ لأنه على أَفْعَل وهو معرفة ، ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلّتين . فإن نكّرته ولم يكن نعتًا لم يَصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فإذا لم يكن نعتا صَرَفه . قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ، ولا يفترق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «الأسماء» هنا بمعنى العبارات ، فإن الاسم قد يطلق و يراد به المسمّى ، كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأول يقال : الاسم هو المسمّى بمعنى يراد به المسمى ، وفى الثانى لا يراد به المسمّى ؛ وقد يجرى ٱسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٨ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٥ (٣) الأخياف : المختلفون فى الأخلاق والأشكال . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وجـ ٧ ص ١٦٨

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعة وتسعين آسمًا". ويجرى مجرى الذات؛ يقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ وآسمٌ بمعنًى؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : «سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى»(١) «تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ» «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا» .

الثالثـة — وآختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علّمها لآدم عليه السلام؛ فقال آبن عباس وعِكرمة وقتادة ومجاهد وآبن جُبير: علّمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عند آبن عباس فذكروا آسم الآنيَة وآسم السَّوْط؛ قال آبن عباس : «وعلّم آدم الأسماء كلها» .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى؛ وهو الذى يقتضيه لفظ «كلها» إذ هو آسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفى البخارىّ من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو آستشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كلّ شىء" الحديث . قال آبن خُوَيْزِ مَنْدَاد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا، وأن الله تعالى علّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلا . وكذلك قال آبن عباس : علّمه أسماء كل شىء حتى الجَفْنة والمِحْلَب . وروى شَيْبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمّى كل شىء بآسمه وأنحى(٢) منفعة كل شىء إلى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا . وقال الطبرىّ : علّمه أسماء الملائكة وذرّيته؛ وآختار هذا ورجّحه بقوله : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ . وقال آبن زيد : علّمه أسماء ذرّيته كلهم . الربيع بن خُثيم(٣) : أسماء الملائكة خاصة . القُتَبىّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأوّل أصح، لما ذكرناه آنفًا ولما نبيّنه إن شاء الله تعالى .

---

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ (٢) أنحى : صرف . وفى الطبرى : «ألجأ» .

(٣) فى التقريب بضم المعجمة وفتح المثلثة . وفى الخلاصة «خيثم» بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

الرابعــة — وآختلف المتأوّلون أيضا هـل عرض على الملائكة أسماء الأشخاص أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال آبن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾. وتقول العرب: عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض؛ أى أظهرته فظهر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع. وفي الحديث "إنه عَرَضهم أمثال الذّرّ". وقال آبن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفي حرف آبن مسعود: «عرضهنّ»؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص؛ لأن الهاء والنون أخصّ بالمؤنث. وفي حرف أُبَيّ: «عرضها». مجاهد: أصحاب الأسماء. فمن قال في الأسماء إنها التسميات فآستقام على قراءة أُبَيّ «عرضها». وتقول في قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسماء يدلّ على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: «عرضهم». وقال في «هؤلاء» المراد بالإشارة: إلى أشخاص الأسماء، لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسببٍ وذلك أسماؤها. قال آبن عطية: والذى يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء وعرضهنّ عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التى قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا آسمه كذا، وهذا آسمه كذا. وقال الماوَرْدِيّ: وكان الأصح توجّه العرض إلى المسمّين. ثم في زمن عرضهـم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثاني — أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامســة — وآختلف في أوّل من تكلم باللسان العربيّ؛ فرُوِيَ عن كعب الأحبار: أن أوّل مَن وضع الكتاب العربيّ والسُّرْيانيّ والكتبَ كلّها وتكلّم بالألسنة كلّها آدم عليه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل: قد روى عن كعب الأحبار من وجه حَسَن قال: أوّل مَن تكلّم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذى ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسان آبنه سام؛ ورواه ثَور بن زيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب. ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أوّل مَن فتق لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل وهو آبن عشر سنين". وقد رُوى أيضا: أن أوّل مَن تكلّم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد روي غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

أوّل مَن تكلّم باللغات كلّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآن يشهد له؛ قال الله تعالى: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» واللّغات كلّها أسماء فهى داخلة تحته وبهذا جاءت السنة؛ قال صلى الله عليه وسلم: "وعلّم آدم الأسماء كلّها حتى القَصْعة والقُصَيعة" وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربيّــة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه الســلام . وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلّم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علّمها الله آدم أو جبريل؛ على ما تقدّم، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر. ولغة تَمِيم وبعض قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى :

هَؤُلَا ثم هَؤُلَا كلًّا أعطيـ * ـتَ نِعالًا مَحْذُوّةً بمثالِ

ومن العرب من يقول : هولاء ؛ فيحذف الألف والهمزة[1] .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطٌ، والجواب محذوفٌ تقديره : إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى؛ قاله المبرّد . ومعنى «صادقين» عالمين؛ ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا : «سبحانك» ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : «كَمْ لَبِثْتَ» فلم يشترط عليــه الإصابة، فقــال ولم يُصب ولم يُعنّف؛ وهذا بيّن لا خفاء فيــه . وحكى الطبرى وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال إن معنى «إن كنتم» : إذ كنتم، وقالا : هــذا خطأ . و «أَنْبِئُونِي» معناه أخبرونى . والنبأ : الخبر؛ ومنه النبىء بالهمز، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى[2] .

السابعـــة — قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون . وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنما

(١) فى البحر لأبى حيان «بحذف ألف ها وهمزة أولاء وإقرار الواو التى بعد تلك الهمزة» .

(٢) فى قوله تعالى : «ويقتلون النبيين بغير الحق ...» راجع ص ٤٣١ من هذا الجزء .

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة[1]، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواك . وهـذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِى » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوْا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا . و « ما » فى « ماعلمتنا » بمعنى الذى ؛ أى إلا الذى علّمتنا ؛ ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيـة — الواجب على مَن سُئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ؛ لكن قد أخبر الصادق أنّ بموت العلماء يقبض العلم ؛ فيبقى ناس جُهّال يُستفتَوْن فيُفتون برأيهم فيَضِلّون ويُضلّون . وأما ماورد من الأخبار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروَى البُسْتِيّ[2] فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ البقاع شرّ ؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل ؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرّها الأسواق . وقال الصّدّيق للجَدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد ؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يُسئل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجلٌ عن مسئلة فقال : لا علم لى بها ؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعمُ ماقال ابن عمر ؛ سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدّارمىّ فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عَقيل

(١) راجع ج ٣ ص ٤٢٨		(٢) فى نسخة « النسائى » .

يحيي بن المتوكل صاحب بُهَيَّة[(١)] قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيي بن سعيد، فقال يحيي للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه عِلْمٌ ولا فَرَج، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَج ؟ فقال له القاسم : وعَمَّ ذاك ؟ قال : لأنك آبن إمامَىْ هُدًى : آبنُ أبي بكر وعمر[(٢)]. قال يقول له القاسم : أقْبَحُ من ذاك عند مَن عَقَل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت آبن هُرْمُز يقول : ينبغى للعالم أن يُوَرّث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا فى أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهَيْثَم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال فى آثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف فى العلم . قال آبن عبد البَرّ : مِن بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت آبن وَهْب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شيء أقلّ من الإنصاف .

قلت : هذا فى زمن مالك فكيف فى زماننا اليوم الذى عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ، بل للظهور فى الدنيا وغلبة الأقران بالمِراء والجدال الذى يُقسِي القلب ويُورث الضِّغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال: لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أُوقيّة ولو كانت بنت ذى العَصَبة – يعنى يزيد بن الحُصين الحارثى – فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال ؛ فقامت آمرأة من صَوْب النساء طويلةٌ فيها فَطَس[(٣)] فقالت : ماذلك لك !

(١) بهية (بالتصغير) : مولاة أبى بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو آبن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هى أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جدّه الأعلى لأمه ، وعمر جدّه الأعلى لأبيه ، وآبن عمر جدّه الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) الفطس (بالتحريك) : آنخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

قال : ولم ؟ قالت لأن الله عز وجل يقول : «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» فقال عمر : آمرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وَكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القُرَظي قال : سأل رجل عليًّا رضي الله عنه عن مسئلة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال عليّ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذي عِلْمٍ عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمّا رحلتُ إلى المشرق نزلت القَيْرَوان فأخذت على بكر آبن حماد حديثَ مُسَدّد ، ثم رحلتُ إلى بَغداد ولقيت الناس ، فلما آنصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مسدّد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنه قدم عليه قوم من مُضَر مِن مُجْتَابِي النِّمَار[1]" فقال : إنما هو مُجْتابي الثّمار ؛ فقلت إنما هو مُجتابي النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لي : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخَر علينا ! أو نحو هذا . ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك الشيخ — لشيخ كان في المسجد — فإن له بمثل هذا عِلمًا ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابي النِّمار ، كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة ، جيوبُهم أمامهم[2] . والنِّمار جمع نَمِرة[3] . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه : رَغِم أنْفِي للحق ، رَغِم أنفي للحق . وآنصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحدّثتُ في مجلسٍ * تناهى حديثي إلى ما علمتُ
ولم أَعْدُ علمي إلى غيره * وكان إذا ما تناهى سكتُّ

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ « سبحان » منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، يؤدّي عن معنى نُسَبِّحك تسبيحًا . وقال الكسائي : هو منصوب على أنه نداء مضاف . و﴿ الْعَلِيمُ ﴾ فعيل للمبالغة والتكثير في المعلومات في خلق الله تعالى . و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم ؛ و بينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحْكِم ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرف عن مُفْعِل إلى فَعِيل ، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَمِيع ومُؤْلِم إلى أليم ؛ قاله آبن

---

(١) مشققة مخططة . (٢) مجتابي الثمار ؛ أي لابسيها . يقال : آجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٣) وهي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنما أخذت من لون النمر .

الأنبارى . وقال قوم : «الحكيم» المانع من الفساد؛ ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام؛ لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد . قال جرير :

أَبَنِى حَنِيفةَ أَحْكِمُوا سُفهاءَكم * إنّى أخافُ عليكمُ أن أَغْضَبَا

أى آمنعوهم من الفساد . وقال زهير :

القائدَ الخيلَ مَنْكوبًا دوابرُها(١) * قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقا

القِدّ : الجلد . والأَبَق : القِنَّب(٢) . والعرب تقول : أَحْكِم اليتيم عن كذا وكذا ؛ يريدون منعه . والسورة المُحْكَمة : الممنوعة من التغيير وكل التبديل ، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها ، ويزاد عليها ما ليس منها ؛ والحِكمة من هــذا ؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أَحْكَمَ الشىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد . فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعلِمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهًا على فضله وعلو شأنه ؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلّموا منه . فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له ، مختصًّا بالعلم .

الثانيــة ــ فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ؛ وفى الحديث : " وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضًا لطالب العلم " أى تخضع وتتواضع ؛ وإنما تفعل ذلك لأهل(٣) العلم خاصّــة

(١) النَّكَب : أن ينكُب الحجر ظفرا أو حافرا . والدوابر . أواخر الحوافر . يقول : يقود الخيــل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها ؛ أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها . (٢) القنب (بكسر القاف وضمها) : ضرب من الكتان . (٣) فى نسخة من الأصل : « لأجل » .

من بين سائر عيال الله(١)؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك فى آدم عليه السلام فتأدّبت بذلك الأدب . فكلما ظهر لها عِلْم فى بشر خضعت له وتواضعت وتذلّلت إعظامًا للعلم وأهله ، ورضًى منهم(٢) بالطلب له والشغل به . هذا فى الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربّانيين منهم ! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم .

الثالثــة — ٱختلف العلماء من هذا الباب، أيّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين : فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل. آحتجّ من فضّل الملائكة بأنهم «عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» . «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» . وقوله : « لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ(٣) » وقوله : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ(٤)» . وفى البخارى: «يقول الله عز وجل: "من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم"» . وهــذا نص . آحتجّ من فضل بنى آدم بقوله تعــالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ(٥) » بالهمز، من برأ الله الخلق . وقوله عليه السلام: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضًى لطالب العلم" الحديث . اخرجه أبو داود، و بمــا جاء فى أحاديثَ مِن أن الله تعالى يُباهى بأهل عَرفات الملائكة، ولا يُباهى إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبيــاء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهــم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رســوله أو إجماع الأمة؛ وليس ها هنا شىء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضى أبى بكر رحمه الله حيث قالوا: الملائكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشّيعة : إن الأنبياء أفضل لأن الله تعــالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم : المسجود له لا يكون أفضــل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لهــا والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة بآتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) فى نسخ من الأصل : « عمال الله » .　(٢) فى نسخة : « ورضى الله عنهم ... الخ » .
(٣) راجع ج ٦ ص ٢٦　(٤) راجع ج ٦ ص ٤٢٩　(٥) راجع ج ٢٠ ص ١٤٥

لا يكون إلا لله تعالى؛ لأن السجود عبادة، والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود إلى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد؛ وهذا واضح . وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن أحدا لا يعـلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعـالى ؛ فالمنجمون والكُهّان وغيرهم كذبة . وسيأتى بيان هذا فى « الأنعام »[1] إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ أى من قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » حكاه مَكّى والمـاوَرْدى . وقال الزَّهْراوى : ما أبدوه هو بِدارهم بالسجود لآدم . ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ٱبن عباس وٱبن مسعود وسعيد بن جُبير : المراد ما كتمه إبليس فى نفســه من الكبر والمعصية . قال ٱبن عطية : وجاء « تكتمون » للجماعة ، والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب وٱتساعها ؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سَفِيهٌ منهم : أنتم فعلتم كذا . أى منكم فاعله ، وهذا مع قصد تعنيف ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »[2] و إنما ناداه منهم عُيَيْنَة ، وقيل الأَقْرَع . وقالت طائفة : الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع . وقال مهدى بن ميمون : كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دِينـار ما الذى كتمت الملائكة ؟ قال : إن الله عز وجل لمـا خلق آدم رأت الملائكة خلقا عجبا ، وكأنهم دخلهم من ذلك شىء ، قال : ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرُّوا ذلك بينهم ، [فقالوا : و][3] ما يهمكم من هذا المخلوق ! إن الله لم يخلق خلقا إلا كنا أكرم عليه منه . و « ما » فى قوله : « ما تبدون » يجوز أن ينتصب بـ « أعلم » على أنه فعل ، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به « ما »[4] فيكون مثل حَوَاجّ بيت الله ، وقد تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠٩ (٣) زيادة عن تفسير الطبرى .
(٤) راجع ص ٢٧٨

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أى وآذكر . وأما قول أبى عبيدة : إن «إذْ» زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدّم[1] . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعـل الجماعة تفخيماً و إشادةً بذكره . والملائكة جمع مَلَك؛ وقد تقـدّم[2] . وتقدّم القول أيضا فى آدم وآشتقاقه فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضمّ تاء التأنيث من الملائكة إتباعا لضم الجيم فى « آسجدوا » . ونظيره « الحمدُ لله » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ ٱسْجُدُوا ﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر :

بِجَمْعٍ تَضِلّ البُـلْقُ فى حَجَراته ＊ ترى الأُكْمَ فيهـا سُجَّدًا لِلحوافِرِ

الأُكْمُ : الجبال الصغار . جعلها سُجَّدًا للحوافر لِقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعَيْنٌ ساجدة؛ أى فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض . قال آبن فارس : سَجَد إذ تطامن، وكلُّ ما سجد فقد ذَلّ . والإسجاد : إدامة النّظر . قال أبو عمرو : وأسجد إذا طأطأ رأسه؛ قال[4] :

فُضُـولَ أزِمّتِهـا أسجدتْ ＊ سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

＊ وقلنَ له أسْجِدْ لِليْـلَى فأسجدَا ＊

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودراهمُ الإسجاد : دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال :

＊ وافَى بهـا كدراهم الإسجاد ＊

---

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١　　(٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢

(٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩　　(٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما آرتحلن ولوين فضول أزمة جمالهن على معاصمهن أسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

الثالثـة — استدلّ من فضّل آدم وبَنِيه بقوله تعـالى للملائكة : « ٱسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدلّ على أنه كان أفضلَ منهم . والجواب أن معنى «اسجدوا لآدم» اسجدوا لى مستقبلين وَجْه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » أى عند دلوك الشمس؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عنـد إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أن المسجود له لا يكون أفضـلَ من الساجد بدليل القِبْـلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضلَ منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لمـا استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمَرَهم بالسجود لغيره ليريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصُّنع به فأمِروا بالسجود له تكريمًا . ويحتمل أن يكون الله تعالى أمَرَهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » لمـا قال لهم : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَـةً » وكان علم منهـم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هـذا ، فقال لهم : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفةً ، فإذا نفخْتُ فيه من روحى فقَعُوا له ساجدين . والمعنى : ليكون ذلك عقوبةً لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد استدلّ ابن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »[1] . وأمّنه من العـذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[2] . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ »[3] . قيل له : إنما لم يُقسم بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه؛ فلم يقل : لَعَمْرِى . وأقسم بالسماء والأرض؛ ولم يدلّ على أنهما أرفع قدرًا من العرش والجنان السّبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأمّا قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذًا دلالة ، والله أعلم .

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٩ (٢) راجع ج ١٦ ص ٢٦٢ (٣) راجع ج ١١ ص ٢٨٢

الرابعــة — وآختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد آتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادةٍ ؛ فقال الجمهور : كان هــذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض ، كالسجود المعتاد فى الصلاة ؛ لأنه الظاهر من السجود فى العُرف والشرع ؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله ، وطاعةً لله تعالى ، وكان آدم كالقِبْلة لنا . ومعنى «لآدم» : إلى آدم ؛ كما يقال صلّى للقِبْلة ؛ أى إلى القبلة . وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقىً على أصل اللّغــة ؛ فهو من التذلّل والآنقياد ، أى آخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل . ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى آمتثلوا ما أمروا به

وآختُلِف أيضا هل كان ذلك السجود خاصًّا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى ، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام ؛ لقوله تعالى : « ورفع أَبَوَيْه عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا »[1] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أَوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : "لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا لله ربّ العالمين" . روى آبن ماجه فى سُننه والبُسْتِىّ فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمـا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما هذا" فقال : يا رسول الله ، قدمتُ الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك ؛ قال : "فلا تفعل فإنى لو أَمَرتُ شـيئا أن يسجد لشىء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأةُ حقّ ربّها حتى تؤدّى حقّ زوجها حتى لو سألها نفسَها وهى على قَتَب لم تمنعه" . لفظ البُسْتِىّ . ومعنى القتب أن العرب يَعِزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب[2] عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ : ونَهَى عن السجود للبشر ، وأمر بالمصافحة .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٤

(٢) القتب . رحل صغير على قدر السنام .

قلت : وهذا السجود المنهىّ عنه قد آتخذه جُهّال المتصوّفة عادةً فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم وآستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام[1] لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ؛ ضلّ سَعْيهم وخاب عملهم .

الخامسة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الآستثناء المتصل ؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : آبن عباس وآبن مسعود وآبن جُريج وآبن المسيّب وقتادة وغيرهم ؛ وهو آختيار الشيخ أبى الحسن ، ورجّحه الطبرى ؛ وهو ظاهر الآية . قال آبن عباس : وكان آسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبْلس بعد . روى سِمَاك آبن حرب عن عكرمة عن آبن عباس قال : كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا . وحكى الماوَرْدىّ عن قتادة : أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنة . وقال سعيد بن جُبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر[2] الملائكة من نور . وقال آبن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكا ؛ وروى نحوه عن آبن عباس وقال : آسمه الحارث . وقال شَهر آبن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجنّ الذين كانوا فى الأرض وقاتلهم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخُوطب ؛ وحكاه الطبرى عن آبن مسعود . والآستثناء على هذا منقطع ، مثل قوله تعالى : «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ» ، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فى أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ * إلا الرّقادَ والرقادُ ممنوعْ

وآحتجّ بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال : «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» ، وقوله تعالى : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» والجنّ غير الملائكة . أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق فى علم الله بشقائه عدلاً منه ، لا يُسئل عما يَفعل ؛ وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة . وقول من قال : إنه كان من جنّ الأرض فسُبِىَ ،

(١) فى نسخ من الأصل : « للأقدم » . (٢) فى نسخ : « معاشر » .

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جُند من الملائكة؛ حكاه المهدَوِىّ وغيره . وحكى الثّعلبي عن ٱبن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خُلقوا من نار السـموم ، وخُلقت الملائكة من نور ، وكان ٱسمـه بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيسَ ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة ٱجتهادا وأكثرهم علمـا ، وكان يسوس مابين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفًا وعظمة ، فذلك الذى دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شـيطانا رجيما . فإذا كانت خطيئـة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فارْجُه ؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كِبْراً . والملائكة قد تُسَمّى جِنًّا لٱستتارها ؛ وفى التنزيل : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً »[1] ؛ وقال الشاعر[2] فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسَخَّرَ من جِنّ الملائِكِ تِسـعةً * قيـامًا لَدَيْه يعمـلون بلا أَجْرِ

وأيضا لمـا كان من خُزّان الجنة نُسب إليها فٱشتق ٱسمه من ٱسمها ، والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل ، مشتقّ من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى . ولم ينصرف ؛ لأنه معرفة ولا نظير له فى الأسماء فشبّه بالأعجمية ؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا ٱشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف ؛ قاله الزجاج وغيره .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه ٱمتنع من فعـل ما أُمِر به ؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا قرأ ٱبن آدم السجدة [فسجد][3] ٱعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه — وفى رواية : ياوَيْلِي — أُمِر ٱبن آدم بالسجود فسَجَد فله الجنة وأُمِرتُ بالسجود فأبَيْتُ فلِيَ النار " . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يأبَى إباءً ، وهو حرف نادر جاء على فَعَـل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحَلْق ؛ وقد قيـل : إن الألف مضارِعة لحروف الحَلْق . قال الزجاج : سمعت إسماعيـل بن إسحاق القاضى يقول : القول

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤		(٢) هو أعشى قيس ، كما فى تفسير الطبري وأبى حيان .
(٣) الزيادة من صحيح مسلم .

عندى أن الألف مضارعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوًا غير هذا الحرف .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الاستكبار : الاستعظام ؛ فكأنه كره السجود فى حقه واستعظمه فى حق آدم ؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهًا لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكِبر عبّر عليه السلام بقوله : " لا يدخل الجنة مَن [كان](١) فى قلبه مثقالُ حبة من خَرْدَل من كِبر " . فى رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسَنًا ونعله حسَنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس " . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه وإبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : « وغمص » بالصاد المهملة ، والمعنى واحد ؛ يقال : غَمَصه يغْمِصه غَمْصًا واغتمصه ؛ أى استصغره ولم يره شيئا . وغَمَص فلان النعمة إذا لم يشكرها . وغَمَصتُ عليه قولًا قاله ؛ أى عِبته عليه . وقد صرّح اللّعين بهذا المعنى فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ »(٢) . « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » . « لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » فكفّره الله بذلك . فكلّ من سفّه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حُكْمُه حُكْمَه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكِبر ، حسَدَ إبليسُ آدم ، وشح آدم فى أكله من الشجرة . وقال قتادة : حسَدَ إبليسُ آدم ، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا نارىّ وهـذا طِينىّ . وكان بدء الذنوب الكِبْر ، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة ، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ قيل : كان هنا بمعنى صار ، ومنه قوله تعالى : « فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ » . وقال الشاعر(٣) :

بتَيْهاءَ قَفْـرٍ والمَطِىُّ كأنها * قطا الحَزْن قد كانت فِراخًا بُيوضُها

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٠

(٣) هو ابن أحمر ، كما فى اللسان مادة « كون » .

أى صارت . وقال ٱبن فُورَك . «كان» هنا بمعنى صـار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهـذا صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : "وإنما الأعمال بالخواتيم" . وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة ، وأُعْطى الرياسة والخِزانة فى الجنة على الاستدراج ؛ كما أُعْطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعطى بَلْعَام[1] الاسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال ٱبن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بما عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه ؛ ولذلك قال الله عز وجل : «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ»[2] أى ٱستكبرت ولا كِبْرَ لك ، ولم أتكبّر أنا حين خلقتُه بيدىّ والكِبر لى ! فلذلك قال : «وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» . وكان أصل خلقته من نار العزّة؛ ولذلك حلف بالعِزّة فقال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» فالعِزّة أورثته الكِبْر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نُور العِزّة وخُلق إبليس من نار العِزّة .

التاسـعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومَن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا على ولايتـه ؛ خلافا لبعض الصُّوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه وَلِىّ ، إذ لو لم يكن وَلِيًّا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنـا أن العلم بأن الواحد منّا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العـلم بأنه يموت مؤمنًا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنّا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى؛ لأن الولىّ لله تعالى مَن علم الله تعـالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولمـا ٱتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان ، علم أن ذلك ليس

(١) فى تاريخ ٱبن الأثير والطبرى إنه بلعسم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه السـلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ ٱبن الأثير جـ ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أوّل ص ٥٠٨ طبع أوروبا .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٨

يدلّ على ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشْعَرِيّ وغيره . وذهب الطَّبَرِى إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم ، وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته ، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العاشرة — وآختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا ، و إن إبليس أوّل من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . وآختلف أيضا هل كفر إبليس جهلًا أو عنادًا على قولين بين أهـل السُّنة ؛ ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلًا قال : إنه سُلب العلم عند كفره . ومن قال كفر عنادًا قال : كفر ومعه علمه . قال آبن عطية : والكفر [عنادا] [(١)] مع بقاء العلم مستبعد ، إلا أنه عندى جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعالى : وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ آسْكُنْ ﴾ لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، و بعد إخراجه قال لآدم : آسكن ؛ أى لازم الإقامة وآتخذها مسكنًا ، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكونًا . والسَّكَن : النار ؛ قال الشاعر :

* قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكِّين معروف ، سُمِّى به لأنه يُسَكِّن حركة المذبوح ؛ ومنه المِسْكين لقلة تصرّفه وحركته . وسُكّانُ [(٢)] السفينة عربىّ ؛ لأنه يُسَكِّنها عن الاضطراب .

---

(١) زيادة عن تفسير آبن عطية . (٢) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التى به تعدّل .

الثانيـــة — فى قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون مِلْكًا، ولهذا قال بعض العارفين: السُّكْنَى تكون إلى مدّة ثم تنقطع، فدخولهما فى الجنة كان دخول سُكْنَى لا دخول إقامة.[1]

قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرجه إذا ٱنقضت مدّة الإسكان. وكان الشعبيّ يقول: إذا قال الرجل دارى لك سُكْنَى حتى تموت فهى له حياتَه وموتَه، وإذا قال: دارى هذه ٱسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونَحْوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أن الخلاف فى العُمْرَى أقوى منه فى السُّكْنَى. وسيأتى الكلام فى العُمْرَى فى «هود»[2] إن شاء الله تعالى. قال الحَرْبيّ: سمعت ٱبن الإعرابى يقول: لم يختلف العرب فى أن هذه الأشياء على مِلْك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العُمْرَى والرقبى والإفقار والإخبال والمِنحة والعَرِيّة والسُّكْنَى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لا يملك شىء من العطايا إلا المنافع دون الرِّقاب؛ وهو قول اللّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط.

والعُمْرَى: هو إسكانك الرجل فى دار لك مدّة عمرك أو عمره. ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتُّ قبلى رجعتْ إلىّ وإن متُّ قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة. والمراقبة: أن يَرْقُب كلُّ واحد منهما موتَ صاحبـه؛ ولذلك اختلفوا فى إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعى، وكأنها وَصِيّةٌ عندهم. ومنعها مالك والكوفيون؛ لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفى الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ٱبن ماجه فى سُننه؛ الأول رواه جابر بن عبـد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعمِرَها والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها " ففى هـذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى فى الحكم. الثـانى رواه ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا رُقْبَى فمن أُرْقِب شيئا فهو له حياتَه ومماتَه ". قال: والرُّقْبَى أن

(١) فى بعض الأصول: « لا دخول ثواب ».　(٢) راجع جـ ٩ ص ٥٧

يقول هو للآخر: منّى ومنك موتا. فقوله: "لا رُقْبَى" نهىٌ يدلّ على المنع؛ وقوله: "من أرْقب شيئًا فهو له" يدلّ على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النّسائى. وذكر عن آبن عباس قال: العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. وقال آبن المنذر: ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العُمْرَى جائزة لمن أُعمرها والرُّقْبَى جائزة لمن أُرْقِبها". فقد صحّح الحديث آبن المنذر، وهو حجة لمن قال بأن العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. وروى عن علىّ وبه قال الثّوْرِىّ وأحمد، وأنها لا ترجع إلى الأول أبدا؛ وبه قال إسحاق. وقال طاوس: مَن أرقب شيئا فهو سبيل الميراث.

والإفقار مأخوذ من فَقار الظّهر. أفقرتك ناقتى: أعَرْتُك فَقارها لتركبها. وأفقرك الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى ترميه. ومثله الإخبال، يقال: أخبلت فلانا إذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه؛ قال زهير:

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المال يُخْبِلوا * وإن يُسْئَلوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يَغْلُوا

والمِنْحة: العطيّة. والمِنْحة: مِنحة اللّبن. والمَنِيحة: الناقةُ أو الشاة يُعطيها الرجلُ آخر يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العاريّة مُؤدّاةٌ والمنحة مردودةٌ والدَّين مقضىّ والزَّعيم غارم". رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذىّ والدّارقُطْنىّ وغيرهما، وهو صحيح.

والإطراق: إعارة الفحل؛ استطرق فلان فلانا فَحْلَه: إذا طلبه ليضرب فى إبله؛ فأطرقه إياه؛ ويقال: أطرقنى فحلك أى أعِرْنى فَحْلَك ليضرب فى إبلى. وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طروقا؛ أى قَعَا عليها. وطَرُوقة الفحل: أُنثاه؛ يقال: ناقة طَروقة الفحل للتى بلغت أن يضربها الفحل.

الثالثـــة — قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أنت» تأكيد للضمر الذى فى الفعل؛ ومثله «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ». ولا يجوز آسكن وزوجك، ولا آذهب وربك، إلا فى ضرورة الشعر؛ كما قال:

قلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهَادَى * كنِعاج المَلا تَعَسَّفْنَ رَمْلا[1]

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة. و«زهر» جمع زهراء، وهى البيضاء المشرقة. والتهادى: المشى الرويد الساكن. والنعاج: بقر الوحش. «تعسفن»: ركبن.

فـ « زُهْر » معطوف على المضمر فى « أقبلتْ » ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعْد : قم وزيد .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن « زَوْجٌ » بغير هاء ، وقد تقدّم القول فيه[1] . وقد جاء فى صحيح مسلم : « زوجة » ، حدّثنا عبد الله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب قال حدّثنا حماد بن سَلَمة عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : " يا فلانُ هذه زوجتى فلانة " : فقال يارسول الله ، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من الإنسان مَجْرى الدم " . وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام ، وهو أوّل من سمّاها بذلك حين خُلقت من ضلعه[2] من غير أن يَحُسّ آدم عليه السلام بذلك ؛ ولو ألِم بذلك لم يَعْطِف رجل على آمرأته ؛ فلما آنتبه قيل له : من هذه ؟ قال : آمرأة ؛ قيل : وما آسمها ؟ قال : حوّاء ؛ قيل : ولِمَ سُمِّيت آمرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخِذت ؛ قيل : ولِمَ سُمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خُلقت من حىّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم ؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه ياحوّاء ؟ قالت : لا ؛ وفى قلبها أضعافُ ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صَدَقت آمرأة فى حبّها لزوجها لصدَقت حوّاء . وقال آبن مسعود وآبن عباس : لمـا أُسْكِن آدم الجنة مشى فيها مستوحشًا ، فلمّا نام خُلقت حوّاء مِن ضلعه القُصْرَى مِن شقه الأيسر ليسكن إليها و يأنس بها ؛ فلما آنتبه رآها فقال : من أنت ؟ ! قالت : آمرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إلىّ ؛ وهو معنى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا[3] » . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عَوْجاء ؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضّلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة خُلقت من ضلع — فى رواية : و إنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

---

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .   (٢) الضلع ، كعنب وجذع .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧

لك على طريقة واحدة فإن آستمتعتَ بها آستمتعت [بها][1] وبها عِوَج وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طلاقُها ". وقال الشاعر :

هى الضِّلَع العَوجاءُ لستَ تُقيمها * ألا إنّ تقـويم الضلوع آنكسارها

أتجمـع ضَعفاً وآقتـداراً على الفـتى * أليس عجيبا ضـعفُها وآقتـدارها

ومن هـذا الباب آستدل العلمـاء على ميراث الخنثى المُشْكل إذا تساوت فيـه علامات النساء والرجال من اللِّحية والثَّدْى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المـرأة أُعْطى نصيب رجل — روى ذلك عن علىّ رضى الله عنـه — لخلق حوّاءَ من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى[2] .

الخامسـة — قوله تعـالى : ﴿ الجَنّة ﴾ الجنة : البُستان ، وقد تقدّم القول فيها[3] . ولا التفات لمـا ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن فى جنة الخُلْد وإنما كان فى جنة بأرض عَدَن . وآستدلّوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنةَ الخلد لمـا وصل إليه إبليس ، فإن الله يقول : « لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ[4] » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا[5] » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَـا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَـلَامًا[6] » . وأنه لا يخرج منهـا أهلها لقوله : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ[7] » . وأيضا فإن جنـة الخُلْد هى دار القُدُس ، قُدِّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لهـا . وقد لَغَا فيها إبليس وكَذَب ، وأُخرِج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجـوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخُلْد والمُلْك الذى لا يبلَى ؟ فالجواب : أن الله تعـالى عَرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة؛ لم يُفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد . ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم ؛ وقد لَقِىَ موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى : أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع ج ٥ ص ٦٥ (٣) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء .
(٤) راجع ج ١٧ ص ٦٨ . (٥) راجع ج ١٩ ص ١٨٢ (٦) راجع ج ١٧ ص ٢٠٦
(٧) راجع ج ١٠ ص ٣٤

المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت غيرها لرَدّ على موسى ؛ فلمـا سكت آدم على ما قرّره موسى صَحّ أن الدار التى أخرجهم الله عز وجلّ منهـا بخلاف الدار التى أُخرجوا إليها .
وأما ما احتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منـه بعد المعصية ، وقد دخلها النبيّ صلى الله عليـه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هى جنة الخلد حقًّا . وأما قولهم : إن الجنة دار القُدْس وقد طهّرها الله تعـالى من الخطايا بجهلٍ منهم؛ وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدّسة وهى الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شُـوهد فيها المعاصى والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصى؛ وكذلك دار القُدْس . قال أبو الحسن بن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السُّنّة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منها آدم عليه السلام، فلا معنى لقول مَن خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخُـلْد وهو فى دار الخلد؛ فيُعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم وهو فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا، على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ قراءة الجمهور «رَغَدًا» بفتح الغين . وقرأ النَّخَعِىّ وابن وثّاب بسكونها . والرَّغَد: العيش الدَّارُّ الهنىّ الذى لا عَناء فيه ؛ قال :

بينما المــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث فى عيش رَغَد(1)

ويقال : رَغُد عيشُهم ورغِد (بضم الغـين وكسرها) . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رَغَد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصـدر محذوف . وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ، وحَوْثَ وحوثِ وحاث، كلّها لغات، ذكرها النحاس وغيره .

(1) القائل هو امرؤ القيس؛ كما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

السابعـة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقرباها بأكل ؛ لأن الإباحة فيه وقعت . قال ابن العربى : سمعت الشّاشىّ [1] فى مجلس النَّضْر [بن شُمَيل] [2] يقول : إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه لا تَتَلَبَّس بالفعل ، وإذا كان (بضم الراء) فإن معناه لا تَدْنُ منه . وفى الصحاح : قَرُب الشىءُ يقرُب قُرْبًا أى دنا . وقَرِبته (بالكسر) أقْرَبه قِرْبانا أى دَنَوت منه . وقَرَبت أقْرُب قِرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سِرت إلى المـاء وبينك وبينه ليلة ؛ والاسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابىّ : ما القَرَب ؟ فقال : سَيْرُ الليل لِوِرْد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لمـا أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب . قال ابن عطية : وهذا مثالٌ بَيِّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تَقْرَبَا» إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلَّد لا يحظر عليه شىء ولا يؤمر ولا يُنْهى . والدليل على هذا قوله تعالى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فدلّ على خروجه منها .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الاسم المبهم يُنعت بمـا فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهـذه الشجرة . وقـرأ ابن مُحَيْصِن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل ؛ لأن الهاء فى هذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(1) أى من غير تلك الشجرة .

(2) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقد عقب عليه بقوله : « وفى هذه الحكاية عن ابن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثَمّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » .
والشاشى هنا هو محمد بن أحمد بن الحسـين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين سـنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .
أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .
وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيَرة؛ ثلاثُ لغات، وقرئ « الشِّجرة » بكسر الشين . والشَّجرة والشِّجَرة : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجِيرة وشَجْراء أى كثيرة الأشجار، ووادٍ شَجير؛ ولا يقال : وادٍ أشجر . وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة : شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفة وحَلْفاء . وكان الأصمعى يقول فى واحد الحَلْفاء: حَلِفة؛ بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشَّجراء واحد وجَمْع ، وكذلك القَصْباء والطَّرْفاء والحَلْفاء . والمَشْجَرة : موضع الأشجار . وأرض مَشْجَرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا ؛ قاله الجوهرى .

التاسعة — وآختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهِى عنها فأكل منها ؛ فقال آبن مسعود وآبن عباس وسعيد بن جُبير وجَعْدة بن هُبيرة : هى الكَرْم ؛ ولذلك حُرِّمت علينا الخمر . وقال آبن عباس أيضا وأبو مالك وقَتادة : هى السُّنْبُلة، والحبّةُ منها ككُلَى البقر، أحْلَى من العسل وألْيَن من الزُّبْد؛ قاله وَهْب بن مُنَبِّه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه . وقال آبن جُريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التِّين[1] ، وكذا روى سعيد عن قتادة، ولذلك تُعبَّر فى الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السُّهَيْلى . قال آبن عطية : وليس فى شئ من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها . وقال القُشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحْنة .

العاشرة — وآختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظالِمِين »؛ فقال قوم : أكلا من غير التى أشير إليها ، فلم يتأوّلا النهى واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غرّه [بالأخذ][2] بالظاهر . قال آبن العربى : وهى أوّل معصية عصى الله بها على هذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنِث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لاحِنْث فيه . وقال

(١) فى نسخة : « شعبة » وكلاهما يروى عن قتادة .	(٢) الزيادة من آبن العربى .

مالك وأصحابه : إن آقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحنَث بأكل جنسه ، وإن آقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمل عليه وحنِث بأكل غيره ؛ وعليه حُملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيِّنت له وأريد بها جنسها ؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى .

وقد آختلف علماؤنا فى فَرْعٍ من هذا ؛ وهو أنه إذا حلَف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين ؛ قال فى الكتاب : يحنَث ؛ لأنها هكذا تؤكل . وقال آبن المواز : لا شىء عليه ؛ لأنه لم يأكل حنطة وإنما أكل خبزا فراعى الاسم والصفة . ولو قال فى يمينه : لا آكل من هذه الحنطة لحنِث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما آشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأوّلا النّهى على النّدب . قال آبن العربى : وهذا وإن كان مسئلة من أصـول الفقه فقـد سقط ذلك هاهنا ؛ لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النّهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١) » . وقال آبن المُسَيّب : إنما أكل آدم بعد أن سَقته حَوّاء الخمر فسَكِر وكان فى غير عقله . وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال آبن العربى : وهـذا فاسد نقلًا وعقلًا ، أما النّقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال : « لَا فِيهَا غَوْلٌ » . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوة معصومون عما يؤدّى إلى الإخلال بالفرائض وآقتحام الجرائم .

قلت : قد آستنبط بعض العلماء نبوّة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ » فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ . وقيل : أكلها ناسيًا ، ومن الممكن أنهما نَسِيَا الوعيد .

قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى كتابه بذلك حتمًا وجزمًا فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١) » . ولكن لمـا كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقّظ لكثرة معارفهم وعُـلُوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشـاغله عن تذكّر النّهى تضييعًا صار به عاصيًا ؛ أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت فى كِفّة ميزان ووُضع حِلم آدم فى كِفّة أخرى لرجحهم ؛ وقـد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ وص ٢٥٣

قلت : قولُ أبي أُمامة هذا عمومٌ في جميع بني آدم . وقد يحتمل أن يخصّ من ذلك نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه كان أوفر الناس حلماً وعقلاً. وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بني آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأوّل أيضا حَسَن ؛ فظنّا أن المراد العَيْن وكان المراد الجنس ؛ كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهباً وحريرًا فقال : "هذان حرامان على ذكور أمتي" . وقال في خبر آخر : "هذان مهلكان أمتي" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقـال : إن أوّل مَن أكل من الشجرة حـوّاء بإغواء إبليس إياها — على ما يأتي بيانه — و إن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة، وهي أوّل فِتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال : ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يُحبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبّا — «حُبّك الشيء يُعمِي ويُصِم» — فلما قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العهد؛ فألحّ على حوّاء وألحّت حوّاء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابني شيء سَلِمْتَ أنت ؛ فأكلتْ فلم يضرها، فأتت آدم فقالت : كُلْ فإني قد أكلتُ فلم يضرّني ؛ فأكل فبـدت لهما سوءاتهما وحصلا في حكم الذنب؛ لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » فجمعهما في النّهي ؛ فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهيّ عنه منهما جميعًا ، وخَفِيت على آدم هذه المسئلة ؛ ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتَيْه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حُرّتان؛ إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقـد ٱختلف علمـاؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال ٱبن القـاسم : لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا بٱجتماعهما في الدخول ؛ حملًا على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحْنون . وقال ٱبن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما؛ لأن بعض الحِنْث حِنْث؛ كما لو حلف ألّا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لُقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتطلُق التي دخلت وحدها؛ لأن دخول

كلّ واحدة منهما شرطٌ فى طلاقها أو عتقها. قال ابن العربى: وهذا بعيد؛ لأن بعض الشرط لا يكون شرطًا إجماعًا.

قلت: الصحيح الأوّل، وإن النّهى إذا كان معلّقًا على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما؛ لأنك إذا قلت: لا تدخلا الدار، فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ» نَهْىٌ لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» جوابه؛ فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا؛ فلما أكلت لم يصبها شىء؛ لأن المنهىّ عنه ما وُجد كاملا. وخَفِىَ هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ». وقيل: نسى قوله: «إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى». والله أعلم.

الثانية عشرة — واختلف العلماء فى هذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائر من الذنوب يؤاخذون بها و يعاتبون عليها أم لا — بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رذيلة فيها شَيْن ونقص إجماعًا عند القاضى أبى بكر[1]؛ وعند الأستاذ أبى إسحاق[2] أن ذلك مقتضى دليل المعجزة؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم —؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين: تقع الصغائر منهم. خلافا للرافضة حيث قالوا: إنهم معصومون من جميع ذلك؛ واحتجّوا بما وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصّلهم من ذلك فى الحديث، وهذا ظاهر لا خفاء فيه. وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبى حنيفة والشافعى: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها؛ لأنا أُمرنا باتباعهم فى أفعالهم وآثارهم وسِيَرهم أمرًا مطلقا من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القُرْبة والإباحة أو الحَظْر أو المعصية، ولا يصحّ أن يؤمر المرء بامتثال أمرٍ لعلّه معصية، لا سيّما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين. قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى.

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفراينى. وفى الأصول: «عند الأستاذ أبى بكر» وهو تحريف. (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف).

الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني : وآختلفوا فى الصغائر ؛ والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل : الذى ينبغى أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونَسَبها إليهم وعاتبهم عليها، وأخبروا بهـا عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا؛ وكل ذلك وَرَد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها وإن قَبِل ذلك آحادها؛ وكل ذلك ممـا لا يُزْرِى بمناصبهم، وإنمـا تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة النُّدور وعلى جهـة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات ؛ [بالنسبة] إلى مناصبهم وعُلو أقدارهم ؛ إذ قـد يؤاخذ الوزير بمـا يثاب عليـه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم ولا قَدَح فى رُتَبِهم، بل قد تلافاهم وآجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم وآختارهم وآصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسـلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظُّلم أصـله وضع الشىء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تُحفر قطُّ ثم حُفرت . قال النابغة .

وقفتُ فيها أُصَـيْلالًا أسائلها * عَيَّتْ جوابًا وما بالرَّبع مِن أحد
إلا الأَوَارِىَّ لَأْيًا ما أُبَيِّنُهـا * والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجَلَدِ (١)

ويُسَمَّى ذلك التراب الظَّلِيم . قال الشاعر :

فأصـبحَ فى غبراءَ بعـد إشاحةٍ (٢) * على العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها

(١) الأوارى (واحدها آرى) : حبل تشدّ به الدابة فى محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه المـاء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة . راجع خزانة الأدب فى إعرابه .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعنى حفرة القبر يردّ ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

وإذا نُحِر البعيرُ من غير داء به فقد ظُلِم؛ ومنه : * ... ظَلّامون للجُزُر[1] *

ويقال : سقانا ظَلِيمة طيّبة ؛ إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظَلَم وَطْبَه[2] ؛ إذا سقى منه قبل أن يَرُوب ويُخْرِج زُبْده . واللّبنُ مظلوم وظَليم . قال :

وقائـلةٍ ظلمتُ لكم سِـقائى * وهـل يَخْفَى على العَكَدِ الظّـلِيم[3]

ورجل ظَلِيم : شديد الظلم . والظلم : الشرك ؛ قال الله تعالى : « إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[4] » .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ حُذفت النون من « كُلَا » لأنه أَمْر ، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذّ . قال سيبويه : مِن العرب من يقول أُؤْكُل ؛ فيُتِمّ . يقال منه : أَكَلْت الطعـام أَكْلًا ومَأْكَلًا . والأَكْلة (بالفتح) : المرّة الواحدة حتى تشبع . والأُكْلة (بالضم) : اللُّقْمة ؛ تقول : أكلت أُكْلَة واحدة ؛ أى لُقْمة ، وهى القُرْصة أيضـا . وهذا الشىء أُكْلَةٌ لك ؛ أى طُعْمَةٌ لك . والأُكْلُ أيضـا ما أُكِل . ويقال : فلان ذو أُكْل ؛ إذا كان ذا حظّ من الدنيا ورزق واسع . ﴿ رَغَدًا ﴾ نعتٌ لمصـدر محذوف ؛ أى أَكْلًا رَغَدًا . قال ابن كَيْسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : « رَغَدًا » أى لا حساب عليهم . والرّغد فى اللغـة : الكثير الذى لا يُعَنّيـك ؛ ويقال : أرغد القوم ؛ إذا وقعوا فى خِصْب وسَعَة . وقد تقدّم هذا المعنى[5] . و﴿ حَيْثُ ﴾ مبنيّة على الضمّ ؛ لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف ، فأشبهت قبلُ و بعدُ إذا أفردتا فضُمّت . قال الكسائى : لغـة قيس وكِنانة الضمّ ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسـد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضـع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[6] » وتُضَمّ وتُفتح . ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الهاء من « هـذه » بدل من ياء الأصل ؛ لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها

---

(١) عجز بيت لابن مقبل ، وهو بتمامه :

عاد الأذلة فى دار وكان بها * هُرْتُ الشّقاشق ظلّامون للجزر

(٢) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٣) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٦٢

(٥) راجع المسألة السادسة ص ٣٠٣ من هذا الجزء . (٦) آية ١٨٢ سورة الأعراف ، و ٤٤ سورة القلم .

إلا هاء « هــذه » . ومن العرب من يقول : هاتا هند ، ومنهم من يقول : هاتى هنــد . وحكى سيبويه : هذه هند ؛ بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل بن عَبّاد قال : كان آبن كَثير وآبن مُحَيْصِن لا يُثْبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة « رَغَدًا » بفتح الغين . وروى عن آبن وَثّاب والنَّخَعِىّ أنهما سَكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفَرّاء قال يقال : هذه فعلت وهذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال . وهــذِ فعلت ، بكسر الذال من غير إلحــاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تافعلت . وأنشد :

خَلِيلَىّ لَوْلَا ساكِنُ الدَّارِ لم أُقِمْ　*　بِتَا الدَّارِ إلّا عابرَ آبن سـبيل

قال آبن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزله ذى بإسقاط ها من هذى ، و بمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء : مَن قال هذِ قامتْ لا يُسقط ها ؛ لأن الآسم لا يكون على ذال واحدة .

﴿فَتَكُونَا﴾ عطف على « تقربا » فلذلك حُذفت النون . وزعم الجَرْمِىّ[1] أن الفاء هى الناصبة ؛ وكلاهما جائز .

قوله تعــالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ قرأ الجماعة « فَأَزَلّهما » بغير ألف ، من الزَّلة وهى الخطيئة ؛ أى آستزلّها وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فأزالهما » بألف ، من التّنحية ؛ أى نَحّاهما . يقال : أزلته فزال . قال آبن كَيْسان : فأزالهما من الزوال ؛ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى ، إلّا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى . يقال منه : أزْلَلْته فزَلّ . ودلّ على هذا قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »[2] ، وقوله :

---

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن إسحاق أبو عمر مولى جرم ؛ لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٣

«فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ» والوسوسة إنما هى إدخالها فى الزّلل بالمعصية؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله فى الزلل؛ فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه. وقد قيل: إن معنى أزلهما مِن زلّ عن المكان إذا تنحّى؛ فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال. قال آمرؤ القيس:

يُزِلّ الغـــلامُ الخِفُّ عن صَهَواتِه * ويُلْوِى بأثوابِ العَنيفِ المثقَّـــلِ[1]

وقال أيضا:

كُمَيْتٍ يُزِلّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِه * كما زلّت الصَّـفْواء بالمتـنزِّل[2]

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله: «فأخرجهما» تأكيد وبيان للزوال؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض؛ لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة فى الأرض. ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أُبعد هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل آزداد سُخْنَة[3] عَين وغَيظ نفس وخَيبة ظنّ. قال الله جلّ ثناؤه: «ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى»[4] فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارًا له فى داره؛ فكم بين الخليفة والجار! صلّى الله عليه وسلم. ونسب ذلك إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه. ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّى إغواء آدم؛ وآختلف فى الكيفية، فقال آبن مسعود وآبن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة. وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن مُنَبِّه: دخل الجنة فى فم الحيّة وهى ذات أربع كالبُخْتِيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخف (بالكسر): الخفيف. والصهوة: موضع اللبد من ظهر الفرس. ويلوى بها: يذهب بها من شدّة عدوه. والعنيف: الذى لا يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل. والمثقل: الثقيل.

(٢) الكميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم. والحال: موضع اللبد من ظهر الفرس. والصفواء (جمع صفاة): الصخرة الملساء. والمتنزل: الذى ينزل عليها فيزلق عنها.

(٣) سخنت عينه: نقيض قرّت. (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٥٧

نفسه على كثير من الحيوان فلم يُدخله إلا الحيّة؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جَوْفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها لجاء بها إلى حوّاء فقال : ٱنظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسن لونَها ! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء : كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هذا ياربّ؛ قال : ألا تخرج ؟ قال أستحى منك يارب؛ قال : ٱهبط إلى الأرض التى خُلقت منها . ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها فى جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بنى آدم؛ ولذلك أُمِرنا بقتلها ، على ما يأتى بيانه . وقيل لحوّاء : كما أَدْمَيْت الشجرة فكذلك يصيبك الدّم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش : وتكونى سَفِيهة وقد كنت حَلِيمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من ٱبن آدم مجرى الدم " . والله أعلم . وسيأتى فى الأعراف[1] أنه لما أكل بقى عُريانًا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التّين، فأخذ من ورقه فٱستتر به ، فبُلِيَ بالعُرْى دون الشجر . والله أعلم . وقيل : إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثــة ــ يُذكر أن الحيـة كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك؛ فلما أهبطوا تأكّدت العـداوة وجُعل رزقها التراب، وقيل لها : أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسك . روى ٱبن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمسٌ يقتلهنّ المُحْرِم " فذكر الحية فيهن . وروى أن إبليس قال لها : أدخليني الجنة وأنت فى ذمّتى؛ فكان ٱبن عباس يقول : أَخْفِروا[2] ذِمّة إبليس . وروت ساكنةُ بنتُ الجَعْد عن سَرّاء[3] بنت نَبْهان الغَنَوِيّة قالت : سمعت

---

(١) راجع ج ٧ ص ١٨١ .　(٢) أى ٱنقضوا عهده وذمامه .　(٣) فى التقريب : « بفتح أولها وتشديد الراء المهملة مع المدّ » . وفى أسد الغابة : « بفتح السين وإمالة الراء المشدّدة ، وآخره ياء ساكنة » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " آقتلوا الحيّات صغيرَها وكبيرَها وأسودَها وأبيضَها فإن مَن قتلها كانت له فداء من النار ومَن قتلته كان شهيدا " . قال علماؤنا : و إنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس و إعانته على ضرر آدم وولده ؛ فلذلك كان مَن قتل حيّة فكأنما قتل كافرا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمع كافرٌ وقاتلُه فى النار أبداً " . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعـــة — روى آبن جُريج عن عمرو بن دِينار عن أبى عبيدة[(١)] بن عبد الله بن مسعود قال : كنّا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم بمِنًى فمرّت حيّة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آقتلوها " فسبقتنا إلى جُحْر فدخلته ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليه نارا " . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخصّ نهيه عليه السلام عن المُثْلَة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى ؛ قالوا : فلم يبق[(٢)] لهذا العدوّ حُرْمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيـل : قد رُوِى عن إبراهيم النَّخَعِى أنه كره أن تُحرق العقرب بالنار ، وقال : هو مُثْلَة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعمل على الأثر الذى جاء : " لا تعذّبوا بعذاب الله " فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنّا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى غار وقد أنزلت عليه : « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » فنحن نأخذها من فيه رَطْبَة ، إذ خرجت علينا حيّة ، فقال : " آقتلوها " ، فآبتدرناها لنقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وقاها الله شركم كما وقاكم شرّها " . فلم يُضرم نارا ولا آحتال فى قتلها . قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركها ، أو لم يكن الجُحْر بهيئة ينتفع بالنـار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : " وقاها الله شركم " أى قتلكم إيّاها " كما وقاكم شرها " أى لَسْعَها .

---

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل . وفى غيرها من التفاسير : « عن عبد الله بن مسعود » . ويبدو أن الأصل : « عن أبى عبيدة عن أبيه عبد الله » الخ . (٢) الضمير للحديث ؛ أى لم يبق هذا الحديث الخ .

الخامســة – الأمرُ بقتل الحَيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المَخُوفة من الحيات؛ فما كان منها متحقّق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله: "آقتلوا الحيّات وآقتلوا ذا الطُّفْيَتَين[1] والأَبْتَر فإنهما يَخْطَفان البصر ويُسقطان الحَبَل". فخصّهما بالذكر مع أنهما دخلا فى العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها فى غير البيوت قُتل أيضا لظاهر الأمر العام، ولأن نوع الحيّات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيـه، ولأنه كله مروّع بصورته وبمـا فى النفوس من النّفرة عنه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب الشّـجاعة ولو على قتـل حيّة". فشجّع على قتلها. وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا: "آقتلوا الحيات [كلهنّ][2] فمن خاف ثأرهنّ فليس منى". والله أعلم.

السادســة – ما كان من الحيّات فى البيوت فلا يُقتل حتى يُؤذن ثلاثة أيام؛ لقوله عليه السلام: "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شـيئا فآذنوه ثلاثة أيام". وقد حمل بعض العلماء هـذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها؛ قالوا: ولا نعلم هل أسـلم مِن جنّ غير المدينـة أحدٌ أو لا؛ قاله آبن نافع. وقال مالك: نهى عن قتـل جِنان[3] البيوت فى جميع البـلاد. وهو الصحيح؛ لأن الله عز وجل قال: «وإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ[4]» الآية. وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أتانى داعى الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه: وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ الحديث. وسيأتى بكماله فى سورة «الجن»[5] إن شاء الله تعالى. وإذا ثبت هذا فلا يقتل شىء منها حتى يُحرَّج[6] عليه ويُنذر؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذو الطفيتين: حية لها خطان أسودان كالطفيتين أى الخوصتين. (٢) الزيادة عن سنن أبى داود.

(٣) جنان (بتشديد النون الأولى، جمع جان): ضرب من الحيات الدقيق الخفيف يضرب إلى الصفرة ليس بسام، وهو كثير فى بيوت الناس. (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢١٠ (٥) راجع جـ ١٩ ص ١ فما بعد.

(٦) فى هامش نسخة من الأصل: «التحريج هو أن يقول لها: أنت فى حرج — أى فى ضيق — إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل». وكذلك هو فى نهاية ابن الأثير واللسان.

السابعة — روى الأئمة عن أبى السائب مَوْلى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبى سعيد الخُدْرِىّ فى بيته، قال : فوجدته يصلّى، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته، فسمعت تحريكا فى عَراجِينَ ناحية البيت، فالتفتّ فإذا حيّة، فوثبتُ لأقتلها؛ فأشار إلىّ أن آجلس فجلست؛ فلما آنصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم؛ فقال : كان فيه فَتًى منّا حديثُ عهد بعُرْس، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخَنْدَق؛ فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله؛ فآستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيْظَة". فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع؛ فإذا آمرأتُه بين البابين قائمة فأهْوَى إليها بالرُّمح ليطعُنَها به وأصابته غَيْرَة؛ فقالت له : آكفف عليك رمحك، وآدخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ! فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوِية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فآنتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه، فما يُدْرَى أيُّهما كان أسرعَ موتًا، الحيّةُ أمِ الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له، وقلنا : آدع الله يحييه [لنا][1]؛ فقال : "آستغفروا لأخيكم[2] — ثم قال : — إنّ بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذِنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان". وفى طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لهذه البيوت عوامر[3] فإذا رأيتم شيئا منها فحرِّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر — وقال لهم : — آذهبوا فآدفنوا صاحبكم". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يُفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هذا الفتى كان مسلمًا وأن الجن قتلته به قصاصًا؛ لأنه لو سُلِّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض؛ وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتل نفس مسلمة، إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنما قصد إلى قتل ما سُوِّغ قتل نوعه شرعًا؛ فهذا قتل خطأ ولا قصاص فيه . فالأولى

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) فى صحيح مسلم : «لصاحبكم» .
(٣) العوامر : الحيات التى تكون فى البيوت، واحدها عامر وعامرة .

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وٱنتقاما . وقد قتلت سعد ٱبن عُبَادة رضى الله عنه ، وذلك أنه وُجد ميتًا فى مغتسله وقد ٱخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرَوْن أحدا :

قــد قتلنا ســيّد الخَزْ * رَج سعدَ بن عُبَاده
ورمينــاه بسهميــ * ــن فلم نُخْطِ فؤاده

و إنما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقًا يحصل به التحرز من قتل المسلم منهم و يتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوِى من وجوه أن عائشةَ زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قتلت جانًّا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ، فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت بٱثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة؛ فتصدّقت وأعتقت رِقاباً . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيّات التى نَهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنـــة — فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أَحَبُّ إلىّ أن يُنذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار، وإن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا"، وقوله : "حرّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث ؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى؛ لقوله عليه السلام: "ثلاثة أيام". وهو نص صحيح مقيّد لتلك المطلقات، ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنَانى عن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

عليه السلام ، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام ؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـلوه .

قلت : وهذا يدلّ بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة؛ والحديث يردّه. والله أعلم. وقد حكى ٱبن حبيب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان — عليه السلام — ألّا تؤذيننا وألّا تظهرنّ علينا .

التاسعـة — روى جُبير عن نُفير عن أبى ثعلبة الخُشَنِيّ — وٱسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجنّ على ثلاثة أثلاث فثلثٌ لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يحـلّون ويَظعَنون ". وروى أبو الدَّرداء — وٱسمه عُوَيْمر — قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم : " خلق الجنّ ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قـلوب لا يفقهون بها وأعين لا يُبصرون بها وأذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه " .

العـاشرة — ما كان من الحيوان أصله الإذاية فإنه يُقتل ٱبتداء ، لأجل إذايته من غير خلاف؛ كالحيّة والعَقْرب والفار والوَزَغ، وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " خمسٌ فواسقُ يُقتلان فى الحِلّ والحَرَم ... " . وذكر الحديث .

فالحيّة أبْدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فَكّيها؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : " ٱقتلوها ولو كنتم فى الصلاة " يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة[1] نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت. وهذا من نوع ما يُرْوَى فى الحية . ورُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال :" مَن قتل وَزَغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سام أبرص .

قتل كافرا". وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "مَن قَتل وَزَغة فى أوّل ضربة كُتبت له مائةُ حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك" وفى رواية أنه قال : "فى أوّل ضربة سبعون حسنة".

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبد الرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقتل المُحرِمُ الحيّةَ والعقرب والحدأة والسَّبُع العادى والكلب العقور والفُوَيْسقة". وآستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت فَتِيلة لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبيّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جِيفة . هذا كلّه فى معنى الحيّة؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى « المائدة »(١) وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا﴾ حُذفت الألف من « آهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحُذفت الألف من « قلنا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها . وروى محمد بن مصَفَّى عن أبى حَيْوَةَ ضمّ الباء فى « آهبطوا » ، وهى لغة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعدى أن يأتى على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان؛ فى قول آبن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل؛ فأهبط آدم بسَرَنْدِيبَ فى الهند بجبل يقال له « بوذ »(٢) ومعه ريح الجنة فعلِق بشجرها وأوديتها فآمتلأ ما هناك طِيبًا؛ فمن ثَمَّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع ، فأورث ولده الصلع . وفى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "خلق الله آدم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٠٣ (٢) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : « راهون » .

وطوله ستون ذراعا" الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . واهبطت حوّاء بجُدّة و إبليس بالأُبُلّة[1]، والحيّة بِبَيْسان[2]، وقيل : بسَجِسْتان[3] . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبَدّ[4] الذى يأكلها و يفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحيات؛ ذكره أبوالحسن المسعودى.

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ « بعضكم » مبتدأ ، « عدو » خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم . وحذفت الواو من و « بعضكم » لأن فى الكلام عائدا؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعْدُو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصُّراح . وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يَعْدُوك هذا الأمر؛ أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فسمّى عدوّا لمجاوزة الحد فى مكروه صاحبه؛ ومنه العَدْو بالقَدَم لمجاوزة الشيء، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ و إن كان صحيحا معنًى . يدلّ عليه قوله عليه السلام : " إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه آتق الله فينا فإنك إذا آستقمت آستقمنا و إن آعوججت آعوججنا" . فإن قيل: كيف قال « عدو » ولم يقل أعداء؛ ففيه جوابان أحدهما : أن بعضًا وكُلًّا يُخبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن؛ قال الله تعالى: « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ آلْقِيَامَةِ فَرْدًا »[5] على اللفظ، وقال تعالى : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ »[6] على المعنى . والجواب الآخر: أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع؛ قال الله عز وجل : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا »[7] بمعنى أعداء ، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ آلْعَدُوُّ »[8] . وقال آبن فارس : العدوّ آسم جامع للواحد والآثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

(١) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحرى .
(٢) بيسان : بلدة بمرو و بالشام وموضع باليمامة . (٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : آسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) . (٤) العربدّ (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى . (٥) راجع جـ ١١ ص ١٦٠ (٦) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠ (٨) راجع جـ ١٨ ص ١٢٥

الثالثـــة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته ، وإنما أهبطه إمّا تأديباً وإمّا تغليظًا للمِحْنة . والصحيح فى إهباطه وسكناه فى الأرض ما قـد ظهر من الحكمة الأزليّة فى ذلك ، وهى نشر نَسـله فيها ليكلّفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأُخْرَوِىّ ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . ولله أن يفعل مايشاء . وقد قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهـذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقـد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض . وإنمـا قلنا إنمـا أهبطه بعد أن تاب عليـه لقوله ثانية : « قُلْنَا ٱهْبِطُوا »[1] وسيأتى .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ٱبتـداء وخبر ؛ أى موضـع ٱستقرار . قاله أبو العالية وٱبن زيد . وقال السُّدّىّ : « مُسْتَقَرٌّ » يعنى القبور .

قلت : وقول الله تعـالى : « جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً »[2] يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع مايُستمتع به من أكل ولُبْس وحيـاة وحديث وأنس وغير ذلك ؛ ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح لأنها يُتَمَتَّع بها . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ٱبنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قـبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليـلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ اختلف المتأولون فى الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهـذا قول من يقول : المستقَرّ هو المقام فى الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقَرّ هو القبور . وقال الربيع : « إلى حين » إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خويلد :

كابِى الرَّماد[3] عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُه * حِينَ الشتاءِ كحَوْض المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفاً ؛ أى تهوّر من أسفله وٱتّسع . وربمـا أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزَة :

العاطفـون تَحِين ما مِن عاطفٍ * والمُطْعِمون زمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ

(١) ص ٣٢٧   (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٨   (٣) كابى الرماد : أى عظيم الرماد .

والحين أيضا : المدّة ؛ ومنه قوله تعالى : « هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »[١] .
والحين : الساعة؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ »[٢] . قال ابن عرفة : الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : «فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ»[٣] أى حتى تفنى آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ »[٤] أى كل سنة؛ وقيل : بل كل ستة أشهر؛ وقيل : بل غُدْوَةً وعَشِيًّا . قال الأزهرىّ : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البتّة . قال : والحين يوم القيامة . والحين : الغُدْوَة والعَشِيّة؛ قال الله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ »[٥] . ويقال : عاملته محاينَةً؛ من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حينًا . وحان حينُ كذا أى قرب . قالت بُثَيْنَة :

وإنّ سُلُوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ماحانت ولاحان حينُهَا

السابعـــة — لما اختلف أهل اللسان فى الحين اختلف فيـه أيضا علماؤنا وغيرهم؛ فقال الفَـرّاء : الحين حينان : حين لا يوقف على حدّه، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : «تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا»[٥] ستة أشهر. قال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلّق به حُكم، والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام و يرتبط به التكليف؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمـان أعمّ الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله؛ لأن المقدرات عنده لا تثبت قياسا، وليس فيـه نص عن صاحب الشريعة، و إنمـا المعوّل على المعنى بعـد معرفة مقتضى اللفظ لغةً . فمن نذر أن يصلّى حينًا فيُحمل على ركعة عنـد الشافعى؛ لأنه أقل النافلة، قياساً على ركعة الوتر. وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان؛ فيتقدّر الزمان بقدر الفعل . وذكر ابن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه : أن من حلف ألّا يكلم فلانا حينًا أو لا يفعل كذا حينًا، أن الحين سنة . قال : واتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألّا يفعل كذا حينًا أو لا يكلّم فلانا حينًا، أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

(١) راجع ج ١٩ ص ١١٦ (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٧٢ (٣) راجع ج ١٢ ص ١٣٠
(٤) راجع ج ٩ ص ٣٦٠ (٥) راجع ج ١٤ ص ١٤

قلت : هذا الاتفاق إنما هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : مَن حلف ألا يفعل شيئا إلى حِينٍ أو زمان أو دهر، فذلك كلّه سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جُبير وعامر الشَّعْبيّ وعَبِيدة فى قوله تعالى : « تُؤْتِى أُكُلها كُلّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها » أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيد : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا. وقال: لا نُحَنِّثه أبدًا، والوَرَع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثَور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جئت من حين، ولعلّه لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة، الحين له مصارف، ولم ير الشافعىّ تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغة لمعنًى معيّن . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : «إلى حِينٍ» فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التى وعد بالرجوع إليها ؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ تَلقّى قيل معناه : فَهِم وفَطِن . وقيل : قَبِل وأخذ، وكان عليه السلام يتلقّى الوَحْى؛ أى يستقبله و يأخذه و يتلقّفه . تقول: خرجنا نتلقّى الحجيج ؛ أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّى تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقّى مِن التلقّن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنما يُقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنّى مِن تظنّن، وتقصّى من تقصّص . ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تَقَبَّى مِن تقبّل ، ولا تلقّى مِن تلقّن؛ فاعلم . وحَكَى مكيّ أنه أُلهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولُها تعلّمه لها وعمله بها .

الثانيـة — وآختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال آبن عباس والحسن وسعيد آبن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ »(١) . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللّهمّ لا إلٰه إلّا أنت ربّى ظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفة : رأى مكتوبًا على ساق العرش « محمد رسول الله » فتشفّع بذلك ، فهى الكلمات . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والآستغفار والحزن . قال آبن عطية : وهذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الآستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب ؛ فقال : يقول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى »(٢) . وقال يونس : « لا إِلٰهَ إِلّا أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »(٣) . وعن آبن عباس ووهب بن مُنَبِّه : أن الكلمات « سبحانك اللّهمّ و بحمدك ، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فآغفر لى إنك خير الغافرين ، سبحانك اللّهمّ و بحمدك ، لا إلٰهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التوّاب الرحيم » . وقال محمد بن كعب هى قوله : « لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك و بحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التواب الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك و بحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فآرحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إلٰهَ إلا أنت سبحانك و بحمدك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فآرحمنى إنك أرحم الراحمين » . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : « الحمد لله » . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم(٤) :

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أى قَبِل تو بته ، أو وفّقه للتّو بة . وكان ذلك فى يوم عاشوراء فى يوم جمعة ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبد : رجع إلى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التو بة الرجوع ؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٦١ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٣٣
(٤) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

الرابعـــة — إن قيل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له فى الذنب بإجماع ، وقد قال : « وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » و « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا » . فالجواب : أن آدم عليه السلام لمـا خوطب فى أوّل القصة بقوله : « ٱسْكُنْ » خصّه بالذكر فى التلقّى ؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها ؛ ولذلك لم يذكرها فى المعصية فى قوله : « وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ » . وأيضا لمـا كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأمر لم تُذكر ، كما لم يذكر فتى موسى مع موسى فى قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ » . وقيل : إنه دلّ بذكر التوبة عليـه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعـالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا »[1] أى التجارة لأنها كانت مقصود القوم ، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما ، والمعنى متقارب . وقال الشاعر[2] :

رَمانى بأمر كنتُ منه ووالدِى　*　بريئًـا ومن فوق الطَّوِىّ[3] رمانِى

وفى التنزيل : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ »[4] فحذف إيجازا وٱختصارا .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعـالى بأنه التوّاب ، وتكرر فى القرآن معرّفا ومنكرا وٱسما وفعلا . وقد يُطلق على العبد أيضا توّاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ »[5] . قال ٱبن العربى : ولعلمائنا فى وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال ، أحدها : أنه يجوز فى حق الربّ سبحانه وتعـالى فيُدْعَى به كما فى الكتاب والسُّنّة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقىّ لله سبحانه وتعالى ، وتوبة الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد قبوله توبته ، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك ، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع فى قلب المسىء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ .　(٢) هو عمرو بن أحمر الباهلى .　(٣) الذى فى شرح شواهد سيبويه : « ومن أجل الطوى » . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمرى : « وصـف فى البيت رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة فى بئر ، فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثـله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التى كانت بينهما » .　(٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ .　(٥) راجع جـ ٣ ص ٩١ .

السادســة — لا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى : تائب، اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليـه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيّه عليـه السلام أو جماعة المسلمين؛ وإن كان فى اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح فى هذا الباب، على ما بيّناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ »[1] . وقال : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »[2] . وإنما قيل لله عزّ وجلّ : تواب، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعــة — اعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التّوبة؛ لأن الله سبحانه وتعـالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافا للمعتزلة ومَن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهـذا الأصل العظيم فى الدّين « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحَبْرَ أو الراهب فيعطيه شيئا ويحطّ عنه ذنوبه « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »[3] .

الثامنــة — قرأ ابن كثير : « فتلقى آدمَ من ربّه كلماتٌ » . والباقون برفع « آدم » ونصب « كلمات » . والقراءتان ترجعان إلى معنًى؛ لأن آدم إذا تلقّى الكلمات فقـد تلقته . وقيـل : لمـا كانت الكلمات هى المنقـذة لآدم بتوفيق الله تعـالى له لقبوله إياها ودعائه بهـا كانت الكلمات فاعلة، وكأن الأصل على هـذه القراءة « فتلقّت آدمَ من ربه كلماتٌ »؛ لكن لمّا بعـد ما بين المؤنث وفعـله حَسُن حذف علامة التأنيث . وهـذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلامِ إذا جاء فعـل المؤنث بغير علامة؛ ومنـه قولهم : حضر القـاضى اليوم امرأة . وقيـل : إن الكلمات لمّـا لم يكن تأنيثـه حقيقياً حُمِـل على معنى الكَلِم، فذُكِّر . وقـرأ الأعمش : « آدمْ مِن ربه » مدغمـا . وقرأ أبو نوفل بن أبى عقرب : « أنه » بفتح الهمـزة، على معنى لأنه؛ وكسر البـاقون على الاستئناف . وأدغم الهـاء فى الهـاء أبو عمـرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهـم . وقيـل : لا يجوز؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦ (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٦

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو، وأنشد :

له زَجَلٌ كأنّه صَوْتُ حادٍ * إذا طَلب الوَسيقةَ أو زَميرُ [1]

فعلى هذا يجوز الإدغام، وهو رفع بالابتداء . « التواب » خبره، والجملة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « هو » توكيدا للهاء، ويجوز أن تكون فاصلة، على ما تقدّم .

وقال سعيد بن جُبير : لما أُهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيها شيء غير النَّسر فى البر، والحوت فى البحر، فكان النسر يأوى إلى الحوت فيبيت عنده ؛ فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشى على رجليه و يبطش بيديه ! فقال الحوت : لئن كنتَ صادقًا مالى منه فى البحر مَنْجى، ولا لك فى البر منه مَخْلَص ! .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده، كما تقول لرجل: قُمْ قُمْ . وقيل : كرّر الأمر لما علّق بكل أمر منهما حُكمًا غيرَ حُكم الآخر، فعلّق بالأوّل العداوة، و بالثانى إتيان الهدى . وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء، والثانى من السماء إلى الأرض . وعلى هذا يكون فيه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة، كما دلّ عليه حديث الإسراء، على ما يأتى [2] .

﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن مُنَبِّه : لما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فأهلكوه، فآجتمعوا وولّوْا أمرهم إلى الكلب

---

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا ؛ فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتانه التى يضمها — صوّت بها، وكأن صوته لما فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى و يطربها ، أو صوت مزمار . والزجل : صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .　　(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحيّر فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ؛ ففعل ، فلما رأت السباع أن الكلب ألِف آدم تفرّقوا . واستأمنه الكلب فأمنه آدم، فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذىّ الحكيم نحو هذا، وأن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السباع فأشلاهم (١) على آدم ليؤذوه؛ وكان أشدّهم عليه الكلب، فأُميت فؤاده؛ فروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فاطمأن إليه وألفه؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين؛ فلو رُمى بمَدَرٍ ولّى هاربا ثم يعود آلفًا لهم . ففيه شعبة من إبليس، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويهِرّ ويعدو على الآدمىّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وانقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولَهَثُه (٢) على كل أحواله من موت فؤاده؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب ، على ما يأتى بيانه فى « الأعراف (٣) » إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ اختلف فى معنى قوله : « هُدًى » ؛ فقيل : كتاب الله؛ قاله السُّدّى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهُدَى الرسل، وهى إلى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر؛ كما جاء فى حديث أبى ذرّ ، وخرّجه الآجُرّى . وفى قوله : « مِنِّى » إشارة إلى أن أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى ؛ خلافًا للقدرية وغيرهم ؛ كما تقدّم . وقرأ الجَحْدَرِى (٤) « هُـدَىّ » وهو لغـة هذيل، يقولون : هُـدَىّ وعَصَىّ ومَحْيَىّ . وأنشد النحويون لأبى ذُؤَيب يرثى بنيه :

سَـبَقُوا هَوَىّ وأعنقوا لهواهمُ * فتُخُرِّموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ (٥)

---

(١) أشلاهم : أغراهم . (٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٣ (٤) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء .

(٥) « هوىّ » : يريد هواى؛ أى ماتوا قبلى وكنت أحب أن أموت قبلهم . « وأعنقوا لهواهم » جعلهم كأنهم هووا الذهاب الى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . « فتخرموا » أى أخذوا واحدا واحدا .

قال النحاس : وعلّة هـذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يُكسر ماقبلها؛ فلما لم يَجُز أن تُحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » في قوله : « إمّا » زائدة على « إنْ » التي للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله : « فَمَنْ تَبِعَ » . و « مَن » في موضع رفع بالابتداء . و « تبع » في موضع جزم بالشرط . « فَلَا خَوْفٌ » جوابه . قال سيبويه : الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول . وقال الكسائي : فلا خوفٌ عليهم » جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا في المستقبل . وخاوفني فلان فَخُفْتُه؛ أي كنت أشدّ خوفًا منه . والتخوُّف : التنقّص؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »[1] . وقرأ الزُّهْرِيّ والحسن وعيسى بن عمر وآبن أبي إسحاق ويعقوب : « فلا خوفَ » بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الآبتداء؛ لأن الثاني معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن « لا » لا تعمل في معرفة، فآختاروا في الأول الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون «لا» في قولك : فلا خوف؛ بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضدّ السرور ، ولا يكون إلا على ماض . وحَزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا، مثل أسلكه وسلكه؛ ومحزون بُنِيَ عليه . قال اليزيدي : حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرئ بهما . وآحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى في الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين ، و إذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٩

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أشركوا؛ لقوله : ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الصحبة : الاقتران بالشىء فى حالة مّا، فى زمان مّا ؛ فإن كانت الملازمة والخُلْطة فهى كمال الصحبة؛ وهكذا هى صحبة أهل النار لهـا . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، على مانبيّنه فى « براءة » (١) إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿يَابَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ نداء مضاف، علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد ٱبن ، والأصل فيه بنى، وقيل : بَنَوٌ ؛ فمن قال : المحذوف منه واو ٱحتج بقولهم : البنوّة . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوّة، وأصله اليـاء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو؛ لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ٱبن بيّن البنوّة، والتصغير بُنَىّ . قال الفراء : يقال : يابُنَىِّ ويابُنَىَّ لغتان ، مثل يا أبتِ ويا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشـتقّ من البناء وهو وضع الشىء على الشىء؛ والٱبن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وليس فى الأنبيـاء من له ٱسمان غيره، إلا نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة . ذكره فى كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه ٱسم عَلَم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سمّاه الله رُوحًا وكَلِمة، وكانوا يسمّونه أبيل الأَبِيلِين ؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى «دلائل النبوّة» عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو ٱسمين ، محمد وأحمـد نبينا صلى الله عليه وسلم، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكِفل، صلى الله عليهم وسلم .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤٨

قلت : ذكرنا أن لعيسى أربعة أسمـاء ، وأمّا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة ، بيانها فى مواضعها .

وإسرائيل : ٱسم أعجمى ، ولذلك لم ينصرف ؛ وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغـات : إسرائيل ، وهى لغة القرآن . و إسرائيل ، بمدّة مهموزة مختلسة ، حكاها شنّبوذ عن وَرْش . و إسرايِيل ، بمدّة بعد اليـاء من غير همز ، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر ؛ وقرأ الحسن والزهرىّ بغير همز ولا مدّ . و إسرائل ، بغير ياء بهمزة مكسورة . و إسراءَل ، بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين ، بالنون . ومعنى إسرائيل : عبد الله . قال ٱبن عباس : إسرا بالعبرانية هو عبد ، و إيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله ، و إيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ ؛ فكأن إسرائيل الذى شدّه الله وأتقن خلقه ؛ ذكره المهدوِى . وقال السُّهيلى : سمىّ إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى ؛ فسمى إسرائيل أى أسرى إلى الله ونحو هذا ؛ فيكون بعض الأسم عبرانياً و بعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذكر ٱسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان ، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشىء بلسانى وقلبى ذِكرا . وٱجعله منـك على ذُكْر (بضم الذال) أى لا تنسـه . قال الكسائى : ما كان بالضمير فهـو مضموم الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر ، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذِّكر أيضا الشرف ؛ ومنه قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »[1] . قال ٱبن الأنبارى : والمعنى فى الآية ٱذكروا شكر نعمتى ؛ فحذف الشكر ٱكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب ؛ أى لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها ؛ وهو حسن . والنعمة هنا ٱسم جنس ؛ فهى مفردة بمعنى الجمع ، قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »[2] أى نِعمه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسَّلْوَى ، وفجّر لهم

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩٣   (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧

من الحجر المـاء ، إلى ما آستودعهم من التـوراة التى فيها صـفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته . والنعم على الآباء نعم على الأبناء ؛ لأنهم يشرفون بشرف آبائهم .

تنبيـــه — قال أرباب المعـانى : ربط سـبحانه وتعالى بنى إسرائيـل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى ذكره ، فقـال : « آذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ »[1] ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم ، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم إلى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أمْرٌ وجوابه . وقرأ الزهرى : « أُوَفِّ » (بفتح الواو وشـد الفـاء) للتكثير . وآختلف فى هذا العهد ما هو ؛ فقال الحسن : عهده قوله : « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ »[2] ، وقوله : « وَلَقَـدْ أَخَذَ آللهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ آثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا »[3] . وقيل هو قوله : « وَإِذْ أَخَذَ آللهُ مِيثَاقَ آلَّذِينَ أُوتُوا آلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ »[4] . وقال الزجاج : « أَوْفُوا بعهدى » الذى عهدت إليكم فى التوراة من آتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، « أُوفِ بعهدكم » بمـا ضمنت لكم على ذلك ، إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، « أوف » بقبولهـا منكم ومجازاتكم عليها . وقال بعضهم : « أَوْفُوا بعهدى » فى العبادات ، « أوف بعهدكم » أى أوصلكم إلى منـازل الرعايات . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى حفظ آداب الظواهر ، « اوف بعهدكم » بتزيين سرائركم . وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره . هذا قول الجمهور من العلماء ، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِآلْعُقُودِ » ، « أَوْفُوا بِعَهْدِ آللهِ » ؛ وهو كثير . ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له ، بل ذلك تفضُّلٌ منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّاىَ فَآرْهَبُونِ ﴾ أى خافون . والرَّهْبُ والرَّهَبُ والرَّهْبَـة : الخوف . ويتضمّن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعـد النون لأنهـا رأس آية . وقـرأ آبن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧١ (٢) راجع ص ٤٣٧ من هذا الجزء
(٣) راجع جـ ٦ ص ١١٢ (٤) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤

أبى إسحاق: « فَٱرْهَبونِى » بالياء، وكذا « فٱتّقونى »؛ على الأصل . « وإيَّاىَ » منصوب بإضمار فعـل ، وكذا الآختيـار فى الأمر والنهى والآستفهام؛ التقـدير: وإياى آرهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فارهبون؛ على الآبتداء والخبر . وكون « فارهبون » الخبر على تقدير الحذف؛ المعنى وأنا ربكم فارهبون .

قوله تعـالى : وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَـا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدِّقوا؛ يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقاً ﴾ حال من الضمير فى « أنزلت »؛ التقدير بما أنزلته مصدقا؛ والعامل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية؛ التقدير آمنوا بإنزال . ﴿ لِمَـا مَعَكُمْ ﴾ يعنى من التوراة .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير فى « به » قيـل هو عائد على محمد صلى الله عليـه وسلم؛ قاله أبو العالية . وقال آبن جُرَيج : هو عائد على القرآن ، إذ تضمنه قوله : « بِمَـا أَنْزَلْتُ » . وقيل : على التوراة، إذ تضمنها قوله : « لِمَـا معكم » .

فإن قيل : كيف قال « كافر » ولم يقل كافرين؛ قيل : التقدير ولا تكونوا أول فريق كافر به . وزعم الأخفش والفراء أنه محمول على معنى الفعل؛ لأن المعنى أول من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله؛ وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتىً وأجمله . وقال : « أوَّلَ كافرٍ به » وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هـذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم عِلم . و « أول » عنـد سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل؛ وهو على أفعل، عينه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين : العين والفـاء؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو مِن وَأَلَ إذا نجا؛ فأصـله أَوْأَل ، ثم خُفِّفت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت

فقيل أوَل، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى : « والجمع الأوائل والأوالِي أيضا على القلب . وقال قوم : أصـله وَوَّل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة . و إنما لم يجمع على أواوِل لاستثقالهم آجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيـل : هو أفعل من آل يؤول ، فأصله أَأْوَل ؛ قلب فجاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهِّل وأُبدل وأُدغم .

مســـئلة — لا حُجّةَ فى هـذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب ، وهم الكوفيون ومن وافقهم؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أولا وآخرا ؛ وخصّ الأول بالذكر لأن التقدّم فيه أغلظ[(١)]، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أول من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنا؛ أى على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رِشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنُهوا عنـه ؛ قاله قوم من أهل التأويل، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب؛ فنُهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبـار كانوا يعلّمون دينهـم بالأجرة فنُهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يآبنَ آدمَ علّم مجّانا كما عُلّمت مجّانا ؛ أى باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنـا قليلا ، يعنى الدنيـا ومدّتها والعيش الذى هو نزر لا خطر له ؛ فسُمّى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا ، لأنهم جعلوه عوضا ؛ فانطلق عليـه آسم الثمن و إن لم يكن ثمنا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنباً أوظفِرتَ به * فمـا أصبتَ بترك الحج مِن ثَمَن

قلت : وهذه الآية و إن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله ، أو آمتنع من تعليم ما وَجب عليـه، أو أداء ما علمه

---

(١) فى نسخة من الأصل : « ... لأن النقل منه أعظم » .

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن تعلّم علماً مما يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة " يعنى ريحها .

الثانيـــة — وقد آختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — ؛ فمنع ذلك الزُّهرِىّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نيّة التقرب والإخلاص؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا» . وروى آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين " . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ماتقول فى المعلمين ؟ قال : " درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء " . وروى عُبَادة بن الصّامت قال : علمت ناسا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسًا؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله، فسألت عنها رسـول الله صلى الله عليه وسـلم؛ فقال : " إنْ سرّك أن تُطوّق بها طوقًا من نار فآقبلها " . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء؛ لقوله عليه السلام فى حديث آبن عباس — حديث الرُّقْيَة — : " إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتابُ الله " . أخرجه البخارى؛ وهو نصٌّ يرفـع الخلاف، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما آحتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد؛ لأنه فى مقابلة النص؛ ثم إن بينهما فُرقانا، وهو أن الصـلاة والصوم عباداتٌ مختصّة بالفاعل، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلّم؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال آبن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة؛ ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحًا أو شِعرا أو غناء معلوما بأجرٍ معلوم؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل، وشَرْعُ مَن قبلنا هل هو شَرْع لنا؛ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليـل السُّنّة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحِرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدِّين إعانته ، و إلا فعلى المسلمين؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لمـا ولى الخلافة وعُيّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق؛ فقيل له فى ذلك، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سـعيد بن طَريف عن عكرمة عنه؛ وسـعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف، ولم يرو حماد بن سَلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، و إنمـا رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عُبَادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسَىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند أهل العلم[(1)] ولكنه له مناكير، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العـلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أُبَىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أُبَىّ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأُبَىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون كلما خلق الدِّين جدّدوه أُعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقـال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبىّ وبراءة للعلم و براءة لأبويه من النار" .

(1) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

الثالثــة — وٱختلاف العلماء فى حكم المصلّى بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من ٱستُؤْجر فى رمضان يقوم للناس ؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له فى الفريضة . وقال الشافعى وأصحابه وأبو ثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعى : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ على ما تقدّم . قال ٱبن عبد البر : وهذه المسئلة معلّقة من التى قبلها وأصلهما واحد .

قلت : ويأتى لهــذا أصل آخر من الكتاب فى « براءة » إن شاء الله تعالى . وكره ٱبن القاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال ٱبن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب؛ ويكره من الشعر ما فيـه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللَّخْمِىّ : ويلزم على قوله أن يُجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبــه . وأما الغناء والنَّــوح فممنوع على كل حال .

الرابعــة — روى الدارمىّ أبو محمد فى مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا محمد ٱبن عمر بن الكُمَيْت قال حدثنا على بن وهب الهمدانىّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة — وهو يريد مكة — فأقام بها أياما ؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ؛ فأرسل إليه؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هــذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأىّ جفاء رأيت منى ؟ قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى ! قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عَرفتنى قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد ٱبن شهاب الزهرىّ فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم، مالنا نكره المــوت ؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيـا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدًا على الله تعالى ؟ قال : أمّا المحسن فكالغائب يَقْدَم على أهله ، وأمّا المسىء فكالآبق يَقْدَم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ! ما لنا عند الله؟ قال : أعرض عملك على كتاب الله . قال : وأىّ مكان أجده؟ قال :

«إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ »[1] . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبوحازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم، فأىّ عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأىّ الأعمـال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع آجتناب المحارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع ؟ قال : دعاء المحسَن إليه للمحسِن . فقال : أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ[2]، ليس فيها منّ ولا أذًى . قال : فأىّ القول أعدل ؟ قال : قولُ الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأىّ المؤمنين أكْيَس؟ قال : رجلٌ عَمِل بطاعة الله ودلّ الناس عليها . قال : فأىّ المؤمنين أحمق؟ قال : رجل آنحطّ فى هوَى أخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أَوَ تُعفينى؟ قال له سليمان : لا! ولكن نصيحة تُلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هـذا المُلْكَ عَنْوَة على غير مَشُورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ؛ فقـد آرتحلوا عنها، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم ! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبتَ، إن الله أخذ ميثاق العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نُصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلَف وتَمسَّكُون بالمروة وتقسمون بالسّويّة . قال له سليمان : فكيف لنـا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه مِن حِلّه وتضعه فى أهله . قال له سـليمان : هل لك يا أبا حازم أن تَصْحَبنا فتُصيبَ منـا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلا فيُذيقنى الله ضِعفَ الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك . قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة . قال له سليمان : ليس ذاك إلىّ ! قال له أبو حازم : فمالى إليك حاجة غيرها . قال : فآدع لى . قال أبو حازم : اللّهمّ إن كان سليمان وَلِيّك فيسِّرْه لخير الدنيا والآخرة ، و إن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى . قال له سليمان : قَطّ ! قال أبو حازم : قد أوجزتُ وأكثرتُ

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٧

(٢) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

إن كنت من أهــله ، و إن لم تكن من أهله فما ينبغى أن أرمى عن قَوس ليس لهــا وَتَر .
قال له سليمان : أوْصنى ، قال : سأُوصيك وأُوجِز : عظِّم ربك ، ونَزِّهه أن يراك حيث نهاك ،
أو يفقدك حيث أمرك . فلمــا خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار ، وكتب [إليه](١) أن
أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله
أن يكون ســؤالك إيّاى هَزْلاً أو ردّى عليك بَذْلا(٢) ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها](١)
لنفسى ! إن موسى بن عمران لمــا وَرَد ماءَ مَدْين وجد عليه رِعاءً يَسقون ، ووجد من دونهم
جاريتين تذودان [فسألهما ، فقالتا : لا نَسقى حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير](١) ؛ فسقى لهما
ثم تولّى إلى الظّل فقال : رَبّ إنى لِمَــا أنزلتَ إلىّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا
لا يأمن ، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى
أبيهما أخبرتاه بالقصة و بقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هــذا رجل جائع .
فقال لإحداهما : اذهبى فآدعيه . فلما أتته عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبى يدعوك
لِيَجزيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا ؛ فشقّ على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيتَ لنا» ولم يجد بُدًّا من
أن يتبعها ؛ لأنه كان بين الجبال جائعا مستوْحشًا . فلمــا تبعها هبّت الريح فجعلت تصفّق
ثيابها على ظهرها فتصِفُ له عجيزتها — وكانت ذات عَجُز — وجعل موسى يُعرِض مَرّة و يغضّ
أخرى ؛ فلما عِيل صبره ناداها : يا أَمَةَ الله كونى خلفى ، وأرِينى السَّمت بقولك . فلما دخل
على شُعَيب إذ هو بالعَشاء مُهَيَّأ ؛ فقــال له شعيب : اجلس يا شاب فتعشّ ؛ فقال له موسى
عليه الســلام : أعوذ بالله ! فقــال له شعيب : لِمَ ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنى
أخاف أن يكون هذا عِوضًا لمَــا سقيتُ لهما ، وأنا مِن أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء
الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا يا شابّ ، ولكنها عادتى وعادة آبائى : نَقْرِى الضيف
ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المــائة دينار عوضًا لمــا حدّثتُ فالميتة
والدمُ ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ من هذه ، و إن كان لحق فى بيت المــال فلى فيها
نظراء ؛ فإن ساوَيْت بيننا و إلا فليس لى فيها حاجة .

(١) الزيادة عن مسند الدارمى .	(٢) بذلا : أى راجيا بَذْلَك وعطاءك .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عِوَضًا ، ولا على وصيّته بَدْلًا ، ولا على نصيحته صَفَدًا[1] ؛ بل بيّن الحق وصَدَع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فزَع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يمنعنّ أحدَكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان" . وفى التنزيل : «يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[2] .

قوله تعالى : ﴿وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ﴾ قد تقدّم معنى التقوى[3] . وقرئ «فاتقونى» بالياء ، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله «وإيّاىَ فاتقونِ» قال : موضع علمى السابق فيكم . «وإيّاىَ فارهبونِ» قال : موضع المكر والاستدراج[4] ؛ لقول الله تعالى : «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»[5] ، وقوله : «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ»[5] . فما استثنى نبيًّا ولا صدّيقًا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ﴾ اللَّبْس : الخلط . لَبَست عليه الأمر ألبِسه ، إذا مزجتَ بيّنه بمُشْكله وحقّه بباطله ؛ قال الله تعالى : «وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ»[6] . وفى الأمر لُبْسة ؛ أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حارث إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يُعرَف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء :

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسَبه * رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا

صَدِّق مقالتَه واحذَر عداوته * والبس عليه أمورا مثلَ ما لَبَسا

---

(١) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢٠ (٣) راجع ص ١٦١ وما بعدها .

(٤) العبارة ها هنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : «وقال سهل : «وإياى فارهبون» موضع اليقين بمعرفته ، «وإياى فاتقون» موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج» .

(٥) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٥٤ . (٦) راجع جـ ٦ ص ٣٩٤ .

وقال العَجّاج :

لمـا لَبَسْنَ الحـــقَّ بالتَّجَـنِّى * غَنِينَ وآستبدَلْن زيدًا مـنِّى

روى سعيد عن قتـادة فى قوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ »، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإســلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يقبل غيره ولا يجـزى إلا به — الإسلامُ ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكَتِيبةٍ لَبّستها بكتيبة *

أنه من هـذا المعنى ؛ ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا فى معنى الآية ؛ أى لا تُغَطّوا . ومنـه لبس الثوب ؛ يقال : لبِست الثوب أَلْبَسه . ولبـاس الرجل زوجته ، وزوجها لباسها . قال الجَعْدِىّ :

إذا ما الضّجيع ثَـنَى جِيـدَها * تَثَنّتْ عليـه فكانت لباسَا

وقال الأخْطَل :

وقـد لَبِستُ لهـذا الأمر أعْصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللَّبوس : كل ما يُلبس من ثياب ودرع ؛ قال الله تعالى : « وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »[1] . ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس؛ أى مستمتع . قال :

أَلَا إن بعـد العُـدْم للمرء قِنْوةً[2] * وبعـد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق ، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* أَلَا كلُّ شىء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشىء يبطل بُطْلا وبُطولا وبُطلانا [ذهب ضـياعا وخسرا][3] ، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلًا ؛ أى هَـدَرا . والباطل : الشيطان . والبَطَل : الشجاع ، سُمّى بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهـم لـواء بأيـدى ماجدٍ بطـلٍ * لا يقطع الخـرق إلا طرفُـه سامى

---

(١) راجع جـ١١ ص ٣٢٠ (٢) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكِسْبة .
(٣) الزيادة عن اللسان .

والمرأة بَطَـلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة وبَطَالة[1] ؛ أى صار شجاعا . و بطَل الأجير (بالفتح) بَطَالة ؛ أى تعطّل ، فهو بطّال . وآختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فرُوى عن آبن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ؛ وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حقّ ، و بجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال آبن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليـه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول آبن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على « تَلْبِسُوا » فيكون مجزوما ، و يجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن ، التقـدير : لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ؛ أى وأن تكتموه . قال آبن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سِيرِين : نزل عصابة من ولد هارون يَثْرِبَ لمـا أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور العدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليـه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنـون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وسـلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ؛ أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، و إنمـا نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ »[3] الآية .

قوله تعالى : وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

(١) فى تاج العروس : « والبطالة بالكسر والضم لغتـان فى البطالة بالفتح بمعنى الشجاعة . الكسر نقـله الليث ، والضم حكاه بعض ونقله صاحب المصباح » . (٢) راجع جـ ٢ ص ٢٦ (٣) ص ٣٦٥ .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أمْرٌ معناه الوجوب ، ولا خلاف فيه ؛ وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة وآشتقاقها وفى جملة من أحكامها[1] ، والحمد لله .

الثانيـة — قوله تعـالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمْرٌ أيضا يقتضى الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيته : أعطيته ؛ قال الله تعـالى : « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ » . وأتيته — بالقصر من غير مدّ — جئته ؛ فإذا كان المجىء بمعنى الاستقبال مُدّ ؛ ومنـه الحديث : " ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه " . وسيأتى .

الثالثـة — الزكاة مأخوذة من زكا الشىء إذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرعُ والمالُ يزكو ؛ إذا كثر وزاد . ورجل زكى ؛ أى زائد الخير . وسُمّىَ الإخراج من المـال زكاة وهو نقص منـه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكِّى . ويقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء . وزكأت النـاقة بولدها تزكأ به : إذا رمتْ به من بين رجليها . وزكا الفرد : إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعًا . قال الشاعر :

كانوا خَسًا أو زَكًا من دون أربعة * لم يَخْلَقُوا وجدود النـاس تَعْتَلِجُ

جمع جَدّ ، وهو الحظ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . خَسًا : الفردُ ، وزكًا : الزّوْج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل ؛ ومنه زكّى القاضى الشاهد . فكأن مَن يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثنـاء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان ؛ أى طهر من دنس الجَرْحة والإغفال[2] . فكأن الخارج من المـال يطهّره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للمساكين . ألا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخَ النـاس ؛ وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا[3] » .

الرابعـة — وآختلف فى المـراد بالزكاة هنـا ؛ فقيل : الزكاة المفروضة ، لمقارنتهـا بالصلاة . وقيل : صدقة الفطر ؛ قاله مالك فى سماع ابن القاسم .

(١) راجع ص ١٦٤ — ١٧٧ من هذا الجزء .	(٢) فى نسخة : « أو الإغفال » وكذا فى تفسير ابن عطية .
(٣) راجع ج ٨ ص ٢٤٤ .

قلت : فعلى الأوّل — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمـة عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " ليس فى حَبّ ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق(١) ولا فيما دون خمس ذَوْدٍ(٢) صدقة ولا فيما دون خمسِ أواقٍ صدقة ". وقال البخارى : " خمس أواق من الورِق ". وروى البخارىّ عن آبن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيما سَقَتِ السماء والعيون أوكان عَثَرِيًّا(٣) العُشْرُ وما سُقِيَ بالنَّضح(٤) نصفُ العُشر ". وسيأتى بيان هذا الباب فى « الأنعام »(٥) إن شاء الله تعالى. ويأتى فى « براءة » زكاة العين والمـاشية ، وبيان المـال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً(٦) » . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نصٌّ عليها إلا ما تأوّله مالك هنا ، وقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(٧) . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » . والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة « الأعلى » ؛ ورأيت الكلام عليها فى هذه السورة عند كلامنا على آى الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان ، الحديث. وسيأتى ، فأضافها إلى رمضان .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ وَٱرْكَعُوا ﴾ الركوع فى اللغة الآنحناء بالشخص ؛ وكل منحن راكع . قال لَبيد :

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلمـا قمت راكعُ

وقال آبن دُريد : الركعة الهُوّة فى الأرض ، لغـة يمانية . وقيل : الآنحناء يعم الركوع والسجود ، ويستعار أيضا فى الآنحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعـه

---

(١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع . وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . (٣) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال آبن الأثير : « هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العذى (الزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسقى سيحا ، والأوّل أشهر » . (٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سقى من الآبار . (٥) راجع ج ٧ ص ٩٩ . (٦) راجع ج ٨ ص ٢٤٤ . (٧) راجع ج ٢٠ ص ٢١ .

السادســة ـــ وآختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم: جعل الركوع لمـا كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت: وهذا ليس مختصًّا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة [عبارة] [1] عن الصلاة، والسجودَ عبارة عن الركعة بكمالها؛ فقال: «وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ» أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة". وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيـل : إنمـا خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع . وقيل: لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم ـــ أظنه عمران بن حُصين ـــ للنبيّ صلى الله عليـه وسلم : على ألّا أخِرّ إلا قائمـا . فمن تأويله على ألّا أركع ؛ فلما تمكن الإسلام مِن قلبه آطمأنت بذلك نفسه وآمتثل ما أمر به من الركوع.

السابعــة ـــ الركوع الشرعى هو أن يحنى الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا يقول : سبحان ربى العظيم ثلاثا؛ وذلك أدناه . روى مسـلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين؛ وكان إذا ركع لم يُشْخص [2] رأسه ولم يصوّبه ولكن بين ذلك. وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليـه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر [3] ظهره ؛ الحديث .

الثامنـــة ـــ الركوع فرض ، قرآنا وسُنّة، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج : «ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا» [4] . وزادت السُّنة الطمأنينةَ فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا. وأما السجود فقد جاء مبيّنًا من حديث أبى حُميد الساعدىّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفّيه حَذْو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الإشخاص : الرفع . والتصويب : الخفض .
(٣) هصر ظهره : أى ثناه إلى الأرض . (٤) راجع ج ١٢ ص ٩٨

آنبساط الكلب ". وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سجدتَ فضع كفيك وآرفع مرفقيك ". وعن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليـه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خَوّى بيديه — يعنى جنح حتى يرى وَضَح إبطيه من ورائه — و إذا قعد آطمأن على فخذه اليسرى .

التاســعة — وآختلف العلماء فيمن وضـع جبهته فى السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثورىّ وأحمد، وهو قول النَّخَعِىّ . قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر؛ وبه قال أبو خَيْثَمة[1] وآبن أبى شيبة . قال إسحاق : إن سجـد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز، ورُوِى عن آبن عباس وسـعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبى ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة: يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وآبن سِيرين والحسن البصرى؛ وبه قال الشافعى وأبو ثور و يعقوب ومحمد . قال آبن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال آبن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح فى السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبى حُميد ، وقد تقدّم . وروى البخارى عن آبن عباس قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم :" أُمِرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة — وأشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتُ[2] الثياب والشَّعَر ". وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم وروى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ كقول عطاء والشافعى . والمختار عندنا قوله الأول ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل وتفسير العلامى نقلا عن القرطبى . وفى نسخة : « أبو حنيفة » .

(٢) قوله : « ولا نكفت » : أي لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

العــاشرة — و يكره السجود على كَوْر العمامة ؛ و إن كان طاقة أو طاقتين، مثل الثياب التى تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضـل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليـه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبـل دخوله فى الصلاة، فإن لم يفعـل فليمسحه مسحة واحدة . وروى مسلم عن مُعَيْقِيب أن رســول الله صلى الله عليـه وسلم قال فى الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : " إن كنتَ فاعلا فواحدة " . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى شدّة الحرّ ؛ فإذا لم يسـتطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحـادية عشرة — لمـا قال تعالى : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منهـا ما يُسمَّى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة فى ذلك ؛ فأخذوا بأقلّ الاسم فى ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتـة فى إلغاء الصـلاة . قال ٱبن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتـدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح فى الأثر، وعليـه جمهور العلماء وأهل النظر، وهى رواية ٱبن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقال القـاضى أبو بكر بن العربى : وقد تكاثرت الرواية عن ٱبن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فإن كان لأبن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فما لكم أنتم وقد ٱنتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائى والدّارَقُطْنِيّ وعلىّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ " وجعل الرجل يصلى وجعلنا نرمق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلمـا جاء فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " وعليك ٱرجع فصلّ فإنك لم تصلّ" . قال همام[1] : فلا ندرى، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل :

(١) همام هذا ، أحد رجال سند هذا الحديث .

ما أَلَوْتُ ، فلا أدرى ما عِبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيَغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبّر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صُلبه ويأخذ كل عظمٍ مأخذه ثم يكبّر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همّام : وربما قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبّر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ، ثم قال : — لا تتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم ، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبىّ عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بما فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » . على ما يأتى بيانه هناك[1] إن شاء الله تعالى . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : رأى حُذيفة رجلا لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متّ لمتّ على غير الفِطرة التى فَطَر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ « مع » تقتضى المَعيّة والجمعيّة ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد آختلف العلماء فى شهود الجماعة على قولين ؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال آبن عبد البر : وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ[2] بسبع وعشرين درجة " . أخرجه مسلم من حديث آبن عمر . وروى عن أبى هريرة رضى الله

(١) راجع ج ١١ ص ١٢١ . (٢) الفذ : المنفرد .

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا". وقال داود: الصلاة فى الجماعة فرض على كل أحد فى خاصته كالجمعة؛ وآحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاةَ لجار المسجد إلا فى المسجد" خرّجه أبو داود وصحّحه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح وأحمد بن حنبل وأبى ثَوْر وغيرهم . وقال الشافعى : لا أرخّص لمن قدر على الجماعة فى ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه آبن المنـذر . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : أتى النبىّ صلى الله عليـه وسـلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلى فى بيته ؛ فرخص له ؛ فلما ولّى دعاه فقال : "[هل][1] تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال: "فأجب" . وقال أبو داود فى هذا الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرجه من حديث آبن أم مَكْتُوم؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن آبن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العـذر ؟ قال : خوفٌ أو مرض — لم تُقبل منـه الصلاة التى صلى" . قال أبو محمـد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدى . والصحيح موقوف على آبن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له". على أن قاسم بن أَصْبغ ذكره فى كتابه فقال: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى، قال حدّثنا سليمان بن حرب، حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن آبن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "مَن سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر". وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومَغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال آبن مسعود : ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام : "بيننا و بين المنافقين شهود العَتَمة والصُّبح لا يستطيعونهما" . قال آبن المنذر : ولقـد روينا عن غير واحد من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "مَن سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم آبن مسعود وأبو موسى الأشعرىّ . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

الله صلى الله عليـه وسلم : "لقد هَممت أن آمر فِتْيتى فيجمعوا حُزَمًا من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهـم ليست لهم عِلة فأحرقها عليهـم " . هذا ما ٱحتج به من أوجب الصـلاة فى الجماعة فرضا، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة؛ بدليل حديث ٱبن عمر وأبى هريرة. وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه "لا صلاة له" على الكمال والفضل؛ وكذلك قوله عليه السلام لٱبن أم مكتوم: "فأجب" على الندب . وقوله عليه السلام : "لقد هممت " لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه هَمّ ولم يفعل؛ وإنمـا مخرجه مخرج التهديد والوعيد للنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة . يبيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبـد الله قال : « مَن سرّه أن يلقى الله غدًا مسلِمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سُنن الهُدَى، وإنهن من سنن الهدى ؛ ولو أنكم صلّيتم فى بيوتكم كما يصلّى هذا المتخلّف فى بيته لتركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم،ولو تركتم سُنة نبيّكم صلى الله عليه وسلم لضَلَلتم ؛وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد إلى مسجد من هـذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بهـا سيئة،ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنهـا إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى بين الرجلين[1] حتى يقام فى الصّف » . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الآجتماع سُنّة من سُنن الهُدَى وتركه ضلال؛ ولهذا قال القاضى أبو الفضل عِيَاض : ٱُختلِف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن؛ هل يقاتل عليها أولا ؛ والصحيح قتالهم؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السُّنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحّت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصـلاته فى سوقه بِضْعًا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يَنْهَزُه[2] إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْطُ خُطوة إلا رُفع له بهـا درجةٌ

(١) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما .

(٢) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه ؛ وهو بمعنى قوله بعده : "لا يريد إلا الصلاة" .

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبِسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيــه يقولون اللّهمّ ٱرحمه اللّهمّ ٱغفرله اللّهمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه ". قيل لأبى هريرة : ما يحدث ؟ قال : يَفْسُو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة — وٱختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة ؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت ، أو إنمـا يكون ذلك الفضـل للجماعة التى تكون فى المسجد ، لمـا يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحـديث ؛ قولان . والأول أظهر ؛ لأن الجماعة هو الوصف الذى عُلّق عليه الحُكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمُكْث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وٱختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا . وقال ٱبن حبيب : نعم ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصـلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله ". رواه أُبَىّ بن كعب وأخرجه أبو داود، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — وٱختلفوا أيضا فيمن صـلّى فى جماعة هل يُعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنمـا يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام مَن صلّى وحده فى بيته وأهلِه أو فى غير بيتــه ، وأمّا من صلّى فى جماعة و إن قلّت فإنه لا يعيد فى جمـاعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمـد بن حنبل و إسحاق بن راهَوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصـلاة أن يعيدها معهم إن شاء ؛ لأنها نافلة وسـنة . وروى ذلك عن حُذيفة بن اليَمَان وأبى موسى الأشـعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشَّعْبِى والنَّخَعِى ، وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

ٱحتج مالك بقوله صلى الله عليــه وسلم : "لا تُصلَّى صلاةٌ فى يوم مرتين" . ومنهم من يقول : لا تصلّوا . رواه سليمان بن يَسار عن ٱبن عمر . وٱتفق أحمـد و إسحاق على أن معنى

هـذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضـة ، ثم يقوم فيصلّيها ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلّاها مع الإمام على أنها سُـنّة أو تطوع فليس بإعادة الصلاة، وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : "إنها لكم نافلة" . من حديث أبى ذرّ وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يَؤُمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمُهم بالسُّنة فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا فى الهجرة سـواءً فأقدَمُهم سِلْمًا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعد فى بيتـه على تَكرِمته إلا بإذنه" وفى رواية "سِـنًّا" مكان "سِلْمًا" . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تَكْرِمَتُه ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق النـاس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسُّـنّة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلّى به . وكَرِهه بعضهم وقالوا : السُّنة أن يصلّى صاحب البيت . قال ٱبن المنذر : رَوَينا عن الأشعث ٱبن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤم القوم أقرؤهم ٱبن سِيرين والثورىّ و إسحاقُ وأصحابُ الرأى . قال ٱبن المنذر : بهذا نقول؛ لأنه موافق للسُّنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، و إن للسنّ حقًّا . وقال الأوزاعى : يؤمّهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بمـا ينوبه من الحوادث فى الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ؛ لأنهم كانوا يتفقهون فى القرآن، وقد كان من عُرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء؛ وٱستدلّوا بتقديم النبيّ صلى الله عليـه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبيّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه خليفته بعده . ذ كره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله

عليه وسلم : " إذا سافرتم فليؤمّكم أقرؤكم وإن كان أصغركم وإذا أمّكم فهو أميركم " . قال : لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبى هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا . ثبت فى صحيح البخارىّ عن عمرو بن سَلِمة قال : كنا بماء مَمَرِّ[1] الناس وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوْحَى إليه كذا ! أوحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يُقَرّ[2] فى صدرى ؛ وكانت العرب تَلَوَّم[3] بإسلامها فيقولون : آتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبىّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبىّ الله حقًّا ، قال : " صلوا صلاة كذا فى حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدكم وليؤمّكم أكثركم قرآنا " . فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنا لِمَا كنت أتلقّى من الركبان ، فقدّمونى بين أيديهم وأنا آبن ست أو سبع سنين ، وكانت علىّ بُرْدة إذا سجدت تقلّصتْ عنى ، فقالت آمرأة من الحَىّ : ألا تغطّون[4] عنا آسْتَ قارئكم ! فآشتروْا فقطعوا لى قميصا ، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبىّ غير البالغ الحسنُ البصرى وإسحاقُ بن راهْوَيْه ، وآختاره آبن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله فى جملة قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤمّ القوم أقرؤهم " ولم يستثن ، ولحديث عمرو آبن سَلِمة . وقال الشافعى فى أحد قوليه : يؤمّ فى سائر الصلوات ولا يؤمّ فى يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأتْ إمامته فى المكتوبة أجزأت إمامته فى الأعياد ، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعىّ : لا يؤمّ الغـلام فى الصلاة المكتوبة حتى يحتـلم ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شىء فإنه يؤمّهم الغلام المراهق . وقال الزهرى : إن آضطرّوا إليه أمّهم . ومنع ذلك جملةً مالكٌ والثورىُّ وأصحابُ الرأى .

السابعة عشرة ــ الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حُرٍّ على آستقامة جائزٌ من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن فى أمّ القرآن لحنًا يُخِلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) بتشديد الراء مجرورة صفة لماء ، ويجوز فتحها ؛ أى موضع مرورهم . (٢) يقرّ (بقاف مفتوحة) من القرار . وفى رواية « يقرا » بألف مقصورة أى يجمع ؛ أو بهمزة من القراءة . وفى رواية « يغرى » أى يلصق . (٣) تلوّم : تنتظر . (٤) فى الأصول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ؛ ولا مقتضى له .

من « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ويضم التاء فى « أَنْعَمْتَ » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد ؛ و إن لم يفرّق بينهما لا تصح إمامته ؛ لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص فى ذلك كله إذا كان جاهلا بالقراءة وأمّ مثلَه . ولا يجوز الائتمام بآمرأة ولا خُنْثَى مُشْكِل ولا كافرٍ ولا مجنونٍ ولا أُمّيّ ، ولا يكون واحدٌ من هؤلاء إماماً بحال من الأحوال عند أكثر العلماء ، على ما يأتى ذكره ، إلا الأمّيّ لمثـله . قال علمـاؤنا : لا تصح إمامة الأُمّيّ الذى لا يحسن القـراءة مع حضـور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أمّ أمّيًّا مثلَه صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إذا صلّى الأُمّىّ بقوم يقرءون و بقوم أمّيين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامّة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة ؛ لأن كلًّا مؤدٍّ فرضه ، وذلك مثـل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالمـاء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا ؛ لأن كلا مؤدّ فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلّى][1] كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . و إن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت آمرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هى ؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهى خلفه تصلّى . ورُوِىَ هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشَلّ والأقطع والخِصىّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال آبن وهب : لا أرى أن يؤمّ الأقطع والأشل ؛ لأنه منتقص عن درجة الكمال ، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ؛ لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم آستخلف آبن أمّ مكتوم يؤمّ النـاس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصىّ قياسا ونَظَرًا ، والله أعلم . وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليـه ! وكان آبن عباس وعِتْبان آبن مالك يؤمّان وكلاهما أعمى ؛ وعليه عامّة العلماء .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

التاسعة عشرة — وآختلفوا فى إمامة ولد الزنى؛ فقال مالك: أكره أن يكون إماما راتبا. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبى رَباح يقول: له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصرى والزُّهرى والنَّخَعىّ وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمـد و إسحاق. وتجزئ الصـلاة خلفه عنـد أصحاب الرأى، وغيره أحبّ إليهـم. وقال الشافعى: أكره أن ينصب إماماً راتباً مَن لا يُعرف أبوه، ومَن صلى خلفه أجزأه. وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنى وليس عليه من ذنب أبو يه شىء. ونحوه قال آبن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلاً للإمامة. قال آبن المنذر: يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤم القومَ أقرؤهم". وقال أبو عمـر: ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ و إنمـا فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدِّين.

الموفيـة عشريـن — وأما العبد فروَى البخارىّ عن آبن عمر قال: لمـا قدم المهاجرون الأوّلون العَصَبة — موضع بقُبَاء — قبل مقدم النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يؤمّهم سالم مَوْلَى أبى حُذيفـة وكان أكثرهم قرآنا. وعنـه قال: كان سالم مولى أبى حذيفـة يؤم المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى مسجد قُبَاء، فيهـم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمّها عبدها ذكوان من المصحف. قال آبن المنذر: وأَمّ أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخّص فى إمامة العبـد النَّخَعِىُّ والشعبىُّ والحسنُ البصرىّ والحكمُ والثورىُّ والشافعىّ وأحمـد و إسحاق وأصحابُ الرأى؛ وكره ذلك أبو مِجْلَز. وقال مالك: لا يؤمّهم إلا أن يكون العبد قارئًا ومَن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزئ عنـد الأوزاعى إن صلوا وراءه. قال آبن المنذر: العبد داخل فى جملة قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: "يؤم القوم أقرؤهم".

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروَى البخارىّ عن أبى بكرة قال: لمـا بلغ رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولّوْا أمرهم

ٱمرأة" . وذكر أبو داود عن عبد الرحمن بن خلّاد عن أمّ ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لها مؤذّنا يؤذّن لها وأمرها أن تؤم أهل دارها . قال عبد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال ٱبن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على مَن صلّى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور : لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المُزَنِيّ .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى ٱبن أَيْمن[1] جواز إمامتها للنساء . وأما الخُنْثَى المشكل فقال الشافعى : لا يؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانية والعشرون — الكافر المخالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعى وأحمد يقولان : لا يجزئهم ويعيدون . وقاله مالك وأصحابه ؛ لأنه ليس من أهل القُربة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثَور والمُزَنِيّ لا إعادة على مَن صلى خلفه ، ولا يكون بصلاته مسلمًا عند الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البِدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلّ ، وعليه بدعته . وقال أحمد : لا يصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : ويصلى خلف أئمة الجَور ، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . وقال ٱبن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم مَن هذه صفته .

الرابعة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال ٱبن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدا ، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة ، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

---

(١) فى نسخة : « ابن أبى أيمن » .

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : " لا تؤمّنّ آمرأة رجلا ولا يؤمّنّ أعرابى مهاجرا ولا يؤمّنّ فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان " . قال أبو محمد عبد الحق : هـذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدْعان عن سعيد بن المسيّب ، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدّارَقُطْنِيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تُزَكُّوا صلاتكم فقدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن إسماعيل المخزومى وهو ضعيف ؛ قاله الدّارَقُطْنِي . وقال فيه أبو أحمد بن عَدِىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن آبن جُرَيج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدّارَقُطْنِيّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جُبير عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وَفْدُكم فيما بينكم و بين الله " . قال الدّارقطنى : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن ، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى ؛ قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما جُعل الإمام ليُؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبّروا و إذا ركع فآركعوا و إذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهمّ ربّنا ولك الحمد و إذا سجد فآسجدوا و إذا صلى جالسا فصلوا جلوسًا أجمعون " .

وقد آختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدًا على قولين : أحدهما — أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر ورُوِىَ عن آبن عمر . ذكر سُنيد قال حدّثنا آبن عُلَيّة عن أيوب عن أبى قِلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صلّيت إلى جنب آبن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلّم الإمام أخذ آبن عمر بيدى فلوانى وجذبنى ، فقلت : مالك ! قال : مَن أنت ؟ قلتُ : فلان بن فلان ؛ قال : أنتَ من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلّى ؟ قلت : أو ما رأيتنى إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله و إنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

لم يعتدّ بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : مَن فعـل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والائتمام فيها بالأئمة سُنّة حسنة، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها وإن أسقط بعض سننها؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه؛ وبئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا: ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة وإمامه فى أخرى فقد اقتدى وإن كان يرفع قبله ويخفض قبله؛ لأنه بركوعه يركع وبسجوده يسجد ويرفع وهو فى ذلك تبع له، إلا أنه مسىء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام؛ لأن الإتبـاع الحسىّ والشرعى مفقود، وليس الأمر هكذا عنـد أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأول؛ فإن الإمام إنما جُعل ليؤتم به ويُقتدَى به بأفعاله؛ ومنه قوله تعالى : «إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(١)» أى يأتمّون بك؛ على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا، فمن خالف إمامه لم يتبعه؛ ثم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : "إذا كبّر فكبّروا" الحديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب، وهو المبيِّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدًا شديدًا فقال : "أمَا يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار" . أخرجه المُوَطّأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "كلُّ عملٍ ليس عليـه أَمْرُنا فهو ردٌّ" . يعنى مردود . فمن تعمّد خلاف إمامه عالما بأنه مأمور باتباعه منهىّ عن مخالفته فقـد استخف بصلاته وخالف ما أُمر به؛ فواجب ألّا تجزى عنه صلاته تلك؛ والله أعلم .

السادسة والعشرون — فإن رفع رأسه ساهيًا قبل الإمام فقال مالك رحمـه الله : السُّنّة فيمن سهـا ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام، وذلك خطأ ممن فعـله؛ لأن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : "إنما جُعل الإمام ليؤتم به

(١) راجع جـ٢ ص ١٠٧

فلا تختلفوا عليه" . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا، لقوله : « وذلك خطأ ممن فعله » ؛ لأن الساهى الإثمُ عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدّم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام، إلا ما رُوِىَ عن الشافعىّ فى أحد قوليه : أنه إن كبّر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه ؛ لحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى الصلاة فلما كبّر ٱنصرف وأومأ إليهم — أى كما أنتم — ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم ؛ فلما انصرف قال : "إنى كنت جُنُبًا فنسيتُ أن أغتسل" . ومن حديث أنس « فكبّر وكبّرنا معه » وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا » فى « النساء »[1] إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — وروى مسلم عن أبى مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا فى الصلاة و يقول : "ٱستوُوا ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم لِيَلِنِى منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ ٱختلافا . زاد من حديث عبد الله : "و إيّاكم وهَيْشات[2] الأسواق" . وقوله : "ٱستوُوا" أمْرٌ بتسوية الصفوف وخاصّةً الصف الأول وهو الذى يلى الإمام، على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر »[3] إن شاء الله تعالى . وهناك يأتى الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — وٱختلف العلماء فى كيفية الجلوس فى الصلاة لٱختلاف الآثار فى ذلك ؛ فقال مالك وأصحابه : يُفْضى المصلّى بأَلْيَتَيْه إلى الأرض و ينصب رجله اليمنى ويَثْنِى رجله اليسرى ؛ لما رواه فى مُوَطّئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس فى التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أرانى هذا عبدُ الله بن عمر، وحدّثنى أن أباه كان يفعل ذلك .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤　　(٢) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وٱرتفاع الأصوات .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠

قلت : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسـلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمـد لله رب العالمين ، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصَوِّبه ، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائمـا ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا ، وكان يقول فى كل ركعتين التحية ، وكان يفرُش رجـله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان يَنْهَى عن عُقْبة[1] الشيطان ، ويَنْهَى أن يفترِش الرجل ذراعيه افتراش السَّبُع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحـديث — والله أعلم — قال ابن عمر : إنمـا سُنَّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثَّوْرى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صـالح بن حَىّ : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى ، لحديث وائل بن حُجْر ؛ وكذلك قال الشافعىّ وأحمـد وإسحـاق فى الجلسة الوسطى . وقالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغـرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حُميـد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صـلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ مَنْكِبَيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هَصَر ظهره ، فإذا رفع استوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القِبْـلة ، وإذا جلس فى الركعتين جلس على رجـله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبرى : إن فعل هذا فحسن ، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعَاوىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة ، فلما انصرف نهانى فقال : اصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

---

(١) عقبة الشيطان : قال ابن الأثير : « هو أن يضع أليتيه على عقبيه بين السجدتين ، وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال آبن عبـد البر : وما وصـفه آبن عمر من وضـع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بهـا ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ؛ كل ذلك سنة في الجلوس في الصلاة مُجْمَعٌ عليه ، لا خلاف عَلِمته بين العلماء فيها ، وحسبك بهذا . إلا أنهم آختلفوا في تحريك أصبعه السبابة ، فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهـم من لم يره . وكل ذلك مروِيّ في الآثار الصحاح المسندة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمـد لله . وروى سفيان بن عُيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبي مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيي بن سعيد حدّثناه عن مسـلم ثم لقيته فسمعته منه وزادني فيـه : قال : "هي مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه و يقول هكذا" .

قلت : روى أبو داود في حديث آبن الزبير أنه عليـه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . و إلى هذا ذهب بعض العراقيين ، فمنع من تحريكها . و بعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها ، إلا أنهم آختلفوا في الموالاة بالتحريك على قولين ؛ تأول مَن والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور في الصلاة ؛ و بأنهـا مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عنـد التلفظ بكلمتي الشهادة ، وتأول في الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد ، والله أعلم .

الحادية والثلاثون — وآختلفوا في جلوس المرأة في الصلاة ؛ فقال مالك : هي كالرجل ، ولا تخالفه فيما بعـد الإحرام إلا في اللباس والجهر . وقال الثوريّ : تسدُل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النَّخَعِيّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لهـا . وهو قول الشَّعْبي : تقعد كيف تيسر لهـا . وقال الشافعيّ : تجلس بأسـتر ما يكون لهـا .

الثانيـة والثلاثون — روى مسلم عن طاوس قال : قلنا لآبن عبـاس فى الإقعاء على القدمين؛ فقال: هى السُّنّة ؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل؛ فقال آبن عباس : [بل](1) هى سُنّة نبيك صلى الله عليه وسلم . وقد آختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبًا فخـذيه مثل إقعاء الكلب والسَّبُع . قال آبن عبد البرّ : وهذا إقعاء مجتمَع عليه لا يختلف العلماء فيـه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهـل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهـل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضى عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه آبن عباس إنه من السُّنّة؛ الذى فسّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسَّرا عن آبن عبـاس : من السُّـنة أن تمس عقبـك أليتك . رواه إبراهيم بن مَيْسرة عن طاوس عنه؛ ذكره أبو عمر . قال القاضى : وقد رُوى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسمّوه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن مَعمر عن آبن طاوس عن أبيه أنه رأى آبن عمر وآبن عباس وابن الزبير يَقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلمـاء بوجوب التسليم و بعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روى عن الحسن بن حَىّ أنه أوجب التسليمتين معًا . قال أبو جعفر الطحاوىّ : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال آبن عبد البر : مِن حجة الحسن بن صالح فى إيجابه التسليمتين جميعا — وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته — قولُه صلى الله عليه وسـلم : "تحليلها التسليم" . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسـلّم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" قالوا : والتسليمة الواحدة يقع عليها آسم تسليم .

---

(1) الزيادة عن صحيح مسلم .

قلت: هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة، إلا أنه تواردت[1] السنن الثابتة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمى وحديث عمّار وحديث البَراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبى وقّاص أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين. روى ابن جُريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمد الدّراوَرْدِى كلُّهم عن عمرو بن يحيى المازنى عن محمد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر: حدّثنى عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره. قال ابن عبد البر: وهذا إسناد مدنى صحيح، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد؛ لأنه لا يخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا. وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا. وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبى وقّاص وعائشة وأنس؛ إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث.

الرابعة والثلاثون — روى الدّارَقُطْنى عن ابن مسعود أنه قال: من السُّنة أن يخفى التشهّد. واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو: التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. واختار الشافعى وأصحابه والليث بن سعد تشهّد ابن عباس؛ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن، فكان يقول: "التحيات المباركات الصلوات الطيبات

(١) فى نسخة: «تواترت».

لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسـول الله ". واختار الثـوْرى والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد ابن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله](1) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء ". وبه قال أحمد وإسحاق وداود. وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه. وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد ابن مسعود. وهذا كله اختلاف فى مباح ليس شىء منـه على الوجوب، والحمد لله وحده. فهـذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمّنها قوله جل وعز: « وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ ». وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »(2). ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة، ويأتى فى « آل عمران »(3) حكم صـلاة المريض غير الامام، ويأتى فى « النساء »(4) فى صـلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل، ويأتى فى سـورة « مريم »(5) حكم الامام يصـلى أرفع من المأموم، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ». وقد تقدّم فى أول السورة جملة من أحكامها، والحمد لله على ذلك.

قوله تعالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

(١) الزيادة عن مسلم. (٢) راجع ج ٣ ص ٢١٣ (٣) راجع ج ٤ ص ٣١١
(٤) راجع ج ٥ ص ٣٥١ (٥) راجع ج ١١ ص ٨٥

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا ٱستفهام معناه التوبيخ، والمراد في قول أهل التأويل علماءُ اليهود . قال ٱبن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : ٱثبت على الذى أنت عليه وما يأمرك به هـذا الرجل — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن ٱبن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بٱتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها فى جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ٱبن جُريج : كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصى . وقالت فرقة : كانوا يحضّون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعانى وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثانيــة — فى شدّة عذاب مَن هـذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أسرى بى مررت على ناس تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار[1] ، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسْون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسْون أنفسهم يجرّون قُصْبهم[2] فى نار جهنم فيقال لهم من أنتم ؟ فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا " .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين ؛ لأن فى سنده الخصيب بن جَحْدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك ٱبن مَعين يرويه عن أبى غالب عن أبى أمامة صُدىّ بن عجلان الباهلى ، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن مَعين — حَزَوّر القرشى مولى خالد بن عبد الله ٱبن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمى ، كان يختلف إلى

---

(١) كذا فى مسند الإمام أحمد بن حنبل (جـ ٣ ص ١٢٠) وتفسير الفخر الرازى (جـ ١ ص ٤٩٦) . وفى الأصول : « من أمتك » .　　(٢) سيأتى معنى « القصب » .

الشام فى تجارته . قال يحيى بن مَعين : هو صالح الحديث ، فقد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى][1] فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم [تكن][1] تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب (بضم القاف) : المِعَى ، وجمعه أقصاب . والأقتاب : الأمعاء ، واحدها قِتب . ومعنى « فتندلق » : فتخرج بسرعة . وروينا « فتنفلق » .

قلت : فقد دلّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشدّ ممن لم يعلمه ؛ وإنما ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه " . أخرجه ابن ماجه فى سُننه .

الثالثة — اعلم وفّقك الله تعالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذمّ الله تعالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها ؛ وبخهم به توبيخا يُتْلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إن قومًا يأمرونا * بالذى لا يفعلونا
لمجانين وإن هم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُقَى حتى كأنك ذو تُقًى * وريحُ الخطايا من ثيابك تسطع

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

وقال أبو الأسْود الدُّؤَلِى :

لاتَنْـهَ عن خُلقٍ وتأتىَ مثـلَه * عارٌ علـيك إذا فعلتَ عظـيمُ
وآبدأ بنفسـك فآنهها عن غيِّها * فإن آنتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناكَ يُقبَل إن وَعظتَ ويُقتدَى * بالقول منـك وينفع التعلـيمُ

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبى عثمان الحِيرى الزاهد فخرج وقعـد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته؛ فناداه رجل كان يعرف بأبى العباس : ترى أن تقول فى سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تَقِىٍّ يأمر النـاس بالتُّـقَى * طبيبٌ يداوى والطبيبُ مريضُ

قال : فآرتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعـة — قال إبراهيم النَّخَعِى : إنى لأكـره القَصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » الآية، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ »[1] ، وقوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ »[2] . وقال سَلْم بن عمرو[3] :

ما أقبحَ التزهيـدَ من واعظٍ * يُزهِّـد الناسَ ولا يَزْهَـدُ
لو كان فى تزهيده صـادقا * أضحى وأمسى بيتُه المسجدُ
إنْ رفض الدنيا فما بالُه * يَستمنح النـاس ويسترفِدُ
والرزق مقسومٌ على من ترى * ينـالُه[4] الأبيضُ والأسـودُ

وقال الحسن لمطرِّف بن عبد الله : عِظ أصحابك؛ فقال إنى أخاف أن أقول مالا أفعل؛ قال : يرحمك الله ! وأيّنا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظَفِر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر. وقال مالك عن ربيعـة بن أبى عبد الرحمن سمعت سعيد بن جُبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيـه شىء، ما أمر

(١) راجع جـ ١٨ ص ٧٧ (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٩ (٣) كذا فى الأصول . والصحيح أن الأبيات للجماز، وهو آبن أخت سـلم بن عمرو الخاسر . يراجع الأغانى (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .
(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « يسعى له » .

أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. قال مالك: وصدق، من ذا الذى ليس فيه شىء (١) !.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ بِالْبِرِّ ﴾ البِرّ هنا الطاعة والعمل الصالح. والبِرّ: الصدق. والبِرّ: ولد الثعلب. والبِرّ: سَوق الغنم، ومنه قولهم: «لا يعرف هِرًّا من بِرٍ» أى لا يعرف دعاء الغنم من سَوقها. فهو مشترك، وقال الشاعر:

لا هُمّ رَبّ إن بكرا (٢) دونكا * يَبَرُّك الناسُ ويفجرونكا

أراد بقوله «يبرّك الناس»: أى يطيعونك. ويقال: إن البِرّ الفؤادُ فى قوله:

أكون مكان البِرّ (٣) منه ودونه * وأجعل مالى دونه وأُوامِرُه

والبُرّ (بضم الباء) معروف، و(بفتحها) الإجلال والتعظيم، ومنه ولد بَرّ وبارّ، أى يُعظّم والديه ويكرمهما.

السادسة — قوله تعالى: ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون. والنسيان (بكسر النون) يكون بمعنى التَّرك، وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى: «نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ (٤)»، وقوله: «فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ (٥)»، وقوله: «وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ (٦)». ويكون خلاف الذِّكر والحفظ، ومنه الحديث: "نَسِىَ آدمُ فنسيتْ ذريّتُه". وسيأتى. يقال: رجل نَسْيان (بفتح النون): كثير النِّسيان للشىء. وقد نَسِيت الشىء نِسْيانًا، ولا تقل نَسَيانا (بالتحريك)؛ لأن النَّسَيان إنما هو تثنية نَسَا العِرْق. وأنفس: جمع نَفْس، جمع قِلّة. والنَّفْس: الروح؛ يقال: خرجت نَفْسُه، قال أبو خِراش:

نجا سالم والنَّفْس منه بِشِدْقِهِ * ولم يَنْجُ إلا جَفْنَ سَيفٍ ومِئْزرا

أى بجفن سيف ومئزر. ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى: «اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٧)» يريد الأرواح؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى. وذلك

(١) فى نسخة: «عليه». (٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان. وفى الأصول: «بكوا» بالواو. وفى تفسير الشوكانى: «إن يكونوا». (٣) كذا فى الأصول واللسان مادة «برر». وفى شرح القاموس:

* يكون مكان البرمنى ودونه *

(٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ (٦) راجع جـ ٣ ص ٢٠٨

(٧) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٠

بيّن فى قول بلال للنبىّ صلّى الله عليه وسلم فى حديث ٱبن شهاب : أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام فى حديث زيد بن أسلم : "إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا" . رواهما مالك، وهو أَوْلى ما يقال به . والنّفْس أيضا الدم؛ يقال : سالت نفسه؛ قال الشاعر(١) :

تسـيل على حدّ السّـيوف نفوسُنا * وليست عـلى غير الظُّبات تسـيل(٢)

وقال إبراهيم النَّخَعىّ : ما ليس له نَفْس سائلة فإنه لا ينجس المـاء إذا مات فيـه . والنفس أيضا الجسد؛ قال الشاعر(٣) :

نُبِّئْتُ أن بنى سُحَيم أدخـلوا * أبياتهم تامُورَ نَفْسِ المُنْذِرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ توبيخ عظيم لمن فَهِم . «وتَتْلُون» : تقرءون . «الكتاب» : التـوراة . وكذا مَن فعل فعلهم كان مثلَهم . وأصل التلاوة الاتباع، ولذلك ٱستعمل فى القراءة؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نَسَقه؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا، وتلوتُ القرآن تِلاوة . وتلوتُ الرجلَ تُلُوًّا إذا خذلته . والتَّلِيّـة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية؛ يقال : تَلِيَتْ لى من حقى تُلاوة وتَلِية؛ أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتتلّيتُ حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلَّى الرجلُ إذا كان بآخر رَمَق .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هـذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع؛ ومنه عِقال البعير؛ لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدّية؛ لأنه يمنع ولىّ المقتول عن قتـل الجانى . ومنه ٱعتقال البطن واللّسان . ومنـه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل . نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغَشّى به الهوادج؛ قال عَلقمة :

عَقْلًا ورَقْمًا تكاد الطـير تخطفه * كأنه مِن دم الأجواف مَدمومُ

(١) هو السموءل . (٢) فى اللسان : «حد الظبات» . (٣) هو أوس بن حجر؛ يحرّض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حملوا دمه إلى أبياتهم . (عن اللسان) .

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : الممتلئ شحماً من البعير وغيره .
و يقال : هما ضربان من البرود . قال آبن فارس : والعقل من شِيات الثياب ما كان نقشه
طولا، وما كان نقشه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بما أوجب الله
عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاسعة — آتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم؛
لأنه لو كان معدوما لما آختصّ بالآتصاف به بعض الذوات دون بعض ؛ وإذا ثبت
وجوده فيستحيل القول بقدمه ؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتى
بيانه فى هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ؛ ثم منهم من صار الى أنه جوهر لطيف
فى البدن ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم
من قال : إنه جوهر بسيط ؛ أى غير مركب . ثم آختلفوا فى محله ؛ فقالت طائفة منهم :
محله الدماغ ؛ لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محله القلب ، لأن القلب
معدن الحياة ومادة الحواس . وهذا القول فى العقل بأنه جوهر فاسد ، من حيث إن
الجواهر متماثلة؛ فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو
المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى . وهذا القول و إن كان أقرب مما قبله
فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحىّ ، والعقل عَرَض يستحيل
ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى والأستاذ
أبو إسحاق الأسفراينى وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم ، بدليل أنه لا يقال : عَقَلت
وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب
الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ وهو آختيار أبى المعالى فى الإرشاد ؛
وآختار فى البرهان أنه صفة يتأتّى بها دَرك العلوم . وآعترض على مذهب القاضى وآستدل
على فساد مذهبه . وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

أبو بكر عن الشافعى وأبى عبـد الله بن مجاهـد أنهما قالا : العقـل آلة التمييز . وحكى عن أبى العباس القَلَانسىّ أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبى أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتّب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأوْلى ألا يصح هذا النقل عن الشافعىّ ولا عن آبن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل فى الآلة المثبتة(١) وآستعمالها فى الأعراض مجاز . وكذلك قول من قال : إنه قوة ، فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة ، والقلانسىّ أطلق ما أطلقه تَوسُّعاً فى العبارات ، وكذلك المحاسبى . والعقل ليس بصورة ولا نور ، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتى فى هذه السورة بيان فائدته فى آية(٢) التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ (٤٥)

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ الصبر : الحبس فى اللغة . وقُتِل فلان صَبْراً ، أى أُمْسِك وحُبِس حتى أُتلف . وصَبَرْتُ نفسى على الشىء : حبستها . والمصبورة التى نُهى عنها فى الحديث هى المحبوسة على الموت ، وهى المُجَثَّمة . وقال عنترة :

فصَبَرْتُ عارفـةً لذلك حُرّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

الثانيـــة — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة فى كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصى ، وإذا صبر عن المعاصى فقـد صبر على الطاعة ؛ هـذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ، إنما يقال : صابر على كذا . فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعـالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣) » .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبه(٤) أمْرٌ فَزِع إلى الصلاة ؛ ومنه ما روى أن عبد الله

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى الآلة المبنية » .   (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩١ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤١ .   (٤) حزبه : أى نزل به مُهِمّ أو أصابه غم .

ابن عباس نُعِىَ له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو فى سفر فاسترجع وقال : عَوْرة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجْر ساقه الله . ثم تنحَّى عن الطريق وصلّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ » . فالصلاة على هـذا التأويل هى الشرعية . وقال قوم: هى الدعاء على عُرْفها فى اللغة؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ »؛ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء. وقول ثالث، قال مجاهد : الصبر فى هـذه الآية الصوم؛ ومنه قيـل لرمضان : شهر الصبر، فجاء الصوم والصلاة على هـذا القول فى الآية متناسبًا فى أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهِّد فى الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتُخشع ويُقرأ فيها القرآن الذى يذكّر الآخرة . والله أعلم .

الرابعـــة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبيـاء والصالحين . قال يحيى بن اليَمَـان : الصبر ألا تتمنّى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضا بمـا قضى الله من أمر دنيـاك وآخرتك . وقال الشعبىّ : قال علىّ رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. قال الطبرى : وصدق علىّ رضى الله عنه ؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمـان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامســـة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »[1] . وجعـل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هـذا فقال : « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ »[2] الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب، ومدح أهله فقال : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »[3] . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ » أى الصائمون؛ لقوله تعالى فى صحيح السُّنّة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الصيام لى وأنا أَجْزِى به " فلم يذكر ثوابا مقدّرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٢ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .

السادســة — مِن فَضْل الصّبر وصفَ الله تعالى نفســه به؛ كما فى حديث أبى موسى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ليس أحد أو ليس شىء أصـبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم لَيَدْعُون له ولدا و إنه ليعافيهـم و يرزقهم" . أخرجه البخارى . قال علمـاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصـفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يَرِد فى التنزيل و إنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوّله أهل السُّنة على تأويل الحلم؛ قاله آبن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه «الصبور» للمبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اختلف المتأولون فى عود الضمير من قوله : « و إنهـا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ؛ لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس مَن مُنع شهوة واحدة أو شهوتين كمن مُنع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب، ثم ينبسط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظـر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلّى بتلك الأشياء عما مُنع . والمصـلّى يمتنع من جميع ذلك ، بجوارحه كلها مقيَّدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصـلاة أصعبَ على النفس ومكابدتها أشـدّ ، فلذلك قال : « و إنها لَكَبِيرَةٌ » . وقيـل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّـةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ »[١] ، وقوله : «وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا»[٢] . فردّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنها الأغلب والأعم، و إلى التجارة؛ لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمـّا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ »[٣] . ولم يقل : يرضوهما ؛ لأن رضا الرسول داخل فى رضا الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر[٤] :

إنّ شَرْخَ الشّبابِ والشَّعَرَ الأسـ * ـوَدَ ما لم يُعاصَ كان جنونا

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ — ١٢٧	(٢) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٣	(٤) هو حسان بن ثابت .

ولم يقل يعاصيا ، ردّ إلى الشـباب لأن الشَّعر داخل فيه . وقيل : ردّ الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف ٱختصارا ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »[1] ولم يقل آيتين ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

فمن يك أمْسَى بالمدينة رَحْلُه * فإنى وقَيَّارٌ بهـا لغـريبُ

وقال آخر[3] :

لكلّ هَمٍّ من الهمـوم سَـعَهْ * والصُّبْحُ والمُسْىُ لا فلاح مَعَهْ

أراد : لغريبان ، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمّنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر ، وهى الأستعانة التى يقتضيها قوله : «وٱستعِينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام ؛ لأن الصبر والصلاة ممـا كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ؛ لأن الأمر بالصلاة إنمـا هو إليها . « وكبيرةٌ » معناه ثقيلة شاقة ، خبر « إنّ » . ويجوز فى غير القرآن : وإنه لكبيرة . « إلا على الخاشعين » فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أُيِّد فى الأزل بخصائص الأجتباء والهدى .

الثامنــة ــ قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب ، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه ؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمادٌ ككُحْل العين لأيًا أُبِينُه * ونؤىٌ كجِذْم الحوض أثْلَمُ خاشِعُ

ومكان خاشع : لا يُهتَدى له . وخَشَعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشِىُّ صدره إذا ألقى بُصاقًا لزِجًا . وخَشَع ببصره إذا غَضّه . والخُشْـعة : قطعة من الأرض رِخـوة ؛ وفى الحديث : "كانت خُشْعة على المـاء ثم دُحيت بعد"[4] . وبلدة خاشعة : مغـبرّة لا منزل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦ (٢) هو ضابئ البرجمى ؛ كما فى اللسان مادة (قير) والكامل للبرد (جـ ١ ص ١٨١) طبع أوربا . (٣) هو الأضبط بن قريع السعدى ؛ عن اللسان مادة (مسا) .

(٤) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض » .

بها . قال سفيان الثوري : سألت الأعمش عن الخشوع فقال : يا ثوري، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعي عن الخشوع ؛ فقال : أُعَيْمِش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء ، وتخشع لله في كل فرض ٱفترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب . وقال علي بن أبي طالب : الخشوع في القلب ، وأن تلين كفيك للمرء المسلم، وألّا تلتفت في صلاتك . وسيأتي هذا المعنى مجوَّدا عند قوله تعالى : «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ»[١] . فمن اظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده ؛ لقول الله تبارك وتعالى : « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »[٢] .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقًا متأدّبًا متذلّلًا . وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك ؛ وأما المذموم فتكلّفه والتباكي ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوْا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلا تنفّس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضي الله عنه إذا تكلّم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقًّا . وروى ٱبن أبي نَجِيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقًّا .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ «الذين» في موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[٣] وقوله : «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا »[٤] . قال دُرَيد بن الصِّمّة :

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَيْ مدجَّج * سَراتُهم في الفارسيّ المُسَرَّدِ

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٠ (٤) راجع جـ ١١ ص ٣

وقال أبو دُواد :

رُبَّ همٍّ فرّجتـه بغـريم * وغيوب كشفتهـا بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه ، ويضمر فى الكلام بذنوبهم ؛ فكأنهم يتوقّعون لقـاءه مذنبين ؛ ذكر المهدوىّ والماوَرْدى . قال ابن عطية : وهـذا تعسُّف . وزعم الفرّاء أن الظنّ قـد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصـل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه ، وقد يوقع موقع اليقين ؛ كما فى هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحِسّ ؛ لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هـذا إنسانا . وإنمـا تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحِسّ بعـد ؛ كهذه الآية والشـعر ، وكقوله تعـالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجىء اليقين بمعنى الظن ، وقد تقدّم بيـانه أوّل السورة . وتقول : سُـؤت به ظنًّا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ جزاء ربّهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد ؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُـمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل ، ويجوز «وإنهم» بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْـهِ ﴾ أى إلى ربهم ، وقيل إلى جزائه . ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعَرْض على الملك الأعلى .

قوله تعـالى : يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدّم [(١)] . ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالَمى زمانهم ، وأهل كل زمان عالَم . وقيل : على كل العالمين بمـا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصّة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعـالى : وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

---

(١) راجع ص ٣٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أَمْرٌ معناه الوعيد؛ وقد مضى الكلام فى التقوى[1] . « يوماً » يريد عذابه وهَوْله ، وهو يوم القيامة . وآنتصب على المفعول بـ«آتقوا» . ويجوز فى غير القرآن يوم لا تجزى ، على الإضافة . وفى الكلام حذف بين النحويين فيه آختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيـه نفس عن نفس شيئا ، ثم حذف فيه؛ كما قال :

* ويوماً شهدناه سُلَيماً وعامرا[2] *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائى : هـذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : وآتقوا يوما لا تجزيه نفس، ثم حذف الهاء . وإنمـا يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها . قال : لا يجوز أن تقول : هـذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ؛ وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز : الذى تكلمت زيد؛ بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفرّاء : يجوز أن تحذف الهـاء وفيه . وحكى المهدوىّ أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » : أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا؛ تقول : جَزَى عنّى هـذا الأمر يَجْزِى؛ كما تقول : قَضَى عنى . وآجتزأت بالشىء آجتزاء إذا آكتفيت به؛ قال الشاعر :

فإنّ الغـدر فى الأقوام عارٌ * وأنّ الحرّ يَجزأ بالكُرَاع

أى يكتفى بهـا . وفى حديث عمر : " إذا أجريت المـاء على المـاء جَزَى عنـك " . يريد إذا صببت المـاء على البول فى الأرض فجرى عليه طهر المكان ، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفى صحيح الحـديث عن أبى بُردة بن نِيَار فى الأُضْحِيّة : " لن تَجزِىَ عن أحد بعدك " أى لن تغنى . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليهـا شىء؛ فإن كان فإنهـا تجزى وتقضى وتغنى ،

---

(١) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء . (٢) سليم وعامر : قبيلتان من قيس عيلان .

بغير آختيارها من حسناتها ما عليها من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنده مَظلِمة لأخيه من عِرْضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلمته و إن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه ". خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفْلِس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم[1]. وقرى « تُجزِئ » بضم التاء والهمز . ويقال : جَزَى وأجزى بمعنًى واحد . وقد فرّق بينهما قوم فقالوا : جَزَى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وكفى . أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن * ليجزئ إلا كاملٌ وآبنُ كامل

الثالثـة[2] — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الاثنان؛ تقول : كان وَترًا فشفعته شَفعًا، والشُّفْعة منه ؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا آجتمع لها حَمْل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعًا . وناقة شَفُوع وهى التى تجمع بين مِحْلَبين فى حَلْبة واحدة . وآستشفعته إلى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفّعت إليه فى فلان فَشفّعنى فيه؛ فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع، و إيصال منفعته للشفوع .

الرابعـة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين . وقد تمسّك القاضى عليهم فى الردّ بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقّ هذه الأخبار بالقبول ؛ ولم يَبْدُ من

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (جـ ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن جميع نسخ الأصل التى بأيدينا لم تذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير؛ فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب ردّ هذه الأخبار؛ مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون. وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »[1] ، « وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هذه الآيات عامة فى كل ظالم ، والعموم لا صيغة له؛ فلا تعمّ هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك. وأيضا فإن الله تعالى أثبت شفاعةً لأقوام ونفاها عن أقوام؛ فقال فى صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ»[2] وقال : «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى»[3] وقال : «وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ»[4] . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى: «وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » النفسُ الكافرة لا كل نفس . ونحن وإن قلنا بعموم العذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلَّدون فيها بدليل الأخبار التى رويناها ، وبدليل قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»[5]، وقوله : « إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقد قال تعالى « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَى » والفاسق غير مُرْتَضًى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى، وإنما قال : « لِمَنِ ٱرْتَضَى» ومن آرتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون؛ بدليل قوله : « لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا »[6] . وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه؟ قال : " أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا" . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا: المرتَضَى هو التائب الذى آتخذ عند الله عهدا بالإنابة إليه؛ بدليل أن الملائكة آستغفروا لهم؛ وقال : « فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر. قلنا: عندكم يجب على الله تعالى قبول التوبة،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥ (٥) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ (٦) راجع جـ ١١ ص ١٥٣

فإذا قبل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم؛ كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميع الأمة يرغبون فى شفاعة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم .

قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعة الرسول و يرغب إلى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما ٱفترض عليه؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب و يرجو النجاة؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى — فقيل : ولا أنت يا رسول الله؟ — فقال : ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته " .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ ٱبن كثير وأبو عمرو «تُقبل» بالتاء ؛ لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير؛ لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حَسُن التذكير؛ لأنك قد فرّقت؛ كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ »[1] .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى فِداء . والعدل (بفتح العين) : الفِداء ، و(بكسرها) : المِثْل؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . و يقال : عَدْلُ الشىء هو الذى يساويه قيمةً وقدرا و إن لم يكن من جنسه . والعِدل (بالكسر) : هو الذى يساوى الشىء من جنسه وفى جِرْمه . وحكى الطبرىّ : أن من العرب من يكسر العين من معنى الفِدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى يعانون . والنّصْر : العَوْن . والأنصار : الأعوان؛ ومنه قوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ »[2] أى من يضم نُصرته إلى نصرتى . وٱنتصر الرجل : ٱنتقم . والنصر : الإتيان؛ يقال : نصرتُ أرضَ بنى فلان : أتيتها؛ قال الشاعر[3] :

(١) راجع ص ٣٢٦ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٩ (٣) هو الراعى يخاطب خيلا (عن اللسان) .

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فوَدِّعِي * بلادَ تميم وٱنْصُرِى أرضَ عامرِ

والنصر : المطر، يقال : نُصِرَت الأرض : مُطِرت . والنصر العطاء، قال :

إنى وأَسْطارٍ سُطِرن سطرَا * لقــائلٌ يا نصرُ نصرًا نصرَا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنــا أباؤنا ؛ فأعلمهم الله تعــالى عن يوم القيامة أنه لاتقبل فيــه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فِدْية . وإنما خص الشفاعة والفِدية والنصر بالذكر ؛ لأنها هى المعــانى التى اعتادها بنو آدم فى الدنيا، فإن الواقع فى الشدّة لايتخلص إلا بأن يُشفع له أو يُنصر أو يُفتدى .

قوله تعــالى : وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُــونَ أَبْنَـآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيــمٌ (٤٩)

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» فى موضع نصب عطف على « ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم ؛ أى آذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم . والخطاب للموجودين والمراد مَن سلف من الآباء، كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ »(١) أى حملنا آباءكم . وقيل : إنما قال « نجيناكم » لأن نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى « نجيناكم » ألقيناكم على نَجْــوَة من الأرض ، وهى ما آرتفع منهــا . هذا هو الأصل ؛ ثم سُمِّىَ كل فائز ناجيًا . فالنّاجى مَن خرج من ضيق إلى سَعة . وقرئ : « وإذ نَجَّيْتُكم » على التوحيد .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «آل فرعون» قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار، سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينــه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبَه وقريبَه . خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة

(١) راجع جـ ١٨ ص٢٦٣ .

والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعـالى : « وأغرقنا آل فرعون » « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » (١) أى آل دينه؛ إذ لم يكن له آبن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة . ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا موحد فإنه ليس من آل محمـد و إن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ و إن كان بينهما و بين النبيّ صلى الله عليه وسلم قرابة؛ ولأجل هذا قال الله تعالى فى آبن نوح : « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » (٢) . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جِهارًا غيرَ سرّ يقول : "[ألا] (٣) إنّ آلَ أبى (٤) — يعنى فلانا — ليسوا [لى] (٣) بأولياء إنما وليِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين" . وقالت طائفة : آل محمد أزواجُه وذريّتُه خاصة ؛ لحديث أبى حُميد السّاعدى أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلّى عليك ؟ قال : "قولوا اللّهُمّ صلّ على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيـد" . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع . والأول أصح لمـا ذكرناه ؛ ولحديث عبـد الله بن أبِى أوْفَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللّهُمّ صلّ عليهم" فأتاه أبى بصدقته فقال : "اللّهُمّ صلّ على آل أبِى أوْفَى" .

الثالثـــة — اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائى : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال فى البـلدان هو من آل حِمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣١٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٦ (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٤) قوله : يعنى فلانا . وروى "ألا إن آل أبى فلان" . قال النووى : «هذه الكناية هى من بعض الرواة ، خشى أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة ... قال القاضى عياض : قيل إن المكنّى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص» . والحكم هذا ، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . راجع سيرة آبن هشام (جـ ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

الرابعـــة — وآختلف النحاة أيضا هـل يضاف الآل إلى المضمر أولا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائى ؛ فلا يقال إلا اللّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد، ولا يقال وآله ، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال؛ منهم آبن السيِّد وهو الصواب؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده، فإنه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمّ إن العبــد يمـ * ـنع رَحْلَه فامنــع حِلالكْ[1]

وآنصــر على آل الصّـليـ * ـب وعابديه اليــومَ آلكْ

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تَحْمِى حقيقــةَ آلِكَا

الحقيقة (بقافين) : ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه؛ أى تجب عليه حمايته .

الخامســـة — وآختلفوا أيضا فى أصل آل ؛ فقال النحاس : أصـله أهل، ثم أبدل من الهاء ألفا ، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أُهَيْل . وقال المهدوى : أصله أَوْل . وقيل : أهل؛ قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون ، وتصغيره أُوَيْل؛ فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل، وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان : إذا جمعت آلًا قلت آلون؛ فإن جمعت آلًا الذى هو السراب قلت آوال؛ مثل مال وأموال .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ « فرعون » قيل : إنه آسم ذلك المَلِك بعينه . وقيــل إنه آسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقَيْصر للروم، والنجاشى للحبشة . وإن آسم فرعون موسى : قابوس؛ فى قول أهل الكتّاب . وقال وهب : آسمه الوليد آبن مصعب بن الريّان ، ويكنى أبا مُرّة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلى : وكل من وَلِى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيًّا من أهل اصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربيــة . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة؛ وقد تفرعن،

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

وهو ذو فرعنة؛ أى دهاء ونكر . وفى الحديث : " أخذنا فرعون هذه الأمة " . « وفرعون » فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته .

السابعـة ــ قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم و يلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يُولُونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خَسْف إذا أوْلاه إياها ؛ ومنه قول عمرو ابن كُلثوم :

إذا ما المَلْك سام الناسَ خَسْفًا * أبَيْنا أن نُقِرّ الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسَّوْم : الدوام ؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء[1] ، وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال؛ أى سائمين لكم .

الثامنـة ــ قوله تعالى : ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان لـ « يسومونكم » ومعناه أشدّ العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتاً؛ بمعنى سوما سيئا . فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون و يزرعون، وصنف يتخدّمون ــ وكان قومه جندا ملوكا ــ ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجِزْية؛ فذلك سوء العذاب .

التاسـعة ــ قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ « يذبّحون» بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » كما قال ــ أنشده سيبويه ــ :

مَتَى تأتنا تُلْمِـم بنا فى ديارنا * تجـد حطباً جَزْلًا ونارًا تأجّجـا

قال الفرّاء وغيره : «يذبحون» بغير واو على التفسير لقوله : « يَسُومُونكم سُـوءَ العذابِ » كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج إلى الواو فى زيد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ[2] » ، وفى سورة إبراهيم : « و يذبّحون » بالواو ، لأن المعنى

(١) يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : « يحتمل أن تكون هـذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون فى موضع الحال ؛ أى سائميكم » .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ .

يعـذّبونكم بالذبح و بغير الذّبح . فقوله : « وَيُذَبِّحون أبناءكم » جنس آخر من العذاب، لا تفسير لمـا قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة « البقـرة » والواو قد تزاد ، كما قال :

* فلمّـا أجزنا ساحة الحىّ وٱنتحى *

أى قد ٱنتحى . وقال آخر :

إلى المَـلِك القَرْم وٱبن الهمام * وليثِ الكتيبة فى المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ٱبن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون» بفتح الباء . والذَّبح: الشّق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدَّن : بزلته ؛ أى كشفته . وسعدُ الذّابحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح : جمع مذبح، وهو إذا جاء السيل نخدّ فى الأرض، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا. فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقى البنات، وعبّر عنهم بٱسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : « يذبِّحون أبناءكم » يعنى الرجال، وسُمُّوا أبناء لمـا كانوا كذلك ؛ وٱستدل هذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح ؛ لأنه الأظهر، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ؛ وهم إنمـا كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ؛ لتولّيهم ذلك بأنفسهم ؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرىّ : و يقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المـأخوذ به .

قلت : وقد ٱختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يُقتلان جميعا، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النّخَعِىّ؛ وقاله الشافعىّ ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلَيْن معًا، و إن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المـأمور

قولان : أحدهما — أن عليه القَوَد . والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة ؛ حكاه ٱبن المنذر .

وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر و يخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقَوَد فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلّم بعضَ صبيانه ، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحْتَلِماً ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبىّ نصف الدية . وقال ٱبن نافع : لا يُقتل السيد إذا أمر عبده — و إن كان أعجميًا — بقتل إنسان . قال ٱبن حبيب : و بقول ٱبن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتل المأمور دون الآمر ، ويُضرب الآمر ويُحبس . وقال أحمد فى السيّد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يُقتل السيّد . وروى هـذا القول عن علىّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال علىّ : ويُستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويُحبس العبد و يُضرب و يؤدّب . وقال الثورىّ : يُعَزَّر السيد . وقال الحكم وحمّاد : يُقتل العبـد . وقال قتادة : يُقتلان جميعا . وقال الشافعىّ : إن كان العبـد فصيحا يَعقِل قُتل العبد وعُوقب السـيد ؛ و إن كان العبـد أعجميًا فعلى السيّد القَود . وقال سليمان بن موسى : لا يُقتـل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس — وهو القول الثانى — و يقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعىّ وأحمـد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجلَ بقتـل الرجل ؛ وذكره ٱبن المنذر . وقال زُفَر : لا يُقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعـالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا فى القَوَد ؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانيـة عشرة — قرأ الجمهور « يذبِّحون » بالتشديد على المبالغـة . وقرأ ٱبن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذّبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوِىَ قد رأى فى منامه نارا خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأُوِّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وفى ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء، أى آمتحان وآختبار. و ﴿ بَلَاءٌ ﴾ نعمة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البـلاء يكون حسنا ويكون سيئا ، وأصله المِحنة؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحَسَن بلاء، وللسّيئ بلاء؛ حكاه الهَرَوِىّ . وقال قوم : الإشارة بـ«ذلكم» إلى التنجية؛ فيكون البلاء على هذا فى الخير، أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبـلاء هنا فى الشر؛ والمعنى : وفى الذبح مكروه وآمتحان . وقال آبن كَيْسان : ويقال فى الخير أبلاه الله وبلاه ؛ وأنشد :

جزى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم ＊ وأبلاهمـا خيرَ البلاء الذى يَبْلُو[1]

فجمع بين اللغتين . والأكثر فى الخـير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الاختبار ابتليته وبلوته ؛ قاله النحاس .

قوله تعـالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ « إذ » فى موضع نصب . و « فَرَقْنَا » فلقنا ؛ فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، أى الجبل العظيم . وأصل الفَرْق الفصل ؛ ومنـه فَرْق الشّعر ؛ ومنه الفُرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل ؛ ومنه : « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا »[2] يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنـه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »[3] يعنى يوم بَدْر، كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ »[4] أى فصّلناه وأحكمناه . وقرأ الزُّهْرِىّ : « فرّقنا » بتشديد الراء؛ أى جعلناه فرقا . ومعنى «بكم» أى لكم، فالباء بمعنى اللام . وقيل : البـاء فى مكانها؛ أى فرقنا البحر بدخولكم إياه . أى صاروا بين المـاءين، فصار الفرق بهم؛ وهذا أَوْلَى، يبيّنه « فآنفلق » .

---

(١) قائله زهير　(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٥٣　(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠　(٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٩

قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ البحر معروف ، سُمّى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْى ؛ أى كثيره . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مَنْدُوبٍ فرس أبى طلحة : " وإنْ وجدناه لبحرًا " . والبحر : الماء الملح . ويقال : أبحر الماء : مَلُح ؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْـرًا فزادنى * إلى مَرَضِى أن أبْحَرَ المَشْربُ العذْبُ

والبحر : البلدة ؛ يقال : هذه بَحْرَتُنا ؛ أى بلدتنا . قاله الأُموى . والبَحَر : السُّلال[1] يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْـرَةَ بَحْرَةَ ؛ أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملكًا يقال له : صندفاييل ، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء ، ممـدود ، ونجاة ، مقصور . والصدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته ؛ وقرئ بهما « وإذ نجيناكم » ، « فأنجيناكم » .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يقال : غَـرِق فى المـاء غَرَقًا فهو غَـرِق وغارق أيضا ؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

* من بين مقتولٍ وطافٍ غارِقِ *[2]

وأغرقه غيره وغَـرّقه فهو مغرَّق وغريق . و لجام مغرّق بالفضة ؛ أى مُحَلًّى . والتغريق : القتل ؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قَيْساً غَـرّقته القوابلُ *[3]

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط ، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا ؛ ومنه قول ذى الرُّمّة :

---

(١) السـلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أوزكام ونوازل أو سعال طويل ، وتلزمها حمى هادئة . (عن القاموس) .

(٢) صدر البيت : * فأصبحوا فى المـاء والخنادق *

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت : * أطورين فى عام غزاة ورحلة *

إذا غَرَّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِحْ رَءُوماً سَلُوبُها

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثانى؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول فى آختلاف العلماء فى كيفيّة إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أُوحِىَ إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط، وأحلّ الله ذلك لبنى إسرائيل؛ فسرى بهم موسى من أول الليل؛ فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكة، فلم يصِح تلك الليلة بمصر ديك؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الأتباع مشرقين؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ »[1]. وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه. وكانت عِدّة بنى إسرائيل نَيِّفا على ستمائة ألف . وكانت عِدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيل : إن فرعون اتّبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده؛ فأنمى الله عددهم وبارك فى ذرّيته؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط؛ قال : فانطلق موسى حتى آنتهى إلى البحر؛ فقال له : آفرُق؛ فقال له البحر : لقد آستكبرت ياموسى ! وهل فَرَقْت لأحد من ولد آدم فأفرق لك! قال : ومع موسى رجل على حصان له؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال : ما أُمرتُ إلا بهذا الوجه؛ قال : فأقحم فرسه فسَبَح فخرج . فقال أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه؛ قال : والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ ثم آقتحم الثانيــة فسَبَح به حتى خرج؛ فقال : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ فقــال : ما أُمرتُ

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٥ .

إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ قال فأوحى الله إليه: «أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ» فضربه موسى بعصاه؛ «فَٱنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ». فكان فيه ٱثنا عشر فِرقا، لٱثنى عشر سِبْطا، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد المـاء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن ٱنفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكنّاه أبا خالد(1). ذكره ٱبن أبى شيبة أيضا. وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كافٍ، وسيأتى فى سـورة «يونس، والشعراء(2)» زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه. فروى مسلم عن ٱبن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم: " ما هذا اليوم الذى تصومونه " فقالوا: هـذا يوم عظيم أنجى الله فيـه موسى وقومه وغَرّق فرعونَ وقومه، فصـامه موسى شكرا، فنحن نصومه. فقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: " فنحن أحق وأولى بموسى منكم " فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضا عن ٱبن عباس، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: " أنتم أحق بموسى منهم فصوموا ".

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه ٱقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود. وليس كذلك؛ لمـا روته عائشة رضى الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخارىّ ومسلم.

---

(1) أي كني موسى البحر. (2) راجع ج ٨ ص ٣٧٧ و ج ١٣ ص ١٠٥.

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنما صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم ؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك فى الجاهلية، أى بمكة ؛ فلمـا قدم المدينـة ووجد اليهود يصومونه قال : "نحن أحقّ وأوْلى بموسى منكم" فصـامه آتباعا لموسى . «وأمر بصيامه» أى أوجبه وأكّد أمره، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا : هـذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتى بيانه فى «الأنعام»(1) عند قوله تعالى : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » .

مسئلة — اختلِف فى يوم عاشـوراء ؛ هل هو التاسـع من المحرّم أو العاشر ؟ فذهب الشافعىّ إلى أنه التاسع؛ لحـديث الحكم بن الأعرج قال : آنتهيت إلى آبن عباس رضى الله عنهما وهو متوسِّد رداءه فى زمزم، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء؛ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فآعدُد وأصْبِحْ يوم التاسع صائمـا . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال نعم . خرّجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصرى ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذى حديث الحَـكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه : أنبأنا قُتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن آبن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى : حديث آبن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذىّ : وروى عن آبن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهـذا الحديث يقول الشافعىّ وأحمد بن حنبل وإسحـاق . قال غيره : وقول آبن عباس للسائل : « فآعدُد وأصبح يوم التاسع صائمـا » ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسـع مضافا إلى العاشر . قالوا : فصيام اليومين جَمْع بين الأحاديث . وقول آبن عباس للحَكَم لمـا قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش؛ وإلا فمـا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قطّ . يبيِّنه ما خرّجه آبن ماجه فى سُننه ومسلم فى صحيحه عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لئن بَقِيت إلى قابلٍ لأصومنّ اليوم التاسع" .

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٥ .

فضيلة — روى أبو قتادة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السّنة التى قبله". أخرجه مسلم والترمذىّ ، وقال : لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال : "صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة" إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ، ومعناه بأبصاركم ؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون ، وإلى أنفسهم ينجون ؛ ففى هذا أعظم المِنّة . وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه مِنّة بعد مِنّة . وقيل : المعنى «وأنتم تنظرون» أى ببصائركم الاعتبار ؛ لأنهم كانوا فى شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر ؛ كما تقول : هذا الأمر منك بمرأى ومسمع ؛ أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأول أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لما أنجاهم وغرّق عدوّهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن ، إن فرعون قد غَرِق ! حتى أمر الله البحر فلفَظَه فنظروا إليه .

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَاد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلما أن سمع الله تكذيبهم نبيه عليه السلام ، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل ؛ فلما أطمأنوا و بُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرِقوا فى النعمة ، رأوا قوما يعكُفون على أصنام لهم ؛ قالوا ياموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلهًا وهو فضّلكم على العالمين ؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدّسة التى كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدّسة فى أيدى الجبارين قد غُلبوا عليها فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لَحْمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنا . قال : « يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » إلى قوله « قَاعِدُونَ » حتى دعا عليهم وسمّاهم فاسقين . فبقوا فى التيه أربعين سنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسّلْوَى وبالغمام — على ما يأتى بيانه — ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْنَاء

(١) فى نسخة : « فلم يَعُدْ أن سمع الله ... » الخ .

ليجيئهم بالتوراة، فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه(١) —، ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت المقدس فآدخلوا البـاب سُجَّدًا وقولوا حِطَّة — على ما يأتى —، وكان موسى عليه السـلام شديد الحياء سِتّيرا، فقالوا : إنه آدر(٢). فلما آغتسل وضع على الحجر ثوبه، فعدا الحجر بثوبه إلى مجـالس بنى إسرائيل، وموسى على أثره عُريان وهو يقول : يا حجر ثوبى! فذلك قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه(٣) —، ثم لمـا مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته، حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المـائدة(٤) —، ثم سألوه أن يعلموا آية فى قبول قربانهم، فجعلت نار تجىء من السماء فتقبل قربانهـم، ثم سألوه أنْ بيِّن لنـا كفارات ذنوبنا فى الدنيا، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : «عملت كذا، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسمّيه له، ومن أصابه بول لم يطهر حتى يَقرِضـه ويزيل جلدته من بدنه، ثم بدّلوا التوراة وآفتروا على الله وكتبوا بأيديهم وآشترَوْا به عَرَضًا، ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم. فهذه معاملتهم مع ربّهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم. وسيأتى بيان كل فصل من هـذه الفصول مستوفًى فى موضـعه إن شاء الله تعـالى. وقال الطبرى : وفى أخبـار القرآن على لسان محمد عليـه السلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العـرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعـالى : وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

فيـــه ست مسائل :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣	(٢) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية.
(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠	(٤) راجع جـ ٦ ص ١٣٠

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وَعَدْنَا » بغير ألِف ، وآختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنمـا تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هـذا وجدنا القرآن ؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ »[1] وقوله : «وَعَدَ ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»[2] ، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَـا لَكُمْ » . قال مكىّ : وأيضـا فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى ؛ فوجب حمـله على الواحد ، لظـاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وأبى جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ وبه قرأ قتادة وآبن أبى إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا «وعدنا» بغير ألف ؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يَعِـد صاحبه . قال الجوهرى : الميعاد : المواعدة والوقت والموضـع . قال مكىّ : المواعدة أصلها من آثنين ، وقد تأتى المفاعلة من واحد فى كلام العرب ؛ قالوا : طارقت النّعل ، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا ؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . والآختيار «واعدنا» بالألف لأنه بمعنى «وعدنا» فى أحد معنييه ، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة «واعدنا» بالألف أجود وأحسن ، وهى قراءة مجاهد والأعرج وآبن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائى ؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ ٱللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا فى شىء ؛ لأن «واعدنا موسى» إنما هو من باب الموافاة ؛ وليس هذا من الوعد والوعيد فى شىء ، و إنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا . والفصيح فى هـذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » ها هنا بالألف جيّـد ؛ لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة ؛ فمن الله جل وعز وَعْد ، ومن موسى قبول وآتباع يجرى مجرى المواعدة . قال آبن عطية . ورجّح أبو عبيدة « وعدنا » وليس بصحيح ؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وآرتقابه يشبه المواعدة .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى آسم أعجمى لا ينصرف للعُجْمة والتعريف. والقبط على — مايروى — يقولون للمــاء : مو، وللشجر : شا (١) . فلما وُجد موسى فى التابوت عند ماء وشجر، سُمّىَ موسى . قال السُّــدّى : لمــا خافت عليه أمّه جعلته فى التابوت وألقته فى اليَمّ — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليَمّ بين أشجــار عند بيت فرعون؛ فخرج جوارى آسـية آمرأة فرعون يغتسلن فوجدنه؛ فسُمِّىَ باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن آسم الذى آلتقطته صابوث . قال آبن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث آبن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله (٢) بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثــة — قوله تعــالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْـلَةً ﴾ أربعيـــن نصب على المفعول الثــانى، وفى الكلام حذف ؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة؛ كما قال : « وَٱسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ؛ فخرج إلى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل، وصعِدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة؛ فعدّوا — فيما ذكر المفسرين — عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا قد أخلفنا موعده . فآتخذوا العجل؛ وقال لهم السامرىّ : هذا إلٰهكم وإله موسى، فآطمئنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٣) » . فلم يتبع هارون ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا آثنــا عشر ألفا فيما روى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألقى الألواح فرفع من جملتهــا ســتة أجزاء وبقى جزء واحد وهو الحلال والحــرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر؛ فشربوا من مائه حُبًّــا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر ؛ كذا فى سائر النسخ ؛ وقال آبن الجواليق : هو بالشين المعجمة » .

(٢) كذا فى الأصول، وآسم الجلالة زائد، ولا يبعد أن يكون الأصل : عبد الله، وهو معنى إسرائيل . راجع ص ٣٣١ من هذا الجزء .   (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ .

وورمت بطونهم ؛ فتابوا ولم تُقبل توبتهم دون أن يَقتلوا أنفسهم ؛ فذلك قوله تعالى : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى ارتفاع الضّحى ؛ فقتل بعضهم بعضا ، لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحدٍ ؛ كل من استقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ؛ حتى عَجَّ موسى إلى الله صارخا : ياربّاه ، قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله ؛ فقبل توبة مَن بقى وجعل مَن قُتل فى الشهداء ؛ على ما يأتى .

الرابعة — إن قيل : لم خصّ الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ ؛ فالليالى أوّل الشهور والأيام تَبَع لها .

الخامسة — قال النقاش : فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نصّ على الليالى اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوما بلياليها . قال ابن عطية : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهرىّ رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والدنُوّ منه فى الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام (١) من هذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « الأعراف » (٢) زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيانٌ فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه » (٣) إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى اتخذتموه إلهًا من بعد موسى . وأصل اتخذتم ائتخذتم ، من الأخذ ، ووزنه افتعلتم ، سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء إيتخذتم ، فاضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ ، وواوا فى موتخذ ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٢٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٤ وص ٢٨٤ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٥

فبُدلت بحرف جَلْد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم ٱجتُلبت ألف الوصل للنطق ، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير ، كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا » فٱستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير ، قال الشاعر (١) :

أَسْتحدَثَ الرَّكْبُ عن أشياعهم خَبَراً * أم راجعَ القلبَ من أطرابه طَرَبُ

ونحوه فى القرآن : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبى علىّ الفارسىّ أن « ٱتخذتم » ، من تخذ لا من أخذ . ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم (٢) . والحمد لله .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ العَفْوُ : عفوُ الله جل وعز عن خلقه ، وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبةٌ أَلْبَتَّة . وكل من ٱستحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِىَ عنه . فالعفو : مَحْوُ الذنب ، أى محوْنا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم . مأخوذ من قولك : عَفَتِ الريح الأثر ، أى أذهبته . وعفا الشيءُ : كثر . فهو من الأضداد ، ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسُمِّىَ العجل عِجْلًا لٱستعجالهم عبادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجَّوْل مثله ، والجمع العجاجيل ، والأنثى عِجْلة . عن أبى الجرّاح .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كى تشكروا عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعل (٣) . وأما الشكر فهو فى اللغــة الظهور ، من قوله : دابة شَكور ، إذا ظهر عليها من السِّمَن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . وحقيقته الثناء على الإنسان بمعروف يُولِيكه . كما تقدّم

---

(١) هو ذو الرمة . (٢) راجع ص ٣٠٩ (٣) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

فى الفاتحة[1] . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف؛ يقال : شكرته وشكرت له؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكفران . وتشكّرت له مثل شكَرت له . وروى الترمذىّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابى : هذا الكلام يتأول على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عز وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه و يكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعــة — فى عبارات العلمــاء فى معنى الشكر؛ فقال سَهْل بن عبـد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصـية فى السر والعلانيـة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصـير الشكر للنعم؛ ولذلك قال تعالى : « ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً »[2] . فقال داود : كيف أشكرك يا رب، والشكر نعمة منـك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى؛ إذ قد عرفت أن الشـكر منى نعمة . قال : يا ربّ فأرنى أخْفَى نعمك علىّ . قال : يا داود تنفّس؛ فتنفّس داود . فقال الله تعالى : مَن يُحصى هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه الســلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجُنَيْد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدى السَّرِىّ السَّقَطِىّ ألعب وأنا ابن سبع سنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر، فقال لى : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعْصَى الله بنعمه . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيـد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرىّ لى . وقال الشـبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسـنات، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات، ومراقبة جبّار الأرض والسموات . وقال ذو النُّون المصرىّ أبو الفَيْض : الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

---

(١) راجع ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٦

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٥٣)

« إذا » اسم للوقت المـاضى . و « إذا » اسم للوقت المستقبل . و « آتينا » : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا[١] . والكتاب : التوراة بإجمـاع من المتأولين . واختلف فى الفرقان ؛ فقال الفَرّاء وقُطْرُب : المعنى آتينا موسى التوراة ، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هـذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشىء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشىء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَـدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحـاق الزجاج : يكون الفـرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء ؛ ومنه قول الشاعر :

وقَدّمتِ الأديمَ لراهِشَيْهِ[٢] * وألْفَى قولَها كذِبًا ومَيْنَا

وقال آخر[٣] :

ألَا حبّذا هِنـدٌ وأرضٌ بها هِنـدُ * وهندٌ أتى من دونها النَّأْىُ والبُعْدُ

فنسق البُعْد على النّأى ، والمَيْنُ على الكذب ؛ لاختلاف اللفظين تأكيدا ؛ ومنه قول عنترة :

حُيّيتِ مِن طَلَلٍ تقادمَ عهدُه * أقْوَى وأقفر بعـد أمّ الهيْثَمِ

قال النحاس : وهذا إنمـا يجىء فى الشعر ، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد : فرقا بين الحق والباطل ؛ أى الذى علمه إياه . وقال ابن زيد : الفرقان انفراق البحـر له حتى صار فِرَقًا فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب ؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان . قاله ابن بحـر . وقيل : الواو صـلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

إلى المَلِك القَرْم وابن الهمام * وليثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

(١) راجع ص ٢٦١ ص ٣٤٣ (٢) الرواية المشهورة فى البيت : «فقددت الأديم» وهو لعدى بن زيد . والقد : القطع . والأديم : الجلد . والراهشان : عرقان فى باطن الذراع . (٣) هو الحطيئة .

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة . ودليل هذا التأويل قوله عزّ وجلّ : « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ » (١) أي بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد، وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفَرْق بينهم و بين قوم فرعون ؛ أنجى هؤلاء وأغرق أولئك . ونظيره : «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» . فقيل : يعنى به يوم بَدْر؛ نصر الله فيه محمدا صلّى الله عليـه وسلّم وأصحابَه ، وأهلك أبا جهـل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدّم (٢) .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء ؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » . وقال زُهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــومٌ آلُ حِصْنٍ أم نسـاءُ

وقال تعالى : « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء ؛ قال الله تعـالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ » وكذا كل نبيّ مرسَـل إلى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿يَا قَوْمِ﴾ منادَى مضاف . وحذفت الياء فى «يا قوم» لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى؛ لأنهـا اسم وهى فى موضع خفض . و إن شئت فتحتها و إن شئت ألحقت معها هاء ؛ فقلت : يا قوميَهْ . و إن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخفّ؛ فقلت : يا قوما، و إن شئت قلت : يا قومُ ؛ بمعنى يأيها القوم . و إن جعلتهم نكرة نصبت ونونت . وواحد القوم آمرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام؛ وأقاوم جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٢ (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ آستغنى بالجمع القليل عن الكثير، والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلَاثَةَ قروءٍ » . وقال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ » . ويقال لكل من فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأتَ إلى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ قال بعض أرباب المعاني : عِجْلُ كلّ إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عِجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ لما قال لهم : فتوبوا إلى بارئكم ؛ قالوا : كيف ؟ قال : ﴿ فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذَلِّلوها بالطاعات وكُفّوها عن الشهوات . والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدّتها بالماء . قال سفيان بن عُيَيْنَة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بنى إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العِجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزُّهْرِىّ : لما قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضا ؛ حتى قيل لهم : كُفّوا . فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحىّ ؛ على ما تقدّم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفًّا ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقَتَلُوا — إذ لم يعبدوا العجل — مَن عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم مُحْتَبُون فقال : ملعون من حلّ حَبْوَته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو آتقاه بيد أو رِجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم — يعنى من قتل — وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — ؛ لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه ؛ وإنما آعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله فى عباده إذا فشا المنكر ولم يُغَيَّر عوقب الجميع . روى جَرِير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم

بالمعاصى هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عمّهم الله بعقاب». أخرجه ٱبن ماجه فى سُننه. وسيأتى الكلام فى هذا المعنى إن شاء الله تعالى. فلما ٱستحرّ[1] فيهم القتل و بلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم. قاله ٱبن عباس وعلىّ رضى الله عنهما. وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود فى قتل أنفسهم. فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هى أفضل من التوبة. وقرأ قتادة: فأقيلوا أنفسكم — من الإقالة —؛ أى ٱستقبلوها من العثرة بالقتل.

قوله تعالى: ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ: الخالق؛ و بينهما فرق؛ وذلك أن البارئ هو المبدع المحدث. والخالق هو المقدّر الناقل من حال إلى حال. والبريّة: الخلق؛ وهى فَعِيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تُهمز. وقرأ أبو عمرو «بارئْكم» — بسكون الهمزة — ويشعرْكم وينصرْكم ويأمرْكم. وٱختلف النحاة فى هذا؛ فمنهم من يُسكّن الضمة والكسرة فى الوصل؛ وذلك فى الشعر. وقال أبو العباس المبرد: لا يجوز التسكين مع توالى الحركات فى حرف الإعراب فى كلام ولا شعر. وقراءة أبى عمرو لحن. قال النحاس وغيره: وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة؛ وأنشدوا:

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوِّ[2] أمثالَ السَّفِينِ العُوَّمِ

وقال ٱمرؤ القيس:

فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثمًا من الله ولا واغِلِ[3]

وقال آخر:

* قالتْ سُليمى ٱشترْ لنا سَوِيقا *

وقال الآخر:

رُحتِ وفى رجليكِ ما فيهما * وقد بدا هَنْكِ من المئزرِ

---

(١) استحرّ: اشتدّ وكثر. (٢) الدو (بفتح الدال وتشديد الواو): الصحراء. وأراد بأمثال السفين رواحل محملة تقطع الصحراء قطع السفن البحر. (٣) المستحقب: المتكسب. والواغل: الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه. يقول هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به؛ فلما أدرك ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم بشربها؛ إذ وفّى بنذره فيها.

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجّته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب .
قال أبو علىّ : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات . وأصل برأ من تبرّى الشىء من الشىء وهو انفصاله منه . فالخلق قد فُصلوا من العدم إلى الوجود ؛ ومنه بَرَأْت من المرض بَرْءًا (بالفتح) كذا يقول أهل الحجاز . وغيرهم يقول : برِئت من المرض بُرْءًا (بالضم) ؛ و برئت منك ومن الديون والعيوب براءة ؛ ومنه المبارأة للمرأة . وقد بارأ شريكه وامرأته .

قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، تقديره ففعلتم « فتاب عليكم » ؛ أى فتجاوز عنكم ، أى على الباقين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (1) تقدّم معناه ، والحمد لله .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . ﴿ يا مُوسَى ﴾ نداء مفرد . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى نصدّقك . ﴿ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ قيل : هم السبعون الذين اختارهم موسى ؛ وذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » . والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعدِ مَوْتِكُمْ » . وستأتى قصة السبعين فى الأعراف (2) إن شاء الله تعالى . قال ابن فُورَك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد اختُلف فى جواز رؤية الله تعالى ؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيا والآخرة . وأهل السُّنّة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة ؛ فعلى هذا لم يطلبوا من الرؤية

(1) راجع ص ١٠٣ فما بعدها وص ٣٢٥ (2) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

محالا؛ وقد سألها موسى عليه السلام . وسيأتى الكلام فى الرؤية فى «الأنعام» و«الأعراف»[١] إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال ، ومعناه علانية . وقيل عِيانا؛ قاله آبن عباس . وأصل الجهر الظهور؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة؛ أى غير مستتر بشىء . وقرأ آبن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان؛ مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما — أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ والتقدير : وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثانى — أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعِيانا؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكّد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قـد تقدّم فى أول الســورة معنى الصاعقة[٢] . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ « الصَّعْقة » ، وهى قراءة آبن مُحَيْصِن فى جميع القرآن . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضـع الحال . ويقـال : كيف يموتون وهم ينظـرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دور آل فلان تراءى ؛ أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى « تنظرون » أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثُمّ ردوا لآستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا آحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش ، وآحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا ، والمعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيـل : ماتوا مَوْتَ همودٍ يعتبر به الغير، ثم أرسلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصـله إثارة الشىء من محله؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها، أى حركتها؛ قال آمرؤ القيس :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٧٨ (٢) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

وفتيان صِدْق قد بعثتُ بسُحْرة[1] * فقاموا جميعًا بين عاثٍ ونَشْوان

وقال عنــترة :

وصحـابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهـــم * ليـلا وقد مال الكرى بطُلاها[2]

وقال بعضهم : « بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » علّمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأوّل أصح ؛ لأن الأصـل الحقيقةُ ، وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» . على ما يأتى[3] .

الخامســـة — قال المـاوَرْدِىّ : وٱختُلِف فى بقاء تكليف مَن أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل مِن تعبّد . الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالآستدلال دون الآضطرار .

قلت : والأوّل أصح ؛ فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك مما ٱضطرهم إلى الإيمـان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظُّلّة . والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب ؛ لأنها تغمّ السماء أى تسترها ؛ وكل مغطّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

---

(١) السحرة (بضم أوله) : السَّحَر . وقيل : أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق .　　(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠

إذا غطّاه الغَيْم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إنه ليُغان على قلبى " . قال صاحب العين : غِين عليه : غطّى عليه . والغَين : شجر ملتفّ . وقال السُّدّى : الغمام السحاب الأبيض . وفعل هذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، ويجلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التِّيه بين مصر والشام لما آمتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم ؛ وقالوا لموسى : « فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا »[1] . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص[2] أربعين سنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ستة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التِّيه قالوا لموسى : مَن لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلْوَى . قالوا : مَن لنا من حرّ الشمس ! فظلّل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وسط محلّتهم . وذكر مكّىّ : عمود من نار . قالوا : من لنا بالماء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألّا يبلى لهم ثوب ولا يَخْلَق ولا يدرَن ؛ وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان . والله أعلم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيل : الترّنجبين[3] — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطّرنجبين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حُلوة . وقيل عسل : وقيل شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقاق ؛ عن وهب بن مُنبّه . وقيل : « المنّ » مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : " الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين " فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ؛ أى مما خلقه الله لهم فى التِّيه . قال أبو عبيد : إنما شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه . أى مِن جنس مَنّ

---

(١) راجع ج ٦ ص ١٢٨ (٢) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « إن الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردنّ إلى رفح ... » وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) . (٣) الترنجبين : طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

بنى إسرائيل فى أنه كان دون تكلّف . روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن آدّخر منـه شيئا فسد عليه ، إلا فى يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء .

الثالثـة — لمـا نصّ عليـه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : اما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، واما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى آستعمالها بحتًا فى جميع مرض العين . وهذا كما آستعمل أبو وَجْزَة العسلَ فى جميع الأمراض كلّها حتى فى الكحل ، على ما يأتى بيانه فى سورة « النحل »[1] إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكمء واحد ، وكمآن آثنان ، وأكمؤ ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كمأة — بالتاء — على عكس شجرة وشجر . والمنّ آسم جنس لا واحد له من لفظه ، مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلف فى السَّلْوَى ، فقيل : هو السُّمانَى بعينه ؛ قاله الضحاك . قال آبن عطية : السَّـلْوَى طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غَلِط الهُذَلِيّ[2] فقال :

وقاسمهـا بالله جَهْـدًا لَأَنتُمُ * أَلَذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما آدّعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرِّج[3] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ؛ وآستدلّ ببيت الهذليّ ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سُمّيَ به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السُّلوان[4] ؛ وأنشد :

لو أشرب السُّـلوان ما سَلِيتُ * ما بى غِنًى عنـك وإن غَنِيتُ[5]

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ . (٢) هو خالد بن زهير . (٣) هو مؤرّج بن عمر السدوسى ، و يكنى أبا فيد . كان من أصحاب الخليل بن أحمـد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة . (٤) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها و يستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) . (٥) البيت لرؤبة .

وقال الجوهرى : والسلوى العسل؛ وذكر بيت الهُذَلى :

* ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا *

ولم يذكر غلطا . والسُّـلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا؛ قال :

شربتُ على سُـلوانةٍ ماءَ مُزْنةٍ * فلا وجديد العيش يا مَىّ ما أسْلُو

وآسم ذلك المـاء السُّلوان . وقال بعضهم : السـلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو؛ والأطبـاء يسمونه المُفَرِّح . يقال : سَليت وسلوْت؛ لغتان . وهو فى سُلوة من العيش ، أى فى رغد؛ عن أبى زيد .

الخامســة — وآختُلِف فى السَّـلْوَى هل هو جمع أو مفـرد؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه؛ مثـل الخير والشر؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته؛ كما قالوا : دِفْلَى[1] للواحد والجمـاعة ، وسُمَانَى وشُكاعَى[2] فى الواحـد والجميع . وقال الخليـل : واحده سَلواة؛ وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكـرك هِزّةٌ[3] * كما آنتفض السَّلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السَّلْوَى واحدة، وجمعه سلاوى .

السادســة — «السَّلْوَى» عطفٌ على « المنّ »، ولم يظهر فيه الإعراب، لأنه مقصور. ووجب هذا فى المقصور كله؛ لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف . قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقر له؛ فأشـبه الحركة فآستحالت حركته . وقال الفـرّاء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السـابعــة — قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ « كلوا» فيه حذف، تقديره وقلنا كلوا، فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

---

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء ، والناس يتداوون بها . (٣) فى الأصول : « سلوة » وهو تحريف .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر . ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

قوله تعـالى : وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُوا هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُوا مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدًا وَٱدۡخُلُوا ٱلۡبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُوا هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ حُذفت الألف من «قلنا» لسكونها وسكون الدال بعدها، والألف التى يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل؛ لأنه من يدخل .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ أى المدينة، سُمِّيت بذلك لأنها تقرّت أى آجتمعت؛ ومنه قَرَيت المـاء فى الحوض؛ أى جمعته؛ وآسم ذلك المـاء قِرًى (بكسر القاف) مقصور . وكذلك ما قُرِىَ به الضيف؛ قاله الجوهرى . والمِقْراة للحوض . والقَرِىّ لمسيل المـاء . والقَرَا للظهر، ومنه قوله[(1)] :

* لاحِــقُ بطنٍ بِقَــرًا سمينِ *

والمقارِى : الجفان الكبار، قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَزَّع *

وواحد المقارى مِقراة؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن . وآختُلف فى تعيينها، فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أرِيحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شَبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . آبن كَيْسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهـذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البـلدة وأزال عنهم التِّيه .

---

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال، فقال : « بقرا سمين » . واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرًا واسـعًا؛ وهو نعت لمصدر محذوف؛ أى أكلًا رَغَدًا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال؛ على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغَلّة ، فلذلك قال : « رغدا » .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَـابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يُجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أَبْوِبَة للازدواج؛ قال الشاعر[(١)] :

هتّـاك أخبيةٍ ولّاج أبوِبَة * يَخْلِط بالبِرّ منه الجِدَّ واللِّينا

ولو أفرده لم يجـز . ومثله قوله عليه السلام : "مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خَزَايا ولا نَدامَى" . وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة . وهذا شىء من بابَتِك ؛ أى يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود[(٢)] فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والبـاب الذى أُمِروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بـ«باب حِطّة» ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التى كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل . و« سجدا » قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعيّنة .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . و﴿ حِطَّةٌ ﴾ بالرفع قراءة الجمهور؛ على إضمار مبتدأ ، أى مسئلتنا حطة ، أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت «حِطّةً» بالنصب ، على معنى احطط عنـا ذنوبنا حِطة . قال النحاس : الحديث[(٣)] عن ابن عباس أنه قيـل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، وفى حديث آخر عنـه قيل لهم : قولوا مغفرة — تفسير للنصب ؛ أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع . وهو أولى فى اللغة ؛ لمـا حكى عن العرب فى معنى بدّل ، قال أحمـد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أى غيرته ولم أزِل عينه . وأبدلته أزلت عينه وشخصه ، كما قال[(٤)] :

* عَزْل الأمير للأمير المُبْدَل *

---

(١) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) (٢) راجع ص ٣٤٥ .
(٣) فى الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . و«الحديث» مبتدأ ، وخبره « تفسير » . (٤) هو أبو النجم . (عن إعراب القرآن للنحاس) .

وقال الله عز وجل : « قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ » . وحديث[1] ٱبن مسعود قالوا : «حِطّة» تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : « حِطّةٌ » بمعنى حُطّ ذنوبنا ؛ أُمِروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحطّ بها ذنوبهم . وقال ٱبن جبير : معناه الاستغفار . أبان بن تَغْلِب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعـل اللـ * ـه بها ذنب عبده مغفورا

وقال ٱبن فارس فى المُجْمَل : «حِطّة» كلمة أُمِر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرى أيضا فى الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيـل لبنى إسرائيل ٱدخلوا البـاب سُجَّدًا وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم [فبـدّلوا][2] فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أستاههم وقالوا حَبّة فى شَـعَرة " . وأخرجه البخارىّ وقال : " فبدّلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ فى شعَرة ". فى غير الصحيحين : « حنطة فى شَـعَر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهاثا . وهى لفظة عبرانية ، تفسيرها : حنطة حمراء ؛ حكاها ٱبن قتيبة ، وحكاه الهروى عن السدّى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا وٱستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . وقال ٱبن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . ورُوِىَ أن الباب جُعـل قصيرا ليدخلوه ركّعاً فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم .

السادســة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها فى الشريعـة لا يخلو أن يقع التعبّد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبّـد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ؛ لذمّ الله تعالى مَن بدّل ما أمره بقوله . وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى إلى ذلك المعنى ؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

---

(١) فى الأصل : « وحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى ؛ فحُكِىَ عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ؛ وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم آبن سِيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة . وقال مجاهد : انْقُصْ من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونا و يعلمون ذلك ولا يغيّرونه . و روى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : مَن سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم . وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان ؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ . وذلك هو الأحوط فى الدّين والأتقى والأولى ؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأَسْقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ؛ حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أَوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فآختلفوا علىّ فى اللفظ وآجتمعوا فى المعنى . وكان النَّخَعِىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورىّ رحمه الله : إذا قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ؛ إنما هو المعنى . وقال وَكِيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعًا فقد هلك الناس . وآتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قِصصًا ذكر بعضها فى مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربىّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير ، والحذف والإلغاء ،

والزيادة والنقصان . وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجـوز بالعربية أولى . آحتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ، وهو الصحيح فى الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "نَضّر الله آمرأً سمع مقالتى فبلّغها كما سمعها" وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه فى دعاء علمه : "آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيّك الذى أرسلت"؛ فقال الرجل : ورسولك الذى أرسلت؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ونبيّك الذى أرسلت" . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : "فأدّاها كما سمعها" . قيل لهم : أما قوله "فأدّاها كما سمعها" فالمراد حكمها لا لفظها؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به . ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : "فرُبّ حاملِ فقه غير فقيه ورُبّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه" . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد؛ وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : "ورسولك - إلى قوله - ونبيك"؛ لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن آسم الرسول يقع على الكافة، وآسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة . فلما قال : "ونبيك"، جاء بالنعت الأمدح، ثم قيّده بالرسالة بقوله : "الذى أرسلت" . وأيضا فإن نقله من قوله : "ورسولك - إلى قوله - ونبيك" ليجمع بين النبوّة والرسالة . ومستقبح فى الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذى أرسله، وهذا قتيل زيد الذى قتله؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأول . وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذى أرسـله إلى عمرو، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو فى وقعة كذا . والله وليّ التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للراوى الأول تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأول ، و يؤدّى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيـل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا ؛ فإن عُدمت لم يجز . قال آبن العربى : الخلاف فى هذه المسألة إنما يُتصور بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجِبِلّية الذّوقية ؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز ؛ إذ الطباع قد تغـيّرت ، والفهوم قد تباينت ، والعوائد قد آختلفت ؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمـائنا : لقد تعاجم آبن العربى رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل . نعم ، لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب ، والله أعلم .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وآبن عامر بالتاء مع ضمها ، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها ، وهى أبينها ؛ لأن قبلها «وَ إِذْ قُلْنَا آدْخُلُوا» بجرى «نَغْفِرْ» على الإخبار عن الله تعالى ؛ والتقدير وقلنا آدخلوا الباب سُجَّدًا نغفر ، ولأن بعده « وسَنَزِيدُ » بالنون . و «خطاياكم» آتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا ؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لما حال بين المؤنث و بين فعله ؛ على ما تقدم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ » . وحَسُن الياء والتاء و إن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : « و إذ قلنا » لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى ؛ فآستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنـــة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة ؛ فقال الخليل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايئ ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء ، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا ؛ فلما آجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأول خطايئ ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

خطائئ ، ولا تجتمع همـزتان فى كلمة ؛ فأبدلت من الثانيـة ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة؛ كما قلت : دواب .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل . و يقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسّلوى للغد ، وسـنزيد فى إحسان من لم يرفع للغـد . و يقال : يغفر خطايا من هو عاص، وسيزيد فى إحسان من هو محسن؛ أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم . وهو آسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيده، وأحسن سـياسة نفسه، وأقبل على أداء فرائضه، وكفى المسلمين شرّه . وفى حديث جبريل عليه السلام : "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فية أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ﴾ «الذين» فى موضع رفع؛ أى فبدّل الظالمون منهـم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حِطّة ؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم؛ فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البـلاء مالقوا؛ تعريفا أن الزيادة فى الدّين والآبتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل ، وقُرِئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشىء بغـيره . و بدّله الله من الخوف

أمنًا . وتبديل الشيء أيضا تغييره وإن لم يأت ببدل . وٱستبدل الشيء بغيره، وتبدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر . قال ٱبن دُرَيد : الواحد بديل . والبـديل : البدل . وبَدَلُ الشيء : غيره ؛ يقال : بَدَلٌ وبِدْلٌ ، لغتان ؛ مثل : شَبَه وشِبْه ، ومَثَل ومِثْل ، ونَكَل ونِكْل . قال أبو عبيد[١] : لم يُسمع في فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وَجَع يكون في اليدين والرجلين . وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلًا .

الثالثـة ـ قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ «ظلموا» ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام ؛ كما في هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : مما كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم ؛ ومنه قول الخنساء :

تَعَـرّقني الدهرُ نَهْسًا[٢] وحَزّا * وأوجعني الدهرُ قَرْعًا وغَمْزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها . والضرب الثاني : مجيء تكرير الظاهر في موضع المضمر قبل أن يتم الكلام ؛ كقوله تعالى : «ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ » و « ٱلْقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم : الحاقة ما هي ، والقارعة ما هي ؛ ومثله : «فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ» . كرر « أصحاب الميمنة» تفخيمًا لما ينيلهم من جزيل الثواب ؛ وكرر لفظ « أصحاب المشأمة » لما ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبًا * كان الغـرابُ مقطّعَ الأوداجِ

وقد جمع عَدِيّ بن زيد المعنيين فقال :

---

(١) في الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهري .

(٢) في بعض الأصول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم ونتره ، أي جذبه .

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغّص الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأول؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبّذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ * وهندٌ أتى من دونها النّأْيُ والبُعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ رِجْزًا ﴾ قراءة الجماعة «رِجْزًا» بكسر الراء، وابن مُحَيْصِن بضم الراء . والرجز: العذاب (بالزاى)، و(بالسين) : النَّتْن والقَذَر؛ ومنه قوله تعالى : «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» ؛ أى نَتْنًا إلى نَتْنهم؛ قاله الكِسائى . وقال الفرّاء : الرِّجْز هو الرِّجْس . قال أبو عبيد : كما يقال السُّدْغ والزُّدْغ ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى . قال الفرّاء : وذكر بعضهم أن الرُّجْز (بالضم) : اسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : «والرُّجْزَ فَٱهْجُرْ»[1] . والرَّجَز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشِّعْر؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعرا . وهو مشتق من الرَّجَز؛ وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت ارتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . والفِسْق الخروج، وقد تقدّم[2] . وقرأ ابن وَثّاب والنَّخَعِى : «يَفْسِقُون» بكسر السين .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ كُسرت الذال لالتقاء الساكنين . والسين سين السؤال؛ مثل : استعلم واستخبر واستنصر، ونحو ذلك؛ أى طلب وسأل السَّقْىَ لقومه . والعرب تقول : سقيته وأسقيته، لغتان بمعنًى؛ قال[3] :

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦٥ (٢) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (٣) هو لبيد (كما فى اللسان) .

سقى قومى بنى مَجْدٍ وأَسْـقَى * نُمَـيْراً والقبائلَ من هِـلال

وقيل : سقيتُه مِن سقى الشَّفَة، وأسقيته دَلَلْته على المـاء .

الثانيـة — الاستسقاء إنمـا يكون عند عدم المـاء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذِّلة مع التوبة النَّصوح . وقد استسقى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج إلى المصلَّى متواضعاً متذلّلاً متخشعاً مترسِّلاً متضرِّعاً، وحسبك به ! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد؛ فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر: "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثـة — سُنّة الاستسقاء الخروج إلى المصلَّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصلاة؛ وبهـذا قال جمهور العلمـاء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صـلاة ولا خروج، وإنمـا هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فاكتفى به عما سواه، ولم يقصـد بذلك بيان سُنّة؛ ولمـا قصد البيان بيّن بفعـله، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المـازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة « هود »(١) إن شاء الله .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ العصا : معروف، وهو اسم مقصور مؤنّث وألفه منقلبة عن واو؛ قال(٢) :

* على عَصَوَيْها(٣) سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ *

---

(١) لم يذكر المصنف شيئا عن الاستسقاء فى سـورة « هود »، وإنمـا هو مذكور فى سورة « نوح » جـ ١٨ ص ٣٠٢ (٢) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * فجاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٣) عصويها : عرقوتى الدلو، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . والمشبرق : المخرق .

والجمع عُصِىّ وعِصِىّ ، وهو فعول ، و إنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة ، وأعْصٍ أيضا مثله ، مثل زَمنٍ وأزْمُنٍ . وفى المثل : «العَصَا من العُصَيّة» أى بعض الأمر من بعض. وقولهم : « أَلْقَى عصاه » أى أقام وترك الأسفار ، وهو مَثَل . قال :

فألقتْ عصاها وٱستقرّ بها النّوى * كما قـرّ عَيْنًـا بالإياب المسافرُ

وفى التنزيل : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَـا »[1] . وهناك يأتى الكلام فى منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفرّاء : أوّل لحن سُمع بالعراق هذه عصاتى . وقد يعبّر بالعصا عن الآجتماع والآفتراق ، ومنه يقال فى الخوارج : قد شقُّوا عصا المسلمين ، أى آجتماعهم وآئتلافهم . وٱنشقّت العصا ، أى وقع الخلاف ، قال الشاعر :

إذا كانت الهَيْجاءُ وٱنشقّتِ العصا * فحَسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنّـدُ

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهـم : لا ترفع عصاك عن أهلك ، يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف ، وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار ، وفى الكثير حِجار وحجارة ، والحجارة نادر . وهو كقولنا : جَمَل وجِمَالة ، وذَكَر وذِكَارة ، كذا قال ٱبن فارس والجوهرى .

قلت : وفى القرآن « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » . « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ » . « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً » . « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ » . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِـمْ حِجَارَةً » فكيف يكون نادرا ، إلا أن يريدا أنه نادر فى القياس كثير فى الآستعمال فصيح . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَٱنْفَجَرَتْ﴾ فى الكلام حذف ، تقديره فضرب فٱنفجرت . وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجـر من غير ضرب ، لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد فى وصولهم إلى المراد ، وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد . والآنفجار : الآنشقاق ، ومنه ٱنشـق الفجر . وٱنفجر المـاء ٱنفجارا : ٱنفتح . والفُجْرة : موضع تفجّر المـاء . والآنبجاس أضيق من الآنفجار ، لأنه يكون ٱنبجاسا ثم يصير ٱنفجارا . وقيل : ٱنبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق ، بمعنًى واحد ، حكاه الهَرَوِىّ وغيره .

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٦ .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ « اثنتا » فى موضع رفع بـ « انفجرت » وعلامة الرفع فيها الألف . وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معرَبة أبدا لصحة معناها . «عَيْنًا» نُصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرة » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ، وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز «عشْرة» وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعَيْن من الأسماء المشتركة ؛ يقال: عَيْنُ الماء ، وعَيْنُ الإنسان ، وعينُ الرُّكْبة[1] ، وعين الشمس . والعَيْن : سحابة تُقبل من ناحية القِبلة . والعين : مطر يدوم خمساً أو سِتًّا لا يقلع . وبلد قليل العَيْن[2] : أى قليل الناس . وما بها عين ، محرّكة الياء . والعين : الثقب فى المزادة . والعَيْنُ من الماء مُشَبّهة بالعين من الحيوان ؛ لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان . وقيل : لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبّهت به عين الماء ؛ لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادسة : لما استسق موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا ؛ قيل : مربّعا طُورِيًّا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوالق ويُرحل به ؛ فإذا نزلوا وُضع فى وسط محلّتهم . وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له اسم الحجر ليضرب موسى أىّ حجر شاء ؛ وهذا أبلغ فى الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل ، وفرّ بثوبه حتى برّأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربّعاً ، تطّرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الركبة (براء مضمومة وباء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : «عين الركية» (براء مفتوحة وياء مثناة من تحت) وهى مفجر ماء البئر ومنبعها . (٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرّك وتسكن فى العين بهذا المعنى .

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسـلم من نبع المـاء وآنفجاره من يده وبين أصابعه أعظم فى المعجزة ؛ فإنا نشاهد المـاء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ، ومعجزة نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، يخرج المـاء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأُتِيَ بتَـوْر(١) فأدخل يده فيه ؛ فلقد رأيت المـاء يتفجّـر من بين أصابعه ويقول : " حيّ على الطّهور " . قال الأعمش : فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سِبْط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيـل كالقبائل فى العـرب ، وهم ذُرِّية الآثنى عشر أولاد يعقوب عليـه السلام ؛ وكان لكل سِـبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحَجَر أربعـة أوجه ، يخرج من كل وجه ثلاث أعين ؛ لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم . وبلغنا أنه كان فى كل سبط خمسـون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضـع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى ، وآشربوا المـاء المتفجّر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ أى لا تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد ؛ نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عِثِيًّا ، وعثا يَعْثُو عُثُوًّا ، وعاث يَعِيث عَيْثًا وعُيُوثًا ومَعَاثًا ؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد ؛ ومنه العُثّة ، وهى السُّوسة التى تَلْحَس الصّوف . و﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدا لآختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها .

---

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صُفر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٦١)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هـذا القول منهـم في التيـه حين مَلُّوا المنّ والسَّلْوَى ، وتذكّروا عيشهم الأول بمصر . قال الحسن : كانوا نتانى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرِهم عِكرِ السّوء(١) ، وآشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقـالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكَنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما آثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ؛ فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيـل : لتكرارهما في كل يوم غذاء ؛ كما تقـول لمن يداوم على الصوم والصـلاة والقراءة : هو على أمر واحد ؛ لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصـبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الآستعانة ببعض ؛ لآستغناء كل واحد منّا بنفسه . وكذلك كانوا ؛ فهم أول من آتخذ العبيـد والخـدم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي » وقـال : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » أي ما شربوه من الخمر ، على ما يأتي بيانه(٢) . وإن كان السلوى العسل — كما حكى المؤرّج — فهو مشروب أيضا . وربما خُصّ بالطعام البُرّ والتمر ، كما في حديث أبي سعيد الخُدْري قال : كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعاً من طعام أو صاعا من

(١) العكر (بكسر أوله وسكون ثانيه) : الأصـل . وقيل : العادة والديدن . و العكر (بالتحريك) : دُرْدِيّ كل شيء .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٩٣ .

شعير ، الحديث . والعرف جار بأن القائل : ذهبت إلى ســوق الطعام ، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب . والطَّعْم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق ؛ يقال : طعمه مرّ . والطَّعْم أيضا : ما يشتهى منه ؛ يقال : ليس له طعم . وما فلان بذى طعم : إذا كان غثًّا . والطُّعم (بالضم) : الطعام ؛ قال أبو خراش :

أُرُدّ شُجـاعَ البطن لو تعلمينـه[1] * وأُوثِرُ غيرى من عِيالك بالطُّعْمِ

وأغتبِـق المـاء القَـرَاحَ فأنتهى * إذا الزادُ أمسى لِلْمُزَلَّج[2] ذا طَعْـمِ

أراد بالأوّل الطعام ، وبالثانى ما يُشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » أى من لم يذقه . وقال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنْتَشِرُوا » أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم : " إنها طَعامُ طُعْمٍ وشِفاءُ سُـقْم[3] " . وٱستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : " إذا ٱستطعمكم الإمامُ فأطعموه " . يقول : إذا ٱستفتح فٱفتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشـاعر :

نعامًا بوَجْرَةَ صُفر الخدو * د ما تَطْعَم النومَ إلا صِياما[4]

قوله تعالى : ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّـا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ لغة بنى عامر « فٱدعِ » بكسر العين لالتقاء الساكنين ؛ يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحـذوف . و « يُخْرِجْ » مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أَخْرِجْ ، يُخْرِج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

---

(١) فى ديوان الهذليين واللسان مادّة (طعم) : « قد تعلمينه » . (٢) المزلج : من معانيه البخيل . والملزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (٣) أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام . (٤) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغة ومعاجم البلـدان :

نعاما بخطمة صعر الخـدو * د لا تطعم المـاء إلا صياما

وقبله : فأما بنــو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : « يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد المـاء ولا تطعمه » .

اللام ، وضعّفه الزجاج . و « مِن » ، فى قوله « ممّا » زائدة فى قول الأخفش ، وغير زائدة فى قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنما دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لـ « يُخرِج » فأراد أن يجعل « ما » مفعولا . والأولى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام ؛ التقدير : يخرج لنا ممّا تُنبت الأرض مأكولا . فـ « مِن » الأولى على هذا للتبعيض ، والثانية للتخصيص . و﴿ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ بدل من « ما » بإعادة الحرف . ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ عطف عليه ، وكذا ما بعده ؛ فآعلمه . والبَقْل معروف ، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ماله ساق . والقِثّاء أيضا معروف ، وقد تُضمّ قافه ، وهى قراءة يحيى بن وَثّاب وطلحة آبن مُصَرِّف ، لغتان والكسر أكثر . وقيل فى جمع قِثّاء : قَثَائِىّ ؛ مثل عِلْبَاء وعَلَابِىّ ؛ إلا أن قثّاء من ذوات الواو ؛ تقول : أقثأتُ القوم ؛ أى أطعمتهم ذلك .

[وفَثَأَت القِدْرَ سكّنت غليانها بالماء ؛ قال الجَعْدِىّ[(١)] :

تَفُور علينا قِدْرُهم فنُدِيمُهَا ❋ ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمْيُهَا غلا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ؛ أى أعيا وآنبهر . وأفثأ الحَرُّ أى سكن وفتَر . ومن أمثالهم فى اليسير من البِرّ قولهم : إنّ الرَّثِيئة تفثأ الغضب » . وأصله أن رجلا كان غَضِب على قوم وكان مع غضبه جائعا ، فسَقَوْه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم . الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخْثُر . رَثَأْت اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فخَثُر ؛ والآسم الرَّثيئة . وآرتثأ اللبن خثر] .

وروى آبن ماجه حدّثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدّثنا يونس بن بُكير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمّى تعالجنى للسِّمْنة ، تريد أن تُدخلنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما آستقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمْنة . وهذا إسناد صحيح .

---

(١) الكلام الموضوع بين المربعين نقله المؤلف من معاجم اللغة سهوا على أنه من مادة « قثأ » بالقاف ؛ والواقع أنه من مادة « فثأ » بالفاء .

قوله تعالى : ﴿ وَفُومِهَا ﴾ اختلف فى الفُوم، فقيل : هو الثُّوم؛ لأنه المشاكل للبصل . رواه جُوَيْبِر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير[1] . وجَدَثٌ وجَدَفٌ؛ للقبر . وقرأ ابن مسعود « ثومها » بالثاء المثلثة؛ وروى ذلك عن ابن عباس . وقال أُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفَرَادِيسُ والفُومَانُ والبَصَلُ

الفراديس : واحدها فرديس . وكَرْم مُفَرْدَس؛ أى معرّش .

وقال حسّان :

وأنتم أناسٌ لئامُ الأصول * طعامُكُمُ الفُومُ والحَوْقَلُ

يعنى الثّوم والبصل؛ وهو قول الكسائى والنّضر بن شُمَيل . وقيل : الفُوم الحنطة؛ روى عن ابن عباس أيضا وأكثر المفسرين؛ واختاره النحاس، قال : وهو أَوْلى، ومن قال به أعلى، وأسانيده صحاح؛ وليس جُوَيْبِر بنظير لرُوايته؛ وإن كان الكسائى والفراء قد اختارا القول الأول، لإبدال العرب الفاء من الثاء؛ والإبدال لا يقاس عليه؛ وليس ذلك بكثير فى كلام العرب . وأنشد ابن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى الناسِ شخصًا واجدًا * وَرَدَ المدينـةَ عن زراعة فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعامًا لا بُرَّ فيه، والبرّ أصل الغذاء ! .

وقال الجوهرى أبو نصر : الفوم الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبنى كأغنى واجد * نزل المدينة عن زراعة فُومِ[2]

وقال ابن دُرَيد : الفُومة السُّنْبلة؛ وأنشد :

وقال رَبِيئهم[3] لمّا أتانا * بِكَفِّهِ فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغانى (جـ ٢١ ص ٢١١) طبع أوربا : « عن زراعة فول » . وقبل البيت :

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها * حرج من الرحمن غير قليل

وعلى هذا فالقافية لامية .

(٣) فى بعض الأصول : « وقال رئيسهم » . الربى . (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

والهـاء فى « كَفّه » غير مشبعة . وقال بعضهم : الفُوم : الحِمَّص؛ لغةٌ شامية . و بائعه فامىّ ، مغيَّر عن فُومىّ؛ لأنهم قد يغيّرون فى النسب؛ كما قالوا : سُهْلِىّ ودُهْرِىّ . و يقال : فَوِّموا لنا ؛ أى آختبزوا . قال الفرّاء : هى لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفُوم كل حب يُخْتَـبز .

مسئلة — آختلف العلماء فى أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول . فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ؛ للأحاديث الثابتة فى ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر — القائلين بوجوب الصلاة فى الجماعة فرضًا — إلى المنع ، وقالوا : كل مامَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به . وآحتجّوا بأن رسـول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ؛ والله عزّ وجل قد وصف نبيّـه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجـة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أُتِىَ ببَدْر(١) فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا ؛ قال : فأُخْبِر بما فيها من البقول؛ فقال : "قرّبوها" — إلى بعض أصحابه كان معه — فلما رآه كره أكلها ، قال : " كُلْ فإنّى أُناجِى مَن لا تُناجِى " . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيّنٌ فى الخصوص له والإباحة لغيره . وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى أيوب أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبى أيوب ، فصنع للنبىّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثُوم ، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : لم يأكل . ففزِع وصعِد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "لا ولكنّى أكْرَهُه" . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعنى يأتيه الوحى) . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سـعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثّوم زمنَ خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لى تحـريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجـرة أكره ريحها" . فهـذه الأحاديث تُشـعر بأن الحكم خاصّ به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك . لكن قد علمنا هذا الحكم فى حديث جابر بمـا يقتضى التسوية بينه و بين غيره فى هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هـذه البقلةِ الثـومِ — وقال مرة : من أكل البصل والثـوم

(١) فى الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبى داود . يعنى بالبدر الطبق ؛ شبه بالبدر لاستدارته .

والكُرّاث — فلا يَقْرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم ” . وقال عمـر ابن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيه طُول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هـذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسـجد أمر به فأُخرِج إلى البَقيـع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ العدس معروف . والعَدَسَةُ : بَثْرةٌ تخرج بالإنسان ، وربمـا قتلت . وعَدَسْ : زَجْرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لِعبّادٍ عليـك إمارةٌ * نَجوْتِ وهـذا تحملين طَليق [(١)]

والعَـدْس : شـدّة الوطء ، والكَدْح أيضا ؛ يقال : عَدَسـه . وعَدَسَ فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَستْ إليه المنيّة أى سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكلّفها هَوْلَ الظـلامِ ولم أزَلْ * أخا الليـلِ مَعْدوسًا إلىّ وعادِسَا

أى يُسار إلىّ بالليل . وعَدَسْ : لغة فى حَدَس ؛ قاله الجوهرى . ويؤثَر عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم من حديث علىّ أنه قال : ” عليكم بالعـدس فإنه مبارَك مقـدّس وإنه يرِقّ القلب ويكثر الدّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم ” ؛ ذكره الثعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم [(٢)] ، ويوما بعدس . قال الحَليمىّ : والعـدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضـيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفّف البدن فيخِفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحِنْطة من جملة الحبوب وهى الفُوم على الصحيح ، والشـعير قريب منها وكان طعام أهل المدينـة ، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام ؛ فصار لكل واحد من الحبّتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبىّ صلى الله

(١) البيت ليزيد بن مفرغ .		(٢) فى بعض نسخ الأصل : « بملح » .

عليه وسلم لم يَشْبع هو وأهله من خُبْز بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ؛ ومنه البدل ، وقد تقدّم . و « أدْنَى » مأخوذ — عند الزجاج — من الدُّنُو أى القُرْب فى القيمة ؛ من قولهم : ثوبٌ مقارِب ؛ أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدُّون أى الأحط ؛ فأصله أَدْوَن ، أفعل ، قُلب فجاء أفْلَع ؛ وحُوّلت الواو ألفا لتطرّفها . وقُرئ فى الشّواذّ « أدنى »(١) . ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذى هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذى هو خير .

وٱختُلِف فى الوجوه التى توجب فضل المنّ والسَّلْوَى على الشيء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأوّل — أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ؛ قاله الزجاج .

الثانى — لمّا كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان فى ٱستدامة أمر الله وشكر نعمته أجرٌ وذُخْرٌ فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هذه الخصائل ، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثالث — لمّا كان ما منّ الله به عليهم أطيب وألذّ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابع — لمّا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفة فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجىء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لمّا كان ما ينزل عليهم لا مِرْية فى حِلّه وخُلوصه لنزوله من عند الله ، والحبوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبَه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

---

(١) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى كتب الشواذ : « أدنأ بالهمز » وهى قراءة زهير الفرقبى » .

مسئلة — فى هـذه الآية دليلٌ على جـواز أكل الطّيبات والمطاعم المستلذّات ، وكان النبىّ صلى الله عليه وسـلّم يحبّ الحَلْوى والعَسَـل ، ويشرب المـاء البارد العَذْب ، وسيأتى هذا المعنى فى « المـائدة »[1] و « النحل »[2] إن شاء الله مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا مِصْراً ﴾ تقدّم معنى الهبوط[3] ، وهذا أمر معناه التعجيز ، كقوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا » . لأنهم كانوا فى التِّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعطوا ما طلبوه . و « مِصْراً » بالتنوين منكَّراً قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صَرَفها أراد مِصراً من الأمصار غير معيَّن . وروى عكرمة عن ٱبن عباس فى قوله : « ٱهْبِطُوا مِصْراً » قال : مِصْراً من هـذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صَرَفهـا أيضا : أراد مِصْرَ فرعون بعينها . استدلّ الأوّلون بما ٱقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبمـا تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعـد التِّيه . وٱستدلّ الآخرون بمـا فى القـرآن من أن الله أَوْرث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائى : لخفّتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد ، وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضـل مِئزرها * دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ[4]

فجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هـذا ، لأنك لو سمّيت ٱمرأة بزيد لم تَصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصَرَف . وقرأ الحسن وأَبَان بن تَغْلِب وطلحة : « مِصْرَ » بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَىّ بن كعب وقراءة ٱبن مسعود . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ، ذكره ٱبن عطية . والمِصر أصله فى اللغة الحدّ . ومِصر الدّار : حدودها . قال ٱبن فارس ويقال : إن أهل هَجَر يكتبون فى شروطهم « ٱشترى فلان الدار بِمُصُورها » أى حدودها ، قال عَدِىّ :

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به * بين النهار و بين الليـل قد فَصَلاَ

---

(١) راجع ج ٦ ص ٢٦٣ .	(٢) راجع ج ١٠ ص ١٣٦ .	(٣) راجع ص ٣١٩ .

(٤) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود يحلب فيهـا اللبن و يشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الأعراب ولا تغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ «ما» نصب بإن . وقرأ ٱبن وَثّاب والنَّخَعِيّ «سِألتم» بكسر السين؛ يقال : سألت وسلت بغير همز . وهو من ذوات الواو، بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى أُلزِموهما وقُضِىَ عليهم بهما؛ مأخوذ من ضرب القباب؛ قال الفرزدق فى جَرير :

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجها * وقَضَى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد؛ أى حمل وألزم . والذِّلّة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودىّ و إن كان غَنِيًّا خاليًا من زِىّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجِزْية؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع ، وهى مأخوذة من السكون؛ أى قلّل الفقر حركته؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذِّلة الصَّغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضّحاك بن مُزاحم عن ٱبن عباس : « وضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمسكنةُ » قال : هم أصحاب القَبَالات[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا ﴾ أى ٱنقلبوا ورجعوا؛ أى لزمهم ذلك . ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : "أَبُوءُ بنعمتك علىّ" أى أُقِرّ بها وأُلزمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع؛ يقال باء بكذا، أى رجع به . وباء إلى المَبَاءة — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقَوَد . وهم فى هذا الأمر بَوَاء؛ أى سواء، يرجعون فيه إلى معنًى واحد . وقال الشاعر[2] :

ألَا تَنْتَهِى عنّا ملوكٌ وتَتّقِى * محارِمَنا لا يَبُوُّ الدّمُ بالدّمِ

أى لا يرجع الدّم بالدم فى القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا[3]

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة[4] .

---

(١) فى تفسير ٱبن كثير : « ...... القبالات يعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير التغلبى (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى، ولا شاهد فيه، إذ الرواية فيه : «فآبوا...وأبنا» ومادة «آب» غير مادة «باء» وإن كان معنى المادتين واحدا . (٤) راجع ص ١٤٩ .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ﴾ «ذلك» تعليل. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذبون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى بكتابه ومعجزات أنبيائه، كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على « يكفرون » . ورُوِىَ عن الحسن « يُقَتِّلُون » وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع « النَّبِيئِين » بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ »[1] . و « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا » فإنه قرأ بلا مدّ ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وتركَ الهمزَ فى جميع ذلك الباقون . فأمّا من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر، واسم فاعله مُنْبِئ . ويجمع نبىء أنبياء، وقد جاء فى جمع نبىّ نُبَآء، قال العباس بن مِرْدَاس السُّلَمِىّ يمدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنك مُرْسَـــلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُداكا

هذا معنى قراءة الهمز . واختلف القائلون بترك الهمز، فمنهم من اشتق اشتقاق من همز، ثم سهّل الهمز . ومنهـم من قال : هو مشتق من نَبَا يَنْبُـو إذا ظهر . فالنبىّ من النبوة وهو الارتفاع، فمنزلة النبىّ رفيعة . والنبىّ بترك الهمز أيضا الطريق ، فسُمِّىَ الرسول نَبِيًّا لاهتداء الخلق به كالطريق، قال الشاعر[2] :

لَأَصبح رَتْمًـا دُقاق الحَصَى * مكانَ النَّبِىّ من الكاثِبِ

رَتَمْت الشىء : كسرته ، يقال : رتم أنفه ورثمه، بالتاء والثاء جميعا . والرتم أيضا المرتوم أى المكسور . والكاثب اسم جبل . فالأنبياء لنا كالسُّبُل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يانبىء الله، وهمز . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لستُ بنبىء الله — وهمز — ولكنى نبىّ الله" ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضُعِّف سند هذا الحديث ، ومما يقوى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المادح : * ياخاتَمَ النُّبَآء ... * ولم يُؤْثَر فى ذلك إنكار .

---

(١) جـ ١٤ ص ٢١٠ وص ٢٢٣

(٢) هو أوس بن حجر (كما فى اللسان) .

قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ تعظيم للشُّنْعة والذّنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق ؛ فكان هذا تعظيما للشُّنْعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبيّ بحق ، ولكن يُقتل على الحق ؛ فصرّح قوله : « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » عن شُنعة الذنب ووُضوحه ؛ ولم يأت نبيّ قط بشىء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم ؛ كمثل من يُقتل فى سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بِخذلان لهم . قال ٱبن عباس والحسن : لم يُقتل نبيّ قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكلّ مَن أمر بقتال نُصر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ «ذلك» ردّ على الأوّل وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى « بما » باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . وٱعتصتِ النّواةُ إذا ٱشتدّت . والاعتداء : تجاوز الحدّ فى كل شىء ؛ وعُرِف فى الظلم والمعاصى .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال سُفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قرَنهم باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانيــة — قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هَادُوا) معناه صاروا يهودا ، نُسِبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام ؛ فقلبت العرب الذال دالا ؛ لأن الأعجمية إذا عُرّبت غُيّرت

عن لفظها . وقيل : سُمُّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب؛ قال الشاعر :

* إنى ٱمرؤ من حُبّه هائِدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إِنَّا هُـدْنَا إِلَيْكَ » أى تُبنا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيادة إذا تابوا . وقال ٱبن عرفة : « هُدْنَا إليك » أى سكنّا إلى أمرك . والهوادة السكون والموادعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبو السَّمّال : « هادَوْا » بفتح الدال .

الثالثة — قوله تعالى : (وَٱلنَّصَارَى) جمع ، واحده نَصْرانى . وقيل : نَصْرَان بإسقاط الياء ؛ وهذا قول سيبويه . والأنثى نصرانة ؛ كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام ؛ قال الشاعر[1] :

صدّتْ كما صدّ عمّا لا يَحِلّ له * ساقى نَصارَى قُبيل الفِصْحِ[2] صُوّامِ

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرِىّ ؛ كمَهْرِىّ ومهارَى . وأنشد سيبويه شاهدًا على قوله :

تـراه إذا دار العِشَا مُتَحَنِّفًا * ويُضْحى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجد رأسُها * كما أسجدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنَّفِ[3]

يقال : أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءى النسب ؛ لأنهم قالوا : رجل نصرانىّ وآمرأة نصرانية . ونَصّره : جعله نَصرانيًّا . وفى الحديث : "فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه" . وقال عليه السلام : "لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يَهُودىّ ولا نَصرانىّ"

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته . (٢) فى نسخ الأصل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصارى ، وهو عيد لهم . (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى ، يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار". وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها؛ وقياسه النصرانيون. ثم قيل: سُمُّوا بذلك لقرية تسمّى «ناصِرة» كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسِب إليها فقيل: عيسى الناصرى؛ فلما نُسب أصحابه إليه قيل النصارى؛ قاله آبن عباس وقتادة. وقال الجوهرى: ونصران قرية بالشام يُنسب إليها النصارى، ويقال ناصرة. وقيل: سُمُّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضا؛ قال الشاعر:

لما رأيتُ نَبَطًا أنصارَا * شَمَّرت عن ركبتَى الإزارا

* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل: سُمُّوا بذلك لقوله: «مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».

الرابعة — قوله تعالى: (وَالصَّابِئِينَ) جمع صابئ، وقيل: صابٍ؛ ولذلك آختلفوا فى همزه، وهمزه الجمهور إلا نافعا. فمن همزه جعله من صَبأت النّجوم إذا طلعت، وصَبَأتْ ثَنِيّةُ الغلامِ إذا خرجت. ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال. فالصابئ فى اللغة: من خرج ومال من دين إلى دين؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ. فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب.

الخامسة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكلُ طعامهم — على مايأتى بيانه فى المائدة[1] — وضَرْبُ الجزية عليهم؛ على مايأتى فى سورة «براءة»[2] إن شاء الله. وآختُلف فى الصابئين؛ فقال السُّدّى: هم فرقة من أهل الكتاب، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه. قال آبن المنذر وقال إسحاق: لابأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب. وقال أبو حنيفة: لابأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم. وقال الخليل: هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام. وقال مجاهد والحسن وآبن أبى نَجِيح: هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة، لا تؤكل ذبائحهم. آبن عباس: ولا تنكح نساؤهم. وقال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القِبلة ويقرءون الزّبور ويصلّون الخمس؛ رآهم زياد

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦. (٢) راجع جـ ٨ ص ١١٠.

آبن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصّل من مذهبهم — فيما ذكره بعض علمائنا — أنهم مُوَحّدون معتقِدون تأثير النجوم وأنها فعالة؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإِصْطَخْرِىّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿مَنْ آمَنَ﴾ أى صدّق . و « مَن » فى قوله : « مَنْ آمَنَ » فى موضع نصب بدل من « الذين » . والفاء فى قوله « فَلَهُمْ » داخلة بسبب الإبهام الذى فى « مَن » . و « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » آبتـداء وخبر فى موضع خبر إنّ . ويحسن أن يكون «من» فى موضع رفع بالآبتداء، ومعناها الشرط . و « آمن » فى موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب . و « لهم أجرهم » خبر « من »، والجملة كلها خبر « إنّ »؛ والعائد على « الذين » محذوف؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمـان بالله واليوم الآخر آندارج الإيمـان بالرسل والكتب والبعث .

السابعــة — إن قال قائل : لِمَ جُمِـع الضمير فى قوله تعالى : «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» و « آمن » لفظ مفرد ليس بجمع، و إنمـا كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أنّ « مَن » يقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يرجع الضمير مفرداً ومثنًّى ومجموعاً؛ قال الله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» على المعنى. وقال: « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ. وقال الشاعر:

أَلِمَّا بسَلْمَى عنكما إنْ عَرَضْتُمَا * وقُولَا لهـا عُوجِى على مَن تَخَلَّفُوا

وقال الفرزدق :

تعـالَ فإنْ عاهـدتَنى لا تخـونُنى * نكن مثـلَ مَن ياذئبُ يصطحبانِ

فحمل على المعنى، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب، وتخلّف . وقال تعـالى : « وَمَنْ يُطِـعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » فحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِينَ » فحمل على المعنى؛ ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيهـا . و إذا جرى ما بعد « مَن » على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هـذه الآية . و إذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعـدُ على اللفظ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقـد مضى الكلام فى قوله تعـالى : ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] . والحمد لله .

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء .

الثامنـة — رُوِىَ عن ابن عباس أن قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا » الآية . منسوخ بقوله تعالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبيّ عليه السلام .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ هذه الآية تفسّر معنى قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ[1] » . قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فآستخرجناه من مكانه . قال : وكل شىء قلعته فرميتَ به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال آبن الأعرابىّ : الناتقُ الرافعُ، والناتقُ الباسطُ، والناتقُ الفاتقُ . وآمرأة ناتق ومنتاق : كثيرة الولد . وقال القُتَبِىّ : أُخذ ذلك مِن نَتْق السِّقَاء، وهو نفضه حتى تقتلع الزُّبْدة منـه . قال وقوله : « وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » قال : قُلِع من أصله .

وآختلف فى الطور؛ فقيل : الطور آسم للجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره؛ رواه آبن جريج عن آبن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنْبَتَ من الجبال خاصة دون ما لم ينبت . وقال مجاهـد وقتاده : أى جبل كان . إلا أن مجاهدا قال : هو آسم لكل جبل بالسريانية؛ وقاله أبو العاليـة . وقد مضى الكلام هل وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معرّبة من غير كلام العرب فى مقدمة الكتاب[2] . والحمد لله . وزعم البكرى أنه سُمِّىَ بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بنى إسرائيل من عنـد الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك . فصعِقوا ثم أُحيُوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فآقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٣ (٢) راجع ص ٦٨ من هذا الجزء .

فرسخ فى مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأُتوا ببحر من خَلْفهم ، ونار من قِبَـل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها ، وإلا سـقط عليكم الجبـل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التـوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا ؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بهـا عباده ، فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد . قال ٱبن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعـالى ٱخترع وقت سجودهم الإيمـان [فى قلوبهم](١) لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوا ﴾ أى فقلنا خذوا ؛ فحذف . ﴿ مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِـد وٱجتهاد ؛ قاله ٱبن عباس وقتادة والسدّى . وقيل : بنيّـة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بمـا فيه . وقيل : بقـوّة ، بكثرة درس . ﴿ وَٱذْكُرُوا مَا فِيـهِ ﴾ أى تدبّروه وٱحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لهـا ؛ على ما قاله الشعبي وٱبن عُيَيْنة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ »(٢) . وقد روى النسائى عن أبى سعيد الخُدْرِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ من شرّ الناس رجلًا فاسقًا يقرأ القرآن لا يَرْعَوِى إلى شىء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يَقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه . فمـا لزم إذًا مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنـا وواجبٌ علينا . قال الله تعالى : « وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ »(٣) . فأُمِرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهـود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئا ؛ لغلبـة الجهل وطلب الرياسـة وٱتباع الأهواء . روى الترمذى عن جُبَيْر بن نُفَـيْر عن أبى الدّرداء قال : كنا مع النبى صلى الله عليـه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : " هـذا أوانٌ

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤١ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٠

يُختلس فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدِروا منه على شىء ". فقال زياد بن لَبِيد الأنصارىّ : كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن! فوالله لنَقْرأنه ولنُقرِئنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : " ثَكِلَتْك أمُّك يا زياد أن كنتُ لأَعُدّك من فقهاء المدينة هـذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فمـاذا تُغنى عنهم " وذكر الحديث ، وسيأتى . وخرّجه النسائى من حديث جُبير بن نُفير أيضا عن عَوف بن مالك الأشجعىّ من طريق صحيحة ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد : " ثَكِلَتْك أُمُّـك يا زياد هـذه التوراة والإنجيل عند اليهـود والنصارى " . وفى المُوَطّأ عن عبدالله بن مسعود قال لإنسان : « إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرّاؤه ، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضَيّع حروفه ، قليلٍ مَن يسأل ، كثيرٍ مَن يُعطِى ، يطيلون الصلاة ويُقْصِرون فيـه الخطبـة ، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتى على النـاس زمان قليلٌ فقهاؤه ، كثيرٌ قرّاؤه ، تُحفظ فيه حروف القرآن ، وتُضيّع حدوده ، كثيرٌ من يسأل ، قليلٌ من يعطى ، يطيلون فيه الخطبة ، ويقصِرون الصلاة ، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم » . وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقـد قال يحيي : سألت ٱبن نافع عن قوله : يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم ؟ قال يقول : يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذى ٱفترض عليهم . وتقـدّم القول فى معنى قوله : « لعلكم تتقون »[1] . فلا معنى لإعادته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ تولّى تفعّل ، وأصله الإعراض والإدبار عن الشىء بالجسم ؛ ثم ٱستعمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقـدات إتساعا ومجازا . وقـوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى من بعـد البرهان ، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقـوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ « فضلُ » مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ؛ لأن العرب ٱستغنت عن إظهاره ، إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ ، فإذا جاءوا بهـا لم يحذفوا الخبر . والتقدير فلولا فضل الله تداركُكم . ﴿ وَرَحْمَتُـهُ ﴾ عطف على « فضل » أى

(١) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

لطفـه و إمهاله . ﴿ لَكُنتُمْ ﴾ جواب «لولا» . ﴿ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان، وقد تقدّم[(١)] . وقيل : فضله قبول التوبة، و « رحمته » العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعل ما لم يجب . قال ٱبن فارس فى المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير، والإفضال : الإحسان .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَـدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَـا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ « علمتم » معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمَّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمَّى . فإذا قلت : عرفت زيدا، فالمراد شخصه . و إذا قلت : علمت زيدا ؛ فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد، وهو قول سيبويه : « علمتم » بمعنى عرفتم . وعلى الثانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقـد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : « لَا تَعْلَمُونَهُـمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . كل هـذا بمعنى المعرفة ؛ فٱعلم . « ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ » صلة « الذين » . والاعتداء . التجاوز، وقد تقدّم[(٢)] .

الثانيــة — روى النَّسائى عن صفوان بن عسّال قال : قال يهودىّ لصاحبه : اذهب بنا إلى هـذا النبىّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبىّ لو سمعك ! فإن له أربعة أعين[(٣)] . فأتيا رسول الله صلى الله عليـه وسلم وسألاه عن تسع آيات بينات ؛ فقال لهم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتـلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحـق ولا تمشُوا ببرىء إلى سلطان ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزّحف وعليكم خاصّةً يهودُ ألّا تعـدوا فى السّبت" . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبىّ . قال : "فما

---

(١) راجع ص ٢٤٨　　(٢) راجع ص ٤٣٢　　(٣) الذى فى نسخة النسائى : « لو سمعك كان له أربعة أعين » مع تأنيث العدد أيضا .

يمنعكم أن تتبعونى " ! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذُرِّيته نبىّ ، وإنا نخاف إن آتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان » [1] إن شاء الله تعالى .

الثالثة — ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت . والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحِيتان على جهة الآستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم آبن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقَة [2] وألقاها فى ذَنَب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد ؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنَع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِىَ به فى الأسواق ، وأعلن الفَسَقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهى وآعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم نَنْهَكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قِردة ، والشيوخ خنازير ؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . وسيأتى فى « الأعراف » [3] قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلقتها . وقيل : هو مأخوذ من السُّبُوت الذى هو الراحة والدعة .

وآختلف العلماء فى الممسوخ هل يَنْسِل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم . وآختاره القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا يَنْسُل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ (٢) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفيه أنشوطة تطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة عند جذبها . راجع جـ ٧ ص ٣٠٦

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠٧

ولم يبق لهم نسل ؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال آبن عباس : لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال آبن عطية : وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما آحتج به آبن العربى وغيره على صحة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفار ألَا ترونها إذا وُضِع لهــا ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لها ألبانُ الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر ؛ قال جابر : أُتِىَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضبّ فأبى أن يأكل منه ؛ وقال : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسِخَتْ" فمتأول على ما يأتى . قال آبن العربى : وفى البخارى عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردة قد زَنَت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارى وسقط فى بعضها ، وثبت فى نص الحديث « قد زنت » وسقط هــذا اللفظ عند بعضهم . قال آبن العربى : فإن قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفاً عن سَلف إلى زمان عمرو؟ قلنــا : نعم كذلك كان ؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه فى مُسُوخهم[1] حتى يكون أبلغ فى الحجــة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبــارهم ومسوخهم[1] ، حتى يعلموا أن الله يعــلم ما يُسِرّون وما يُعلنــون ، ويُحصى ما يُبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّــه عليه السلام وهم لا يُنصرون .

قلت : هــذا كلامه فى الأحكام ، ولا حجة فى شىء منه . وأمّا ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمــرو بن ميمون الأَوْدىّ فى الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال : رأيت فى الجاهلية قردة آجتمع عليها قردة

(١) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسـعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارىّ من كتابه ؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها ؛ فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمىّ عن الفَرَبْرِىّ أصلاً شىء من هذا الخبر فى القِردة ؛ ولعلها من المُقْحَمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارىّ فى التاريخ الكبير : قال لى نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن مَيمون قال : رأيت فى الجاهليـة قِردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم. وليس فيه «قد زنت». فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارىّ دلالةً على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذى ظنّه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الاستيعاب عمرَو بن ميمون وأن كنيته أبو عبـد الله « معدود فى كبار التابعين من الكوفيين ، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك ؛ لأنّ رواته مجهولون . وقد ذكره البخارىّ عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدِىّ مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان ؛ وليسا ممن يُحتجّ بهما . وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلَّف ، وإقامة الحدود فى البهـائم . ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما » . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : "ولا أراها إلا الفار" وفى الضب : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسِخت" وما كان مثله ، فإنمـا كان ظناً وخوفاً لأن يكون الضب والفأر وغيرهما ممـا مُسخ ، وكان هذا حَدْساً منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلاً ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنـه ذلك التخوّف ، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا ممـا مُسِخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير : هى ممـا مسخ ؟ فقال : "إنّ الله لم يُهلِكْ قوماً أو يعذّب قوماً فيجعل لهم نسلاً وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك". وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر ؛

فدلّ على صحة ما ذكرنا . وبالله توفيقنا . ورُوِىَ عن مجاهد فى تفسير هذه الآية أنه إنما مُسِخَتْ قلوبُهم فقط ، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة . ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ « قردة » خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت ، وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان ، أو حالا من الضمير فى « كونوا » . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأْته خَسْأً وخَسِئ وٱنخسأ ؛ أى أبعدته فبَعُدَ . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا »(١) أى مبعَدًا . وقوله : « ٱخْسَئُوا فِيهَا »(٢) أى تباعدوا تباعد سخط . قال الكسائى : خَسَأَ الرجل خُسُوءا ، وخَسَأْته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القَمِىء . يقال : قَمُؤَ الرجل قَماء وقماءة صار قميئًا ، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قمىء على فعيل .

قوله تعالى : فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمّة التى مُسِخت . وقيل : الحيتان ؛ وفيه بُعْدٌ . والنّكال : الزجر والعقاب . والنِّكْل والأنكال : القيود . وسُمّيت القيود أنكالا لأنها يُنْكَل بها ؛ أى يمنع . ويقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكْل(٣) ؛ لأن الدابة تُمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل يَنْكَل إذا ٱمتنع . والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنَكِّل مَن وراءهم ؛ أى تُجبّنهم . وقال الأزهرى : النكال العقوبة . ٱبن دُرَيْد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنَكِّل بالإنسان ؛ قال(٤) :

* فٱرمِ على أقفائهم بمَنْكَل *

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٩ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٣) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنما هو بالكسر لا غير . (٤) القائل رياح المؤملى . وقبله :

* يارب أشقانى بنو مؤمل *   وبعده :   * بصخرة أو عرض جيش جحفل *

(عن شرح القاموس) .

قوله : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ قال ابن عباس والسُّدّى : لِمَا بين يدى المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿ وَمَا خلفها ﴾ لمن يعمل بعدها مثـل تلك الذنوب . قال الفـرّاء : جُعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ، ولما يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيّد ، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . واختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى ، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : « لما بين يديها وما خلفها » من القُرَى . وقال قتادة : « لما بين يديها » من ذنوبهم ، « وما خلفها » من صيد الحيتان .

قوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عطف على نكال ، ووزنهـا مَفْعِـلة من الاتعاظ والانزجار . والوعظ : التخويف . والعِظَة الاسم . قال الخليل : الوَعْظ التذكير بالخير فيما يرِقّ له القلب . قال الماوَرْدِىّ : وخصّ المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفردهم بها عن الكافرين المعاندين . قال ابن عطية : واللفظ يعمّ كل مُتّقٍ من كل أمّة . وقال الزجاج : « وموعظة للمتقين » لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جلّ وعزّ ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حُرَم الله فى سبتهم .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ حُكى عن أبى عمـرو أنه قرأ « يَأْمُرْكُمْ » بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هـذا لأن الراء حرف الإعراب ، وإنما الصحيح عن أبى عمـرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿ أَنْ تَذْبَحُوا ﴾ فى موضع نصب بـ « يأمركم » ؛ أى بأن تذبحوا . ﴿ بَقَـرَةً ﴾ نصب بـ « تذبحوا » . وقـد تقدّم معنى الذبح[1] ، فلا معنى لإعادته .

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدّم فى التلاوة ، وقوله : « قَتَلْتُمْ نَفْسًا » مقدّم فى المعنى على جميع ما آبتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : « قتلتم » فى النزول مقدما ، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأُمروا أن يضربوه ببعضها ؛ ويكون « وإذ قتلتم » مقدما فى المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطُّوفان وآنقضائه فى قوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ — إلى قوله — إِلَّا قَلِيلٌ »[(١)] . فذكر إهلاك مَن هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . فذكر الركوب متأخرا فى الخطاب ، ومعلومٌ أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا »[(٢)] . وتقديره : أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثالثــة — لاخلاف بين العلماء أن الذّبح أَوْلى فى الغنم ، والنحر أَوْلى فى الإبل ، والتخيّر فى البقر . وقيل : الذبح أَوْلى ؛ لأنه الذى ذكره الله ، ولقُرب المنحَر من المذبح . قال آبن المنذر : لا أعلم أحدا حرّم أكل ما نُحر مما يُذبح ، أو ذُبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك . وقد يكره المرء الشئ ولا يحرّمه . وسيأتى فى سورة « المائدة » أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ » مستوفًى[(٣)] إن شاء الله تعالى . قال الماوردى : وإنما أمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها ؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عندهم ما كان يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علّة فى ذبح البقرة ، وليس بعلة فى جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حىّ ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعــة — قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ البقرة آسم للأنثى ، والثّور آسم للذكر ؛ مثل ناقة وجمل ، وآمرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ؛ الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦ (٣) راجع جـ ٦ ص ٥٤

بَقَر بطنه ، أى شقه ؛ فالبقرة تشقّ الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين ؛ لأنه بَقَر العلم وعرف أصله ، أى شقّه . والبَقيرة : ثوب يُشقّ فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كُمَّين . وفى حديث آبن عبـاس فى شأن الهُـدهد "فبقر الأرض" . قال شَمِر : بَقَر نَظَر موضع المـاء ، فرأى المـاء تحت الأرض . قال الأزهرىّ : البقر آسم للجنس وجمعه باقر . آبن عرفة : يقال بقير وباقر وبَيْقور . وقرأ عكرمة وآبن يَعمر « إن الباقر »(١) . والثَّور : واحد الثيران . والثّور : السيّد من الرجال . والثّور القطعة من الأقِط . والثّور : الطُّحْلُب . وثَوْر : جبل . وثَوْر : قبيلة من العرب . وفى الحديث : "ووقت العشاء ما لم يغب ثَور الشّـفق" يعنى آنتشاره ؛ يقـال : ثار يثـور ثوراً وثورانا إذا آنتشر فى الأفق . وفى الحديث : "من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر القرآن" . قال شَمِر : تثـوير القرآن قراءته ومفاتشة العلمـاء به .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لمـا قال لهم : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » وذلك أنهـم وجدوا قتيلا بين أظهرهم — قيل : آسمـه عاميل — وآشـتبه أمر قاتله عليهم ، ووقع بينهم خلاف ؛ فقالوا : نقتتل ورسـول الله بين أظهرنا ؛ فأتَوْه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القَسامة(٢) فى التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة ؛ فلما سمـعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عمـا سألوه عنه وآحتكموا فيه عنده ؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا ؟ والهـزء : اللّعب والسُّخرية ؛ وقد تقدّم(٣) . وقرأ الجَحْدَرى « أيتخذنا » بالياء ؛ أى قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : « أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل ؛ فاسـتعاذ منه عليه السلام ؛ لأنهـا صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل نقيض العلم . فآسـتعاذ من الجهل ، كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزؤا ؛

(١) فى لسان العرب : فأما بقر و باقر و بقير و بيقور و باقور و باقورة فأسماء للجميع .

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : «فقلنا اضربوه ببعضها» راجع ص ٤٥٧ من هذا الجزء . (٣) راجع ص ٢٠٧ .

لمن يخبرهم عن الله تعـالى ، وظاهر هـذا القول يدلّ على فساد آعتقاد مَن قاله . ولا يصح إيمان مَن قال لنبيٍّ قد ظهرت معجزته ، — وقال : إن الله يأمرك بكذا — : أتتخذنا هُزُؤا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهـة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل، وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعلها حَفْص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولكن » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤًا ، كما قرأ أهـل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل آسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعُل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُـل ورُسْل ، وعُوُن وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه(1) إن شاء الله تعـالى .

مســئلة — فى الآية دليل على منع الآستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبـه مستحقّ للوعيد . وليس المُزاح من الآستهزاء بسبيل ؛ ألَا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمـة بعده . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمازحه عبيد الله فقال : جُبّتُك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيها القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلًا ! فتلا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله ؛ لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الآستهزاء، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

---

(1) راجع جـ ١٦ ص ٦٩

قوله تعالى : قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨)

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو امتثلوا الأمر وذبحوا أىّ بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله ابن عباس وأبو العاليـة وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ولغـة بنى عامر « ادعِ » وقد تقدّم (١) . و﴿ يُبَيِّنْ ﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿ مَا هِيَ ﴾ ابتداء وخبر . وماهيّة الشىء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل ؛ لأنه لما أمر ببقرة اقتضى أىّ بقرة كانت ، فلما زاد فى الصفة نسـخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض ، ثم نَسَخه بابنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لما عيّن الصفة صار ذلك نسخًا للحكم المتقدّم . والفارض : المُسِنّة . وقد فَرَضت تَفرِض فروضًا ؛ أى أسنّت . ويقال للشىء القديم فارض ؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغى فرأسى أبيضُ * مَحامِـلٌ (٢) فيها رجال فُــرُضُ

يعنى هَرْمَى ؛ قال آخر :

لَعَمْرُك (٣) قـد أعطيتَ جارك فارضًا * تُساق إليـه ما تقـوم على رِجْلِ

أى قديما ؛ وقال آخر :

يا رُبَّ ذى ضِغْنٍ علىّ فارِضِ * له قُـروء كقُروء الحـائضِ

(١) راجع ص ٤٢٣ (٢) فى الصحاح للجوهرى : « محافل » بالفاء ، وفيـه رواية أخرى رواها ابن الأعرابى هى : * محامل بيض وقـوم فرض *
يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة « فرض » .
(٣) رواية اللسان : « لعمرى لقد » وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عنَى بَقَرة هَرِمَة .

أى قديم . و «لا فارِضٌ» رفع على الصّفة لبقرة . «ولَا بِكْرٌ» عطف . وقيل : «لا فارِضٌ» خبر مبتـدأ مضمر ؛ أى لا هى فارض وكذا «لا ذلول» ، وكذلك «لَا تَسْقِى الْحَرْثَ» وكذلك «مُسَلَّمَةٌ» فاعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتّسع جَوْفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القُتَبِىّ أنها التى ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِـدْ * أصبحتَ مِنّى كذراعٍ مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضـا فى إناث البهائم وبنى آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل؛ وهى مكسورة الباء . وبفتحها الفَتِىّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التى قد ولدت بطنـاً أو بطنين ؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْتٌ بَهِيمُ اللّوْنِ ليس بفارِضٍ * ولا بِعَـوانٍ ذاتِ لَوْنٍ مُخَصَّفِ

فرس أَخْصَف : إذا ٱرتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهـد : العَوَان من البقر هى التى قد ولدت مَرّة بعد مَرّة . وحكاه أهل اللغـة . ويقال : إن العَوَان النّخلةُ الطويلة ؛ وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحَرْبٌ عَوَانٌ : إذا كان قبلها حَرْب بِكْرٌ؛ قال زُهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عوانٌ مُضِرّةٌ * ضَروسٌ تُهِرُّ(١) النّاسَ أنيابُها عُصْلُ

أى لا هى صغيرة ولا هى مُسِنّة؛ أى هى عَوان، وجمعها «عُوْنٌ» بضم العين وسكون الواو ؛ وسُمع «عُوُن» بضم الواو كرُسُل . وقد تقدم . وحكى الفَرّاء من العوان عَوّنت تعْوِيناً .

قوله تعـالى : ﴿ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجـديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فمـا تركوه . وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور فى أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفَوْر؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدلّ على صحـة ذلك أنه تعـالى ٱستقصرهم حين لم يبادروا إلى فعـل ما أُمِروا به فقال :

(١) فى الأصول : «تهز» بالزاى . والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى «تهر الناس» أى تصيّرهم يهرّونها ؛ أى يكرهونها . ولقحت : ٱشتدت . ومضرة : ملحة . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة مِعْوجة .

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيل : لا ، بل على التراخى؛ لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ٱبن خُوَيْزِ مَنْداد .

قوله تعالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ « ما » ٱستفهام مبتدأة ، و « لونها » الخبر . ويجوز نصب « لونها » بـ « يبيّن » ، وتكون « ما » زائدة . واللون واحد الألوان ، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة . واللّوْن : النّوع . وفلان مُتَلَوِّن : إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ؛ قال :

كلّ يوم تتلوّنْ * غير هذا بك أجْمَلْ

ولوّن البُسْرُ تلوينًا : إذا بدا فيه أثر النُّضْج . واللّوْن : الدَّقَل ، وهو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة ، واحدها لِينة .

قوله : ﴿صَفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون ، من الصُّفرة المعروفة . قال مكيّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وٱبن جُبير : كانت صفراء القرن والظِّلْف فقط . وعن الحسن أيضا : « صفراء » معناه سوداء؛ قال الشاعر[1] :

تلك خَيْلِي منه وتلك رِكَابِي * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبِيبِ

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر ، وهذا شاذّ لا يُستعمل مجازا إلا فى الإبل ؛ قال الله تعالى : « كأنّه جِمَالَةٌ صُفْرٌ » وذلك أن السُّود من الإبل سوادها صُفرة . ولو أراد السواد لما أكّده بالفُقوع ، وذلك نَعْتٌ مختصّ بالصّفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ؛ تقول العرب : أسودُ حالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك ، ودَجُوجِىّ وغِرْبيب ، وأحمرُ قانِئ ، وأبيضُ ناصعٌ ، ولَهِقٌ ولِهَاق ويَقِق ، وأخضرُ ناضرٌ ، وأصفرُ فاقِعٌ ؛ هكذا نصّ نَقَلة اللغة عن العرب . قال

(١) القائل هو الأعشى ؛ كما فى اللسان .

الكسائى : يقال فَقَع لَوْنُهَا يَفْقَع فُقوعاً إذا خَلَصت صُـفْرته . والإفقاع : سـوء الحال . وفواقع الدهر بوائقه . وفَقّع بأصابعه إذا صوّت ؛ ومنه حديث ابن عباس : نهى عن التفقيع فى الصلاة ؛ وهى الفرقعة، وهى غمز الأصابع حتى تُنْقِض[1] . ولم ينصرف «صفراء» فى معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيها ألف التأنيث وهى ملازمة نخالفت الهـاء ؛ لأن ما فيه الهـاء ينصرف فى النكرة، كفاطمةٍ وعائشةٍ .

قوله تعالى : ﴿ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا ﴾ يريد خالصًا لونها لا لَوْن فيها سوى لون جلدها . ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ قال وهب : كأن شُـعاع الشمس يخرج من جلدها ؛ ولهـذا قال ابن عبـاس : الصـفرة تسرّ النفس . وحضّ على لبـاس النِّعال الصُّفر ؛ حكاه عنـه النقاش . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : من لبس نعلى جلد أصفرَ قلّ همّه ؛ لأن الله تعـالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبى . ونَهى ابن الزبير ومحمد بن أبى كثير عن لباس النعال السود ؛ لأنها تُهِمّ . ومعنى « تسرّ » تُعجب . وقال أبو العالية : معناه فى سَمْتها ومنظرها فهى ذاتُ وصفين، والله أعلم .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمع ، ولذلك قال : « إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » فذكّره للفظ تذكير البقر . قال قُطْرب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصمعى : الباقر جمع باقرة، قال : ويجمع بقر على باقورة ؛ حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس، والأعرج فيما ذكر الثعلبى « إن البقر تَشّابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء فى الشين . وقرأ مجاهد «تَشَّبَه» كقراءتهما ؛

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو نقيض .

إلا أنه بغير ألف. وفى مصحف أُبَىّ «تَشّابهت» بتشديد الشين. قال أبو حاتم: وهو غلط؛ لأن التـاء فى هذا الباب لا تُدغم إلا فى المضارعة. وقرأ يحيى بن يَعمر «إن الباقر يشابه» جعله فعلا مستقبلا، وذكّر البقر وأدغم. ويجوز «إن البقر تَشَابَهُ» بتخفيف الشين وضم الهاء؛ وحكاها الثّعلبى عن الحسن. النحاس: ولا يجوز «يَشَابه» بتخفيف الشين والياء، وإنما جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التائين. والبقر والباقر والبَيْقور والبَقير لغاتٌ بمعنًى، والعرب تذكّره وتؤنّثه، وإلى ذلك ترجع معانى القراءات فى «تشابه». وقيل: إنما قالوا: «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا» لأن وجوه البقر تتشابه؛ ومنه حديث حُذيفة بن اليمان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر "فِتَنًا كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر". يريد أنها يشبه بعضها بعضا. ووجوه البقر تتشابه، ولذلك قالت بنو إسرائيل: إن البقر تشابه علينا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ استثناء منهم؛ وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابةٌ ما وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر. وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو ما استثنوا ما اهتدوا[(1)] إليها أبدا". وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله. فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماما به. و«شاء» فى موضع جزم بالشرط، وجوابه عند سيبويه الجملة «إن» وما عملت فيه. وعند أبى العباس المبرّد محذوف.

قوله تعالى: قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ قرأ الجمهور «لا ذلولٌ» بالرفع على الصفة لبقرة. قال الأخفش: «لا ذلول» نعته ولا يجوز نصبه. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمى «لا ذلولَ» بالنصب على النفى والخبر مضمر. ويجوز لا هى ذلول، لا هى تسقى الحرث، هى مُسَلّمة. ومعنى «لا ذلول» لم يذلّلها العمل؛ يقال: بقرة مذلَّلة بيّنة الذِّل (بكسر الذال). ورجل ذليل بيّن الذُّلّ (بضم الذال). أى هى بقرة صعبة غير رَيّضة لم تذلَّل بالعمل.

---

(1) فى نسخة من الأصل: «لولا» وروى الحديث من طرق بلفظ: «لو لم يستثنوا».

قوله تعالى : ﴿ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ « تُثير » فى موضـع رفع على الصفة للبقرة ؛ أى هى بقرة لا ذَلُولٌ مُثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وَحْشِيّة ، ولهـذا وصفها الله تعـالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، أى لا يُسْنَى بهـا لَسَقْى الزرع ولا يُسقى عليهـا . والوقف هاهنا حسـن . وقال قوم : « تثير » فعـل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لهـا ، وأنها كانت تحـرث ولا تسق . والوقف على هـذا التأويل « لا ذلول » . والقول الأول أصح لوجهين : أحدهما — ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون « تثير » مسـتأنفا ؛ لأن بعـده « ولا تسقى الحرث » ، فلوكان مستأنفًا لمـا جمع بين الواو و « لا » . الثـانى — أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّلتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون « تثير الْأَرْضَ » فى غير العمل مرحًا ونشاطًا ؛ كما قال آمرؤ القيس :

يُهِيل ويُذرِى تُرْبَه ويُثيره * إثارة نَبّاث(١) الهواجرِ مُخْمِسِ

فعلى هذا يكون « تثير » مستأنفا ، « ولا تسقى » معطوف عليه ؛ فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها ؛ ومنه الحديث : "أثيروا القرآن فإنه(٢) علم الأولين والآخرين" وفى رواية أخرى : "من أراد العـلم فَلْيُثَوِّر القرآن" وقد تقدّم(٣) . وفى التنزيل : « وأثاروا الأرض » أى قلَبوها للزراعة . والحرث : ما حُرِث وزُرِع . وسيأتى .

مســئلة — فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها جاز السَّـلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ والّليث والشافعىّ . وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعـالى البقرة فى كتابه وصفًا يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها" . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصّفةَ تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسـلم دِيَة الخطأ فى ذِمّة من أوجبها عليه دَيْنًا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(١) قوله « نباث الهواجر » يعنى الرجل الذى إذا اشـتدّ عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خمسا . (٢) فى نهاية ابن الأثير : « فإن فيه » . (٣) راجع ص ٤٤٦ .

الكوفيين أبى حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم فى الحيوان .
ورُوِىَ عن آبن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُـرة ؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة
صفته من مشى وحركة ، وكل ذلك يزيد فى ثمنه ويرفع من قيمته . وسيأتى حكم السَّلَم وشروطه
فى آخر السورة فى آية الدَّيْن[1] ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى هى مُسَلَّمة . ويجـوز أن يكون وصفًا ؛ أى أنها بقرة مُسَلَّمة
من العَرَج وسـائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مُسَلَّمة من العمـل لنفى الله
العمل عنها . وقال الحسن : يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعـالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى ليس فيها لَوْن يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلها
لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فَاقِـعٌ لَوْنُهَا » . وأصل « شِيَة » وَشْى ، حُذفت
الواو كما حذفت من يشى ، والأصل يوشى ؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة . والشِّـيَة مأخوذة
من وَشْى الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين . وثور مُوَشًّى : فى وجهه وقوائمه سـواد . قال
آبن عرفة : الشِّيَة اللّون . ولا يقال لمن نمّ : واشٍ ، حتى يُغَيِّر الكلام ويُلَوِّنه فيجعله ضروبا
ويزيّن منه ماشاء . والوَشْىُ : الكثرة . ووَشَى بنـو فلان : كثروا . ويقال : فَرَسٌ أبلقُ ،
وكَبْش أَخْرَجُ ، وتَيس أَبْرَقُ ، وغرابٌ أَبْقَعُ ، وثور أَشْـيَهُ . كل ذلك بمعنى البُلْقَـة ؛ هكذا
نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودِين الله يُسْرٌ ، والتعمّق
فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية . وروى فى قصص هذه البقرة
روايات تلخيصها : أن رجلا من بنى إسرائيل وُلد له آبن ، وكانت له عجلة فأرسلها فى غَيْضَة
وقال : اللّهُمّ إنى أستودعك هذه العجلة لهذا الصبى . ومات الرجل ، فلما كبر الصبى قالت له
أمّه — وكان بَرًّا بها — : إن أباك آستودع الله عجلة لك فآذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة
جاءت إليـه حتى أخذ بقرنيهـا — وكانت مسـتوحشة — فجعل يقودها نحو أمّه ؛ فلقيـه
بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التى أُمِروا بها ؛ فساموه فاشتطّ عليهم . وكان قيمتها على

(١) راجع ج ٣ ص ٣٧٧ فما بعدها .

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا آشتطّ علينا ؛ فقال لهم : أرْضُوه فى ملكه ، فاشتروْها منه بوزنها مَرّة ؛ قاله عَبيدة . السُّدِّىّ : بوزنها عشر مرات . وقيل : بملء مَسْكها دنانير . وذكر مَكّىّ : أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بيّنت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : « قالوا ألْآن » قطع ألفَ الوصل ؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجهاً آخر « قالوا لَانَ » بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبى عمرو « عاداً لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الْآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالُ لَان » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لآلتقاء الساكنين . قال الزجاج : « الْآن » مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللام ؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت . فبُنيت كما بُنِىَ هذا ، وفُتحت النون لآلتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه : كاد أن يفعل ؛ تشبيهاً بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة (١) . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفاً من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه .

قوله تعالى : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة، التقدير : وإذ قتلتم نفساً فآدّارأتم فيها . فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » أى أنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّماً وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ؛ ومثله كثير ، وقد بيّناه أوّل القصة .

(١) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء .

وفى سبب قتله قولان : أحدهما — لأبنة له حسناء أحب أن يتزوجها آبنُ عمّها فمنعه عَمُّه ؛ فقتله وحمله من قريتـه إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيـل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ، فإنه كان فقيرا وآدّعى قتله على بعض الأسباط . قال عِكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له آثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ، فوجدوا قتيلا فى سِبط من الأسباط ، فادّعى هؤلاء على هؤلاء ، وآدّعى هؤلاء على هؤلاء ، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : « إنّ اللهَ يأمُرُكُم أنْ تذبَحُوا بقرةً » الآية . ومعنى « ادّارأْتُمْ » : آختلفتم وتنازعتم ؛ قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ؛ ولا يجوز الآبتداء بالمدغم ؛ لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ﴾ ابتداء وخبر . ﴿مَا كُنْتُم﴾ فى موضع نصب بـ «مُخْرِج » ؛ ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ جملة فى موضـع خبر كان ، والعائد محذوف ؛ التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمـدٍ من حينئذ ؛ قاله عَبِيدة السَّلْمانِىّ . قال آبن عباس : قَتل هـذا الرجلُ عمَّه ليرثه . قال آبن عطية : وبمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى « مُوَطَّئه » أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلَاح فى عَمّه هى كانت سبب ألا يرِث قاتلٌ ؛ ثم ثبّت ذلك الإسلام كما ثبّت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدِّية ولا من المـال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويَرِث قاتل الخطأ من المـال ولا يرث من الدّية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعى ؛ لأنه لا يُتّهم على أنه قتـله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سـفيان الثَّوْرِىّ وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى فى قول له آخر : لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً من المـال ولا من الدِّية . وهو قول شُريح وطاوس والشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ . ورواه الشَّعْبِىّ عن عمر وعلىّ وزيد قالوا : لا يرِث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يَرِث قاتل الخطأ من الدّية ومن المـال جميعا ؛ حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح ، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث[1] إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٥ فما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٣)

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيـل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيـل : بعَجْب الذَّنَب، إذ فيه يُركّب خَلْق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها؛ والمقطوع به عضو من أعضائها؛ فلما ضُرِب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مســـئلة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقَسَامة بقول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلانٌ قتلنى . ومنعه الشافعى وجمهور العلماء ، قالوا : وهو الصحيح ؛ لأن قول المقتول : دمى عند فلان، أو فلان قتلنى، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال؛ فبطل اعتبار قول المقتول دمى عنـد فلان . وأما قتيل بنى إسرائيـل فكانت معجزة وأخبر تعـالى أنه يحييه ، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبرًا جزمًا لا يدخله احتمال ؛ فافترقا . قال ابن العربى : المعجزة كانت فى إحيائه ؛ فلمـا صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد . وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك، وليس فى القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه، فلعله أمرهم بالقسامة معه . واستبعد ذلك البخارىّ والشافعىّ وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يُقبل قوله فى الدّم وهو لا يُقبل قوله فى درهم .

مســـئلة — اختلف العلماء فى الحُكم بالقَسامة ؛ فرُوِيَ عن سالم وأبى قِلَابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عُيَيْنة[1] التوقّف فى الحُكم بهـا . وإليـه مال البخارى ؛ لأنه أتى بحديث القَسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحُكم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلفوا فى كيفيّة الحُكم بها؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حلَفوا استحقُّوا، وإن نَكَلُوا حلَف المدّعَى عليهم خمسين يمينًا وبَرِءُوا . هذا قول أهل المدينة واللّيث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة ، خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

(١) فى نسخة : « الحكم بن عتيبة » .

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم فيحلفون و يبرءون . رُوِىَ هذا عن عمر بن الخطاب والشّعْبِي والنَّخَعِى ، و به قال الثَّوْرِى والكوفيّون ؛ وآحتجُّوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير آبن يسار ؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم وهم اليهود . و بما رواه أبو داود عن الزُّهْرِى عن أبى سَلَمة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود و بدأ بهـم : "أيحلف منكم خمسون رجلا" . فأبوا ؛ فقال للأنصار : "آستحِقّوا" فقالوا : نحلف على الغيب يا رســول الله ! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وسـلم دِيَةً على يهود ؛ لأنه وُجد بين أظهرهم . و بقوله عليه السلام : "ولكن اليمين على المدّعَى عليه" فعيِّنُوا[1] . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : "لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لآدّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمـين على المدّعى عليه"[2] . رَدّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عُبيد فى تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائى وقال : ولم يتابع سعيد فى هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبيّ صلى الله عليه وسـلم بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وآبنُ عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثقفىّ وعيسى بنُ حماد و بشرُ بن المفضَّل ؛ فهؤلاء سبعة . و إن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث ســعيد بن عُبيد . قال أبو محمد الأصيلى : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عُبيد قال فى حديثه : فَوَداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من إبل الصدقة ؛ والصدقةُ لا تعطَى فى الدّيات ولا يُصالح بها عن غير أهلها ، وحديث أبى داود مرســل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هـذا الحكم أصل بنفسه لحُرْمة الدماء . قال آبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعِى واليمينَ على المدّعَى عليه ، والحُكم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخصّ الله فى كتابه أو على لسان نبيّه صلى الله عليــه وسلم حكماً فى شىء من الأشـياء فيُستثنى من جملة هـذا الخبر . فما دلّ عليه الكتاب إلزام القــاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخصّ

(١) هذه الكلمة ساقطة فى بعض النسخ . (٢) كذا ورد هذا الحديث فى بعض نسخ الأصل وصحيح مسلم . قال ابن الملك : إنما ذكر اليمين فقط لأنها هى الحجة فى الدعوى آخرا ، و إلا فعلى المدعى إقامة البينة أولا .

مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . ومما خصّته السُّنّة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسَامة . وقد روى آبن جُريج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "البيّنةُ على مَن آدّعى واليمينُ على مَن أنكر إلّا فى القَسَامة" . خرّجه الدارَقُطْنِيّ . وقد آحتج مالك لهذه المسئلة فى مُوَطّئه بما فيه كفاية؛ فتأمّله هناك .

مســئلة — وآختلفوا أيضا فى وجوب القَوَد بالقسامة؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها؛ وهو قول مالك والليث وأحمد وأبي ثَوْر؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن: "أتحلفون وتستحقون دمَ صاحبِكم" . وروى أبو داود عن عمــرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقَسَامة من بنى نضر بن مالك . قال الدارَقُطْنِي : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخارى : رأيت عليّ بن المدينى وأحمد بن حنبل والحُمَيْدى وإسحاق بن رَاهْوَيْه يحتجّون به؛ قاله الدارقطنى فى السنن . وقالت طائفة : لا قَوَد بالقسامة، وإنما توجب الدّية . رُوى هذا عن عمر وآبن عباس؛ وهو قول النَّخَعى والحسن، وإليه ذهب الثّورى والكوفيون والشافعى وإسحاق، وآحتجوا بما رواه مالك عن آبن أبي ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبي حَثْمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : "إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب" . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : "وتستحقّون دَمَ صاحبِكم" دِية دمِ قتيلِكم؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم؛ ومن آستحق دية صاحبه فقد آستحق دمه؛ لأن الدّية قد تؤخذ فى العمد فيكون ذلك آستحقاقا للدم .

مســئلة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه . واللّوْثُ : أمارة تغلب على الظن صــدق مدّعى القتل؛ كشهادة العــدل الواحد على رؤية القتــل، أو يرى المقتول يَتَشَحّط[1] فى دمه، والمتّهم نحوه أو قُرْبه عليه آثار القتل . وقد آختلف فى اللّوْث والقول به؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمى عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا فى رواية آبن القاسم عنه .

(١) يتشحط فى دمه : أي يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ .

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى آبن وهب أن شهادة النساء لَوث . وذكر محمد عن آبن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضى أبو بكر بن العربى : آختلف فى اللّوث آختلافا كثيرا ، مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحبّ إلىّ . قال : وأخذ به آبن القاسم وآبن عبد الحكم . ورُوِى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمى عند فلان ومات كانت القَسامة . وبه قال مالك واللّيث بن سعد . وآحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعىّ : اللَّوْث الشاهد العدل ، أو يأتى ببيّنة وإن لم يكونوا عدولا . وأَوْجب الثورِىّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، وآستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : إذا وُجد قتيل فى مَحلّة قومٍ وبه أثرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم ؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شىء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسُّنة ؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم . وذهب مالك والشافعىّ إلى أن القتيل إذا وُجد فى مَحلّة قومٍ أنه هَدَر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مســألة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائى : لا يقول مالك بالقسامة إلا باللَّوْث ، فلم أَوْرَد حديث القسامة ولا لَوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللّوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال آبن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان ؛ وبأن العداوة لَوْث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثًا ؛ كما تقدّم . قال الشافعى :

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التى كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتيل فى أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وَجَبت القسامة فيه .

مســـئلة — وآختلفوا فى القتيـــل يوجد فى المحلة التى أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأى : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شىء، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيـــل فالدِّيَةُ على المشترى وليس على السكان شىء، وإن كان أرباب الدُّور غُيَّباً وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذى وُجد القتيل بين أظهرهم شىء .

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدّية على السكان فى الدُّور . وحكى هذا القول عن آبن أبى ليلى ، وآحتج بأن أهل خَيْبَرَ كانوا عُمَّالاً سُكَّاناً يعملون فوُجِد القتيل فيهم . قال الثورى ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل، يعنى أهل الدور . وقال أحمد : القول قول آبن أبى ليلى فى القسامة لا فى الدية . وقال الشافعى : وذلك كله سواء، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم، أو ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء . قال آبن المنذر : وهذا أصح .

مســـئلة — ولا يحلف فى القسامة أقلّ من خمسين يمينا ؛ لقوله عليه السلام فى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسين منكم على رجل منهم". فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يمينًا واحدة، فان كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمـان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف فى العمد أقل من آثنين من الرجال، لا يحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليـاء من العَصَبة خمسين يمينًا . هذا مذهب مالك واللّيث والثّوْرى والأوزاعىّ وأحمـد وداود . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفسُهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينًا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعى . قال الشافعى : لا يُقسم إلا وارث، كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال ويستحقه إلا من له المِلك لنفسه أو من جعل الله له المِلك من الورثة ؛ والورثةُ يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثَوْر وآختاره آبن المنذر وهو الصحيح ؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه

الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يُدّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومَن نَكَل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد رُوِىَ عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق .

مســئلة — فى قصة البقرة هذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء، واختاره الكرخى ونصّ عليه ابن بُكير القاضى من علمائنا، وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومَنازعه فى كتبه، وإليه مال الشافعى، وقد قال الله : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ » على ما يأتى(١) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيي الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم(٢) . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلتُ نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

وقوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس . وهى عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥ (٢) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل ؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كَذَب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوبا ، ولا أشدّ تكذيباً لنبيهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى" . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو، كما قال : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل ؛ كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ[2] » المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدَتْ مِثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتِها أو أنت فى العين أملح[3]

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب ؛ ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلِىّ :

أحبّ محمــدا حبًّا شــديدا * وعبّاسا وحمــزة أو عليّا

فإن يك حبهم رشــدا أُصِبْه * ولستُ بمخطئ إن كان غيّا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر، و إنما قصد الإبهام. وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ؛ ثم استشهد بقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ[4] » وقال : أوَ كان شاكًّا من أخبر بهـذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة

---

(١) القساء (بالفتح والمد) : مصدر، مثل القسوة والقساوة . (٢) راجع ١٥ ص ١٣٠

(٣) راجع البيت فى خزانة الأدب فى الشاهد ٨٩٥ (٤) راجع ج ١٤ ص ٢٩٨

تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ٱبن سيرين، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك، ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهى كالحجارة أو أشدّ من الحجارة؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ » . وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم مَن قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشدّ من الحجر . فالمعنى : هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ «أشدّ» مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله « كَالْحِجَارَةِ » ؛ لأن المعنى فهى مثل الحجـارة أو أشدّ . ويجوز أو « أشـدَّ » بالفتح عطف على الحجـارة . و ﴿ قَسْوَةً ﴾ نصب على التميز . وقرأ أبو حَيْوَةَ « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ قد تقدّم معنى الانفجار[1] . ويشّقق أصله يتشقّق ، أدغمت التاء فى الشين ؛ وهـذه عبارة عن العيون التى لم تَعْظُم حتى تكون أنهـارا ، أو عن الحجارة التى تتشقّق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ٱبن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّا يتفجر» «لمّا يتشقّق» بتشديد «لما» فى الموضعين . وهى قراءة غير متّجهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجِر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعـذر شقىّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لما تتفجر بالتـاء، ولا يجـوز لما تتشقق بالتاء؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجـوز ما أنكره على المعنى ؛ لأن المعنى وإن منها لحجارةً تتشقق ؛ وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشّق واحد الشُّقوق؛ فهو فى الأصل مصدر ، تقول : بيد فلان ورجليـه شقوق، ولا تقل : شقاق ؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقّق يصيب أرساغها وربما ٱرتفع إلى وظيفها[2]؛ عن يعقوب . والشّق : الصبح . و«ما» فى قوله :

(١) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

(٢) الوظيف : مستدق الذراع والساق . وقيل : ما فوق الرسغ الى الساق .

«لمَـا يَتَفَجَّرُ» فى موضع نصب؛ لأنها آسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما ، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك « وَإِنَّ مِنهَـا لَمَـا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ منه الْمَـاءُ» . وقرأ قتادة « وإنْ » فى الموضعين ، مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَـا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ يقول : إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج المـاء منها وتردّيها . قال مجاهد : ماتردّى حجر من رأس جبل ، ولا تفجّر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن آبن جُرَيج . وقال بعض المتكلمين فى قـوله : « وإن منهـا لمـا يهْبِط مِن خشـيةِ اللهِ » : البَرَد الهـابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز ؛ وذلك أن الحجـارة لمـا كانت القلوب تعتبر بخلقها ، وتخشع بالنظر إليها ، أضيف تواضع الناظر إليها ؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة ؛ أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرىّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة ؛ كما آستعيرت الإرادة للجدار فى قوله : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ » ، وكما قال زيد الخيل[1] :

لمـا أتى خبر الزبير تواضعت ❊ سـورُ المدينة والجبالُ الخُشّـعُ

وذكر آبن بحر أن الضمير فى قوله تعالى : « وإنّ مِنها » راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة ؛ أى من القلوب لمـا يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأوّل صحيح ؛ فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل ، كالذى رُوِىَ عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب ، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال : " إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وفى كتاب سيبويه إلى جرير . ويلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين آنصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لمـا وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

إني لأعرفه الآن ". وكما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لي ثَبِير[١] اهبط فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله ". فناداه حراء : إليّ يارسول الله . وفي التنزيل : « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ[٢] » الآية . وقال : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ[٣] » يعني تذلُّلاً وخضوعا ، وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة « سبحان[٤] » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ « بغافل » في موضع نصب على لغة أهل الحجاز ، وعلى لغة تميم في موضع رفع . والياء توكيد . « عَمَّا تَعْمَلُونَ » أي عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم ؛ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[٥] » . ولا تحتاج « ما » إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذي فيحذف العائد لطول الاسم ؛ أي عن الذي تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء ، والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام .

---

(١) ثبير : جبل معروف عند مكة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٣

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٧ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٠

✤

تمّ الجزء الأول من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثاني ، وأوّله قوله تعالى : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية .

بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء الأول (الطبعة الثانية)
من كتاب " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الخميس ٢٦ محرم سنة ١٣٧٢ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٢) م

محمود عثمان الرزاز
مراقب المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٩/٢٢٤/٢٠٠٠)

